



جُمهُورِيَّة العِرَاق

وَزَارَةُ التَّعْلِيم العَالِي وَالبَحْث العِلْمِي

جَامِعَةُ بَابِل

كُلِّيَّة التَّرْبِيَّة لِلْعُلُوم الإنْسَانِيَّة - قِسْمُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّة

نظرية الفوضى وأثرها في النظرية النقدية

أطروحة تقدم بها الطالب

عقيل عبد الرزاق عبد الوهاب سلطان

إلى مجلس كُليَّة التربيَّة في جامِعَة بابل

وهي مِنْ مُتَطَلِّبَاتِ نَيْلِ شَهَادَةِ الدكتوراه في فلسفة اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَآدَابِهَا

بإشرافِ الأُسْتَاذَةِ الدكتورة

أوراد محمد كاظم التويجري

The Republic of Iraq
Ministry of Higher Education and
Scientific Research
University of Babylon
College of Education for Human Sciences –
Department of Arabic Language



Chaos theory and its impact on critical theory

Thesis submitted by the student

Aqil Abdel-Razzaq Abdel-Wahhab Sultan

To the Council of the College of Education at the University of
Babylon

It is one of the requirements for obtaining a doctorate degree in
.Arabic language and literature

Under the supervision of Professor Dr

Awrad Muhammad Kazem Al-Tuwaijri

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

البقرة (٣٢)

إلى

ليان ... إبراهيم

و

أبي (رحمه الله)

إقرار المشرف

أشهدُ أنّ إعداد هذه الأطروحة الموسومة بـ(نظرية الفوضى وأثرها في النظرية النقدية) التي قدّمها الطالب (عقيل عبد الرزاق عبد الوهاب سلطان) قد جرى بإشرافي في قسم اللغة العربية، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، جامعة بابل، وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الدكتوراه في فلسفة اللغة العربية وآدابها / أدب.

التوقيع:

المشرف: أ. د أوراد محمد كاظم
التاريخ: / / 2023م

بناءً على التوصيات المتوافرة أُرشحُ هذه الأطروحة للمناقشة.

التوقيع:

الاسم: أ. د حمزة خضير أفندي
القريشي

رئيس قسم اللغة

العربية

التاريخ: / / 2023م

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع	التسلسل
	الآية	
	الإهداء	
	الشكر والتقدير	
	شكر خاص	
أ - د		المقدمة
١ - ١٠٣		الفصل الأول: نظرية الفوضى الأصول والمقولات
١ - ٥٤		أولاً المفاهيم التأسيسية لنظرية الفوضى
١ - ٢٣		١ نظرية الفوضى مقارنة مصطلحية نشئية
٢٣ - ٣٧		٢ الفوضى في الفكر الأسطوري
٣٧ - ٥٤		٣ الفوضى في الخطاب الفلسفي
٥٥ - ٧٥		ثانياً جدل الخطاب العلمي والظواهر الفوضوية
٥٦ - ٦٠		١ فرانسيس بيكون والبحث عن الحقيقة
٦٠ - ٦٥		٢ رينيه ديكارت والبحث عن اليقين
٦٥ - ٧٥		٣ إسحاق نيوتن الكون نظام مغلق
٧٦ - ١٠٣		ثالثاً نظرية الفوضى - الفوضى هي الأصل
٧٦ - ٨٥		١ ملامح ظهور نظرية الفوضى
٨٥ - ٩٧		٢ التأصيل لفوضوية الظواهر الطبيعية
٩٨ - ١٠٣		٣ النظام ينتج عن الفوضى - الانتروبيا
١٠٤ - ٢٣٣		الفصل الثاني: نظرية الفوضى ومجازة الإطار المعرفي للنظرية النقدية
١٠٥ - ١٠٥		توطئة
١٠٦ - ١٤٢		أولاً النظرية النقدية والتأسيس لعلمية النقد
١٠٦ - ١١٥		١ النقد الأدبي وكلية المبادئ النقدية
١١٥ - ١٢٢		٢ علمية النقد والمبدأ المنبثق

١٢٧-١٢٢	علمية النقد وانغلاق النظام اللغوي	٣
١٤٠-١٢٧	أثر النظام السوسيري في النظرية النقدية	٤
١٤٢-١٤٠	الأسس المعرفية للنظرية النقدية	٥
٢٣٣-١٤٢	نظرية الفوضى في الخطاب النقدي	ثانيا
١٦٥-١٤٢	اللاشعور: أصالة الفوضى عند فرويد وجاك لاكان	١
١٨٨-١٦٦	جاك دريدا: الفوضى ومنطق الاختلاف	٢
٢١٢-١٨٩	التأويلية وكسر خطية المنهج في النظرية النقدية	٣
٢٣٣-٢١٣	النسوية والانتماء إلى نظرية الفوضى في مشروع شيفرد	٤
٣١٢-٢٣٤	الفصل الثالث: التوظيف النقدي لمفاهيم نظرية عربيا	
٢٦٨-٢٣٥	شمولية المنهاجية النقدية عند محمد مفتاح	أولا
٢٩٦-٢٦٩	نظرية الفوضى والأدب مقارنة إجرائية في ألف ليلة وليلة	ثانيا
٣١٢-٢٩٧	مفاهيم نظرية الفوضى في الرواية	ثالثا
٣١٧-٣١٣	الخاتمة	
٣٣٢-٣١٨	المصادر	
A - C	ملخص باللغة الإنجليزية	

الخاتمة

المصادر

الفصل الأول

نظرية الفوضى الأصول والمقولات

أولاً: المفاهيم التأسيسية لنظرية الفوضى

ثانياً: جدل الخطاب العلمي والظواهر الفوضوية

ثالثاً: نظرية الفوضى – الفوضى هي الأصل

الفصل الثاني

نظرية الفوضى ومجاوزة الإطار المعرفي

لنظرية النقدية

أولاً: النظرية النقدية والتأسيس لعلمية النقد

ثانياً: نظرية الفوضى في الخطاب النقدي

الفصل الثالث

التوظيف النقدي لمفاهيم نظرية الفوضى

عربيا

أولاً: شمولية المنهاجية النقدية عند محمد

مفتاح

ثانياً: نظرية الفوضى والأدب مقارنة إجرائية

في ألف ليلة وليلة

ثالثاً: مفاهيم نظرية في الرواية

المقدمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الخلق محمد وعلى آله
الطيبين الطاهرين وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد...

كان النقد الأدبي، وسبقي، حقلًا جدليًا، لا يتخذ من المعيارية مستقرا له، فهو
حقل متأثر بمجمل التغيرات التي تحدث في الحقول المجاورة والمعارف الحافة به،
وتأثره، له مسلك إيجابي، فهو ذو نمط تفاعلي، مما يكسبه حالة من التجدد، ويبدو
أنّ هذه الاستمرارية ترتبط بموضوعه (الأدب)، فعلى الرغم من أصالة الملكة النقدية
في النفس البشرية، إلا أنه يتخذ من الأدب ميداناً لحضوره الفاعل، فيتكوّن بوساطة
هذا الموضوع استقلاله المعرفي، ولما كان الأدب راكزاً على حالة التغير وكسر
النظم، كان لزاماً على النقد أن يتخذ من هذه التجديدية سمة تشكل فاعليته
الاستمرارية والتفاعلية في التأثير والتأثر بالحقول المعرفية المجاورة.

ولذلك نجد أن النظرية النقدية، بوصفها مصطلحاً يرتبط بما قدمته الحداثة،
كانت نتاجاً لحالة التغير المعرفي الذي رافق تطور مقولة العلم، وتشكيل خطاب
العلمية الذي أخذ على عاتقه التأسيس لعقلانية تضبط حدود النقد معرفياً، وبذلك
يحقق النقد نظرياً استقلاله باكتسابه العلمية.

هذه العلمية هي من أنتجت (النظرية النقدية)، بوصفها تجلياً تفسيرياً للأدب
موضوع النقد، ولما كان الطابع التفسيري يركن إلى المقايسة بافتراض أوليات بدهية
عقلية ثابتة، كان لزاماً على النظرية النقدية أن توجه اهتمامها صوب المقايسة في
محاولة لردّ المتغير إلى الثابت، وهو ما رفع من قيمة الخطاب العلمي بحديه النظري
والمنهجي، فوق مستوى الموضوع وهو الأدب، وعلى الرغم من طروحات الكثير من

النقاد في إعلاء قيمة المتغير، كما فعل نورثروب فراي، وإيفور رتشاردز، إلا أنهم لم يكسروا حدود مقولات الخطاب العلمي ومنتجه (النظرية النقدية).

وفي خضم التطور السريع لما قدمه العلم، برزت (نظرية الفوضى) بوصفها رؤية أكثر ارتباطا بالموضوع، فهي تكشف لنا عن إمكانية تشكيل معرفة خارج مقولات الخطاب العلمي، وذلك برصدها مجموعة من الظواهر الطبيعية التي تكسر فكرة النظام، وتشرح مقولة العقل، مما دفع روادها، لا إلى رفض المنتج العلمي، إنما توجهوا صوب شذوذ الظواهر ذات المنزع النظامي، فكان اللانظام مصدرا معرفيا لها.

قدّمت نظرية الفوضى تأصيلا مغايرا للنقد الأدبي، محاولة تخليصه من سكونية المنهج العلمي، والتحول تجاه حالة التغيّر، هذا الانتقال يُشعر الخطاب العلمي بالخطر، فمع الفوضوية أصبح التنبؤ بالمستقبل يقع ضمن المجهول، مبيّنا أن الخطية الزمنية وهم، فما يمكن أن يوصف بأنه ثابت خارج حدود الزمن مما يعني إمكانية التنبؤ به، يعدّ حكاية أسس لها الخطاب العلمي، وما يوجد على مستوى الواقع هو الفوضى التي يمكن لها أن تنتج حالة من الانتظام غير المستقر، فالأصل هو المتغيّر لا الثابت، والاحتمال وليس اليقين.

وهو ما وضع مجموعة من المقولات موضع المساءلة، فثنائية الذات/الموضوع، المعقول/المحسوس، ذات الطابع التراتبي، صُنّقت بأنها ثنائيات، هدفها رصد الظواهر بمعزل عن الذات بوصفها مراقبا خارجيا، فتتحقق مقولة الموضوعية العلمية، إلا أن عملية العزل لما هو موضوعي آلية إقصائية تحجب الموضوع، وتعلي من فاعلية المنهج.

والإشكالية التي ينطلق منها البحث هي محاولة رصد التغيير المعرفي، فالبحث لم يكن معنيا بحالة الإجراء النقدي، قدر اهتمامه بأثر نظرية الفوضى بخلق نموذج معرفي للنقد الأدبي، يطور من إمكانيات قراءة العمل الأدبي، ومن هذه الإشكالية تطور سؤال البحث الرئيس وهو البحث عن (الأثر)، مما يستلزم منا حركتين على مستوى البحث، الأولى معنيّة بتحديد مقولات الخطاب العلمي على المستوى المعرفي ومدى هيمنتها على النظرية النقدية، والثانية التأسيس لـ(نظرية الفوضى) معرفيا ضمن حقول تمظهرها، ومن ثم العمل على رصد هذا التمظهر في الخطاب النقدي المتجاوز لحدود النظرية النقدية.

ولذلك كان تعدد المناهج النقدية لدينا مبني بحسب قاعدة معرفية واحدة، مما يجعل التنوع فاقدا للمغايرة الكيفية، فكل المناهج صور تطبيقية للنموذج المعرفي، وما قدمته نظرية الفوضى هو ضرب لهذه القاعدة المعرفية التي أسست النظرية النقدية، ومن هذه الرؤية تشكل لدينا سبب اختيار الموضوع تحت هذا العنوان.

وبحسب هذا الرؤية قُسم البحث إلى ثلاثة فصول، اتخذ الفصل الأول على عاتقه البحث عن الفوضى لغة واصطلاحا، وتتبع وجودها في الحقل الأسطوري، ومن ثم الانتقال إلى بيان ملامح نظرية الفوضى في حقولها العلمية المتخصصة، وهذا التوجه فرض علينا أن نخلق حالة من الموازنة بين مقولاتها - نظرية الفوضى - ومقولات الخطاب العلمي الذي انتخبنا له ثلاثة ممثلين هم فرانسيس بيكون ورينيه ديكارت وإسحاق نيوتن.

وكان الفصل الثاني مخصصا لقسمين الأول عملنا فيه على رصد مقولات النظرية النقدية بوصفها امتدادا للخطاب العلمي، وذلك بتتبع الاشتغال النقدي لرتشاردز ونورثروب فراي ومن ثم الشكلائية ومآلها البنيوي، مع بيان أثر فردينان دي

سوسير.

والقسم الثاني كان مخصصا لتمثل طروحات نظرية الفوضى في الحقول المعرفية التي رفدت الحقل النقدي، فوقفنا على مقولا فرويد وجاك لاكان ممثلين عن التحليل النفسي، ومن ثم انتقلنا إلى جاك دريدا واستراتيجيته التفكيكية، ورفدنا البحث بعد ذلك بحضور مقولات نظرية الفوضى لدى هانز جورج غادامير وتأويليته، وختمنا الفصل بحضور نظرية الفوضى في المشروع النسوي لـ ليندا شيفرد.

وكان الفصل الثالث مخصصا لتتبع استثمار النقدية العربية لنظرية الفوضى ولقد انتخبنا لذلك ثلاثة نماذج الأول هو محمد مفتاح والثاني للناقدة شريفة محمد العبودي، والثالث للباحثة سعاد بن ناصر.

وقد سبقت هذا البحث أطروحة في الجزائر (نظرية الفوضى وتمثلاتها في الرواية الجزائرية) للباحثة سعاد بن ناصر، وكان اشتغالها مقصورا على تحديد مقولات نظرية الفوضى ومحاولة نقلها إلى البعد الإجرائي بحثا عن تمثل هذه المقولات في النصوص الأدبية، لذلك كان عملها إجرائيا ولم تسع لرصد التغير المعرفي الذي أنتج نظرية الفوضى.

ولقد واجه الباحث صعوبة في سيرورة هذا البحث، إذ لنظرية الفوضى طابعها التعقيدي على مستوى المفاهيم، وهي مفاهيم ترجمت إلى العربية بصور متعددة منها لفظ الفوضى (chaos)، وكذلك قلة المصادر العربية التي تؤسس لنظرية وارتباطها بالنقد الأدبي، فضلا عن ندرة الكتب المترجمة.

وفي الختام أقول: إنَّ هذا البحث أنجز تحت الرعاية العلمية لأستاذتي المشرفة أ. د أوراد محمد كاظم، فما كان لينهض البحث لولا مشورتها، فجزاها الله عني خير الجزاء.

لا يسعني إلا أن أشكر أعضاء لجنة المناقشة الذين يقع على عاتقهم تخليص
البحث من هناته، ليستقيم بما يقدمونه من ملاحظ علمية تدفع بالبحث إلى ضفة
الرصانة العلمية.

Introduction

Praise be to God, Lord of the worlds, and prayers and peace be upon the master of creation, Muhammad, and his good and pure family, and peace be upon him abundantly.

As for after...

Literary criticism was, and will remain, a dialectical field that does not take normativeism as a stable field. Continuity is related to its subject (literature). Despite the originality of the critical faculty in the human psyche, it takes literature as a field for its active presence, and through this subject its cognitive independence is formed. Since literature was focused on the state of change and breaking of systems, criticism had to take from This novelty is a feature that constitutes its continuity and interactivity in influencing and being affected by the neighboring fields of knowledge.

Therefore, we find that critical theory, as a term related to what modernity presented, was a product of the state of cognitive change that accompanied the development of the science category, and the formation of scientific discourse that took upon itself the establishment of a rationality that controls the limits of criticism cognitively, and thus criticism theoretically achieves its independence by acquiring scientific knowledge.

This science produced (critical theory), as an explanatory manifestation of the literature that is the subject of criticism, and since the explanatory character relies on comparison by assuming fixed mental axioms, it was necessary for critical theory to direct its attention towards comparison in an attempt to return the variable to the constant, which raised The value of scientific discourse in its theoretical and

methodological aspects is higher than the level of the topic, which is literature. Despite the proposals of many critics to raise the value of the variable, as did Northrop Frye and Ivor Richards, they did not break the limits of the categories of scientific discourse and its product (critical theory).

In the midst of the rapid development of what science presented, (chaos theory) emerged as a vision more relevant to the subject, as it reveals to us the possibility of forming knowledge outside the categories of scientific discourse, by monitoring a group of natural phenomena that break the idea of order, and crack the category of reason, which prompted its pioneers, Not to reject the scientific product, but rather they headed towards anomalous phenomena with a systemic tendency, so the system was a source of knowledge for them.

Chaos theory presented a different rooting for literary criticism, an attempt to rid it of the static of the scientific method, and shift towards a state of change. This transition makes scientific discourse feel dangerous. With anarchism, prediction of the future falls within the unknown, indicating that temporal linearity is an illusion, so what can be described as fixed outside the limits of Time, which means the possibility of predicting it, is a story that has foundations for scientific discourse, and what exists at the level of reality is chaos that can produce a state of unstable regularity, as the origin is the variable, not the constant, and possibility, not certainty.

This is what puts a group of categories into question. The duality of the subject/object, the reasonable/the tangible, of a hierarchical nature, has been classified as binary, whose aim is to monitor phenomena in isolation from oneself as an external observer, so the argument of

scientific objectivity is realized, but the process of isolation of what is objective is an exclusionary mechanism. Obscure the topic, and increase the effectiveness of the curriculum.

The problem from which the research stems is an attempt to monitor cognitive change. The research was not concerned with the state of critical action, as much as it was concerned with the impact of chaos theory by creating a cognitive model for literary criticism that develops the possibilities of reading literary work. From this problem, the main research question developed, which is the search for (effect). Which necessitates two movements from us at the level of research, the first is concerned with defining the categories of scientific discourse at the cognitive level and the extent of their dominance over critical theory, and the second is the establishment of (chaos theory) cognitively within the fields of its manifestation, and then working to monitor this manifestation in critical discourse that transcends the limits of critical theory. .

نظرية الفوضى الأصول والمقولات

أولاً: المفاهيم التأسيسية لنظرية الفوضى

١- الفوضى مقارنة مصطلحية نشئية

إنّ لفظ الفوضى الوارد في البحث هو ترجمة لكلمة (chaos)^(١)، وهذا الأخير أصله يوناني مشتق من الكلمة (kā'os)^(٢)، وتدل هذه الكلمة في أصل وضعها اللغوي على التشويش، والضجيج، والإرباك، والفوضى المطلقة التي تظهر من الغياب التام للنظام^(٣)، فالوجود الفوضوي هو عالم يفتقر إلى المركزية التي تفرض عليه انتظاماً معيناً يحقق في هذا الوجود النظام، فالفوضى عماء، عالم غير صالح، في أدنى حالاته للفهم والتفسير العلمي؛ وهذه كلها تمثيل لرؤيا النظام، أي أن المعنى اللغوي لـ(الفوضى) هو تصور النظام عمّا لا يمكنه فهمه. ولأجله رادف الفوضى مجموعة من المصطلحات التي تعكس بشكل أولي تصور النظام عنها، فالفوضى في المعاجم الأجنبية ارتبطت بكل ما هو مرتبط بالـ(لا): اللا نظام، اللا خطية، اللا استقرار، اللا حتمية^(٤)، ولا تقف المعاجم عند هذا الوصف فقط بل تحاول أن تبين ما تشير إليه هذه المفردة بواسطة قائمة من المصطلحات التي تشير إلى مصاد النظام

^١ - المورد الحديث: منير البعلبكي و د. رمزي منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان: ٢٠٩.

^٢ - المورد الحديث: ٢٠٩.

^٣ - ينظر: التقارب الجدلي التنظيمي لنظريتي الفوضى والتعقيد في منظمات الأعمال العراقية(بحث اختياري في عينة من الكليات الأهلية): أ.د. مؤيد الساعدي، مدرس حسن جبر علوان،: ٥

^٤ - ينظر: فلسفة الفوضى رؤية مستقبلية لتوظيف نظرية الفوضى في فلسفة العلوم: أحمد محمد محمد سالم مطر، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، كلية البنات قسم الفلسفة، ٢٠٠٩: ١٤.

الفصل الأول

فهي: اختلال كلي، بلبلة، زُكام، هباء، خواء، عماء، فراغ، اختلاط، سديم، غياب النظام...^(١)، وهناك من يضيف إلى ذلك رؤية أخرى فيجعلها - أي الفوضى - حالة من الوجود تختلف عمّا عليه الوجود الآن، فيذكر صاحب المورد ما يأتي: "أ- الشواش: اللاتكون، حالة الكون المختلطة قبل تكوّنه. ب- الهیولی: المادة اللا متشكلة المفروض أنها سبقت وجود الكون"^(٢).

وهذا التصوّر الأخير يجعل من كوننا الذي نعيش فيه حالة وجودية منبثقة عن الفوضى، والذي يعني أن كل ما نملكه من طرق تفكير ومنطق عقلي نشغل فيه، ومن خلاله تحقق نواتنا إنسانيتها، ما هو إلا حالة وجودية مُشكّلة لمادة أولية لا تمتلك هوية محددة، بل - كما سنرى في محور الأسطورة - أن الفوضى مصدر خطر دائم، فيما أنها حالة وجودية، فهذا يجعلها حاضرة في قلب النظام، وديمومة أي نظام هو مقدار استطاعته على إقصاء هذه الحالة. من هذه النقطة تحديداً ظهر تصور الأسطورة لعالمنا، فوردت الفوضى (chaos) في كتاب أنساب الآلهة - ترجمت بالخواء - " إذن في البدء كان الخواء [الفوضى]، ثم وجدت من بعد الأرض الصدر الواسع. مهذا آمنا إلى الأبد لجميع الكائنات ولكافة الخالدين الذين يسكنون قمم الأولمب المغطاة بالثلج"^(٣)، وهو تقسيم للوجود إلى حالتين :

- ١- الأصل هي الفوضى، مع كل الصفات سابقة الذكر.
- ٢- والنظام الحالي مع كل الصفات التي يتمتع بها النظام من استقرار وتنظيم.

^١ - ينظر: فلسفة الفوضى رؤية مستقبلية لتوظيف نظرية الفوضى في فلسفة العلوم : ١٤ .

^٢ - ينظر: المورد الحديث: ٢٠٩.

^٣ - أنساب الآلهة: هيزيودوس، ترجمة صالح الأشمر، منشورات الجمل، بيروت بغداد، ط ١

٢٠١٥ : ٤١-٤٢.

الفصل الأول

فالفوضى (chaos) هي المقابل المضاد لـ (κόσμος - cosmos) والذي يعني " ١- الكون (بوصفه نظاما متناغما) ٢- نظام كامل متناغم، ٣- نظام، تناغم...^(١)، ومن هنا يجب أن ننظر في معنى النظام، أو نحاول النظر في المعنى الذي يؤسسه الخطاب للنظام، يقدم لنا جميل صليبا عن النظام (order) ما يأتي^(٢):

- ١- النظام هو الترتيب والاتساق.
- ٢- النظام مفهوم عقلي أساسي ويشمل الترتيب الزمني والمكاني والعددي والسلاسل والعلل والقوانين والغايات والأجناس والأنواع و الأحوال الاجتماعية والقيم الأخلاقية والجمالية.
- ٣- النظام رياضيا، الترتيب والاتساق بين الحدود.
- ٤- النظام طبيعيا، هو اطراد وقوع الحوادث وفقا لقوانين معينة.
- ٥- النظام اجتماعيا، مجموع القوانين التي ينبغي للأفراد أن يتقيدوا بها ويخضعوا لها.

النظام قائم على وجود (القانون) و (تكرار)ه، فمن دون وجود القاعدة القانونية وعملية التكرار التي تحقق استمرارية القاعدة لا يوجد نظام، بل توجد الفوضى. فالقانون يضمن لنا التحكم بالظواهر من لحظة البداية حتى النهاية المستقبلية، والتكرار يحقق لنا التناغم، فلا توجد مفاجآت في الظواهر الخاضعة لمقولة النظام، وهو ما لا نلمحه في التعريفات التي قُدمت عن الفوضى (chaos). ولهذا يُقال "الشواش [الفوضى]

١ - المورد الحديث : ٢٧٨.

٢ - ينظر: المعجم الفلسفي: الدكتور جميل صليبا، النشر ذوي القربى، قم، ط١، ١٣٨٥هـ: ٤٧١/٢-٤٧٢.

الفصل الأول

غالبا ما يولد الحياة، بينما النظام oadre يولد العادة^(١)، وهذه مقولة مهمة يمكن لنا أن نولد منها تصورا يفسر لنا التعارض بين ما هو طبيعي/ ثقافي.

في البحث عن معنى الفوضى يكشف الخطاب عن نفسه، عن رؤيته التي يسعى إلى تأكيدها، إن تحديد الفوضى من قبل الخطاب الفلسفي، هو كشف عن محددات الخطاب الأولية التي تأسس بحسبها، وهذا ما نلتمسه عند لالاند في وموسوعته الفلسفية، فهو يعرف الفوضى بما يأتي:

- ١- "قديمًا هي فراغ مظلم وبلا حدود، كان قائما قبل وجود العالم الحالي" ^(٢)
- ٢- "لا حقا هي خليط غامض من كل عناصر الكون قبل أن تكون قوة ناظمة بتنظيمها وترتيبها" ^(٣)
- ٣- "مجموع فوضوي ومنفلة ... لم يكن في مستطاع التنوع المطلق لخلاء ما، أن يحظى بفرصة فعل ما، وتاليا بفرصة أي فكر" ^(٤).

تقدم هذه التعريفات الثلاثة تراتبا تاريخيا لتطور فكرتين الأولى هي الفوضى والثانية هي النظام، فكل وصف وحدّ يخص الفوضى يقابله وصف يخص النظام، فضلا عن محددات لفظية يضعها لالاند مع كل تعريف لها بعد دلالي يكشف لنا عن هذا الترتب التاريخي، فالتعريف الأول جاء مدعوما بكلمة (قديمًا - رؤية

١ - مدخل إلى نظرية التعقيد والشواش: معين رومية، مجلة المعرفة، سوريا، العدد ٤٧٨، ٢٠٠٣: ٢٩١.

٢ - موسوعة لالاند الفلسفية معجم مصطلحات الفلسفة النقدية والتقنية: أندريه لالاند، تعريب خليل أحمد خليل، إشراف أحمد عويدات، دار عويدات للنشر والطباعة بيروت - لبنان، ط٢٠٠٨: ١/١٦٨.

٣ - م. ن. : ١/١٦٨.

٤ - م. ن. : ١/١٦٨.

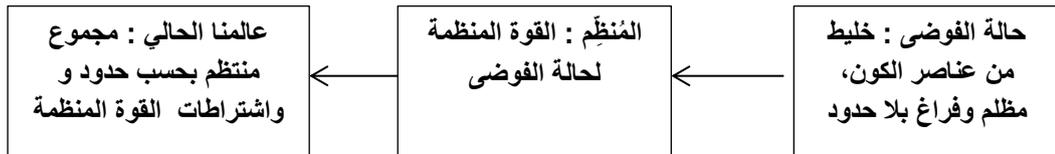
الفصل الأول

أفلاطون) وعليه يكون التعريف مستمدا من تصورات أفلاطون، والتعريف الثاني دُعِمَ بكلمة (لاحقا - تحت تأثير الأفكار المشرقية، سفر التكوين) وهذا يعطينا المصدر الذي أخذ منه التعريف الثاني.

نرجع للتعريف الأول، نجد فيه مجموعة من الكلمات الواصفة للفوضى وهي مقابلة لأوصاف تخص النظام :

الفوضى	النظام
فراغ	وجود
مظلم	مضيء
بلا حدود	حدود

يصف التعريف حالتين للوجود من دون ذكر لحدّ فاصل يميز بينهما، وهذا ما يتكفل به التعريف الثاني، والذي يقَدِّم لنا فكرة مركزية في رسم الحد الفاصل بين الفوضى والنظام، يقدم التعريف فكرة (الْمُنْظَم) أو القوة المنظمة لعالمنا الحالي⁽¹⁾، فهذه العناصر الكلية الغامضة التي بلا حدود تُشكّل وتنظم بحسب هذا الْمُنْظَم، وكل ما يخرج عن هذا الحدّ الفاصل يكون من الفوضى، وهذا ما نجده في التعريف الثالث الذي يؤكد على فكرة مركزية أخرى مؤداها أن كل تجمع لا يكون ذا قيمة مالم يكن هناك مركز مُنْظَم لهذا الخليط، فالمجموع لا يمكنه أن يُقدّم على فعل أو أن تبرز فكرة ما، مادام المجموع خالٍ من الْمُنْظَم.



١ - موسوعة لالاند الفلسفية : ١٦٨/١

الفصل الأول

وما يجب أن نركز عليه في هذه التعريفات هو مصطلح (الحدّ)، وهو من المصطلحات المنطقية، وما نريده هو أن نبين ما هو الحدّ؟ ومن الذي يعيّن الحدود؟. إن الحدود هي العلامة المميزة لهذا العالم فوجودها يعني وجود النظام، وانعدامها يعني دخولنا في الفوضى، إن لفظ الحدّ يُعرّف بأنه "القول الدال على ماهية الشيء"^(١)، ويعرف أيضا بـ "الحدّ قول دلل على معنى الشيء الذي به وجوده"^(٢)، ويُعرف أيضا بـ "الحدّ يُعرّف جوهر الشيء"^(٣)، فالحدّ: ماهية الشيء، معنى الشيء، جوهر الشيء. ولا بدّ من واضع لهذا الحدّ وهو القوة المنظمة (المنظّم)، لأنه بحسب ما سبق من تحديدات، مَنْ يعطي الأشياء وجودها هو المنظم، وهذا الوجود مقترن بالحدود التي توضح الأشياء والعناصر فتخرجها من حالة الخليط الغامض إلى الكون المنتظم.

ومن هنا نشأ التقابل الضدي بين الفوضى والنظام، بين اللاحد / الحدّ، أو لنقل بين من يمتلك المعنى واللامعنى، فلا يمكن ان نحدد ماهية الشيء أو جوهره في الفوضى، ولا نملك القدرة على أن نميّزه عن غيره، ولذلك ذكر لالاند التعريف الأخير أن الفوضى "مجموع فوضوي منفلت"^(٤)، والدالة المهمة في هذه التعريفات أن تُظهر أن الفوضى حالة منفصلة عن حالة الوجود الآني، وهذا التصور فيه نظر، لأن التعريفات نفسها تُشير إلى حالة من التداخل بين الوجوديين، فعناصر وجودنا

١ - موسوعة مصطلحات علم المنطق عند العرب: د.فريد جبر، د.رفيق العجم، د.سميح دغيم،

د.جيرار جهامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، ط ١ ١٩٩٦ : ٢٨٣.

٢ - م . ن : ٢٨٧.

٣ - م . ن : ٢٨٧.

٤ - موسوعة لالاند الفلسفية : ١٦٨/١

الفصل الأول

الآني هي نفسها عناصر الفوضى التي عبر عنها لا لاند بأنها خليط غامض من عناصر الكون، هذا يعني أنها المادة الأولية لتشكل النظام.

إنّ الظواهر الفوضوية حاضرة في الكون في قلب هذا النظام، ومشكلها الوحيد أنها لم تُستوعب من قبل النظام نفسه، أو لنقل أن الحدود انفلتت منها هذه الظواهر، ونحن بوصفنا مراقبين لظواهر الكون نَتَعَقَّلُها بحسب الحدود، وإذا كانت الحدود لا تستوعب الظواهر فهل المشكل في الظواهر؟ أم هل هو في الحدود؟ والنظام الذي وضعها؟، ومن هنا حدث الإقصاء، على الرغم من قصور الحدود، ولكنه الخطاب الذي يؤسس لهذه المركزية، فما كان خارج حدود الخطاب فهو فوضى، خليط غامض لا معنى له، ومن كان من ضمنها كان نظاما.

فالفوضى تتمظهر بوصفها الطرف المقابل للنظام، وبما أن النظام محكوم بالقوانين، من هنا ميّز الدارسون بين نوعين من السلوكيات في الكون، فهناك السلوك النظامي، وهناك السلوك الفوضوي، وهنا كان لزاما علينا محاولة الاقتراب من كشف الفارق بين السلوكين، والوقوف على ماهية الفوضى قبل الانتقال إلى تحديد (علم الفوضى) و (نظرية الفوضى).

بعد أن بيّنا المعنى اللغوي لكلمة الفوضى، والذي يمكن أن نوجزه أن الفوضى: هي المقابل للنظام، وهذا النمط من التعريفات يقوم على التعريف بالمضاد، فمن خلال بيان النظام يتم تحديد الفوضى آليا، ولذلك هناك من جعل من الفوضى لفظا ليس له معنى لأنها حالة لا يمكن تحديدها؛ لأنها خارج حدود البناء المعرفي للعلم، وهذا ما دفع دانييل ستين لتعريف الفوضى بأنها "مفهوم غيبي؛ لأن الكثير من الناس يتحدثون عنه لكن لا أحد يعلم ما هو حقيقة"^(١).

١ - مدخل إلى نظرية التعقيد والشواش: ٢٩١-٢٢٠.

الفصل الأول

ومن هذا التصور الأولي لمعنى الكلمة نحاول أن نرصد الآن بشكل أولى السلوك الذي يمكن أن يصنف على أنه سلوك فوضوي بحسب مقولات العلماء المؤسسين لنظرية الفوضى.

تقدم لنا المعجمات والقواميس السلوك الذي يعد فوضوياً، فهو كل سلوك يُعدّ شاذاً بحسب أي منظومة : لغوية، أخلاقية، علمية، اجتماعية، ... فكل نظام يفرض خطابه على السلوكيات الموافقة لقواعده التأسيسية، وعليه فكل سلوك لا يلتزم بهذه القواعد يعد فعلاً فوضوياً، يجب أن يقصى، أو أن يهذب حتى تتقبله المنظومة ككل، فهي عملية طرد لكل مخالف، أو تُهَمَّه يمكن أن يلصقها الخطاب بكل فعل خارج على - عن مقولاته. ومن الأمثلة الأكثر واقعية ما قدمه المتخصصون من وصف لحركة المياه، "إن جريان الماء يعتبر منظومة ديناميكية تعطي مثالا عن نظرية المنظومات اللاخطية"^(١) وهذه المنظومات اللاخطية هي التي تكون فيها المدخلات غير متناسبة مع مخرجاتها^(٢)، وهي صورة من صور السلوكيات الفوضوية، والتي دفعت إلى تعريف السلوك الفوضوي بأنه "سلوك شاذ وغير منطقي"^(٣)، وهذا يبيّن لنا بشكل جلي المقابلة بين السلوك المنطقي، وهو السلوك الذي تفهم من لحظة حدوثه النتائج التي تترتب عليه؛ لأنه مُنشأ بحسب قواعد خطاب محددة، وبين سلوك لا يمكن التنبؤ بما سينتج عنه، لأنه متجاوز للقواعد، فكان سلوكاً غير منطقي.

١ - مدخل إلى نظرية التعقيد والشواش: ٢٢٥.

٢ - ينظر: م . ن . : ٢٢٥.

٣ - م . ن . : ٢٢٥.

الفصل الأول

تسعى العلوم كلها إلى تأكيد الاستقرار، والمحافظة عليه في أنظمتها، والسلوك المستقر "الذي لا يختفي بمجرد حدوث تغيير صغير في قيمة بعض المؤشرات"^(١)، فكل سلوك ملتزم بقواعد الخطاب الخاص بالعلم يكون مستقرا، وإذا ما انحرف السلوك عن هذه القواعد بمقدار بسيط أو صغير فإنه يكون مولدا لـ اللإستقرار، واللامستقر صفة ملازمة للسلوك الفوضوي، إذ عدم الاستقرار ينتج عنه عدم القدرة على التنبؤ بما سيؤول إليه السلوك، ومن الأمثلة اليومية للسلوك الفوضوي ما تقدمه حركة الطقس^(٢)، بل نجد السلوك الفوضوي حاضرا في أبسط تحركات عناصر الطبيعة، وما يميز هذا السلوك أنه "سلوك شاذ يصعب تفسيره في ضوء براديم/ نموذج قياسي إرشادي سابق"^(٣).

وهنا يبين لنا صاحب كتاب بنية الثورات العلمية في فصل مخصص عن الشذوذ ومدى تأثيره على تعزيز الاكتشافات العلمية، يبين لنا السلوك الشاذ- الفوضوي بقوله "أن الطبيعة قد ناقضت بصورة أو بأخرى التوقعات المرتقبة في إطار النموذج الإرشادي الذي ينظم العلم القياسي"^(٤)، فالنموذج الإرشادي القياسي هو القواعد التي نفهم من خلالها الظواهر والسلوكيات، ومتى ما كانت الظواهر والسلوكيات مخالفة لهذا النموذج كانت فوضوية، وهو يشير إلى قضية مهمة متعلقة

١ - نظرية الفوضى علم اللامتوقع: جايمس غليك، ترجمة أحمد مغربي، دار الساقى بالاشتراك مع مركز البابطين للترجمة، الحمراء- الكويت، ط ١ ٢٠٠٨: ٦٥.

٢ - ينظر: فلسفة الفوضى رؤية مستقبلية لتوظيف نظرية الفوضى في فلسفة العلوم: ١٥، نظرية الفوضى علم اللامتوقع: ٢٥، وما بعدها.

٣ - فلسفة الفوضى رؤية مستقبلية لتوظيف نظرية الفوضى في فلسفة العلوم: ١٧.

٤ - بنية الثورات العلمية: توماس كون، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون - الكويت، عدد ١٦٨ - ١٩٩٢: ٨٨.

الفصل الأول

بوظيفة النموذج الإرشادي، فهو من جهة يفسر لنا الظواهر، ويعجز أمام الظاهرة المخالفة لاشتراطاته، ومن جهة أخرى أن الكشف عن الشذوذ^(١) يتيح الفرصة لتغيير النموذج الإرشادي^(٢) نفسه، إنها القدرة على التوسع من جانب الخطاب.

وعليه يمكن أن نقول أن السلوك الفوضوي هو سلوك لا يتقبله النظام، أيا كان هذا النظام، فكل فعل ينتج في الكون لا يمكن تفسيره أو توقع ما سيؤول إليه هذا السلوك هو سلوك فوضوي، هامشي، لا مستقر، فهو أدنى رتبة من السلوك المنظم الخاضع لمقولات الخطاب واشتراطاته، وهذه السلوكيات (الشاذة) بحسب الخطاب المركزي، بدأ بعض العلماء من مقاربتها، فبدأت دراسات تحاول رصد الظواهر الطبيعية التي يزيحها العلم النظامي من اشتغاله، فالعلم (التقليدي)^(٣) أصابه العجز من الكثير من الظواهر التي لم يستطع فك شفرتها القانونية؛ لأن الوقوف على قانون الظواهر الكونية - بحسب العلم التقليدي - يعني القدرة على التحكم بالظاهرة.

وهناك مجموعة واسعة من الظواهر التي لم يستطع هذا العلم التعامل معها، ومن هذه الحدود التي يتوقف عندها العلم بدأت نظرية الفوضى، يقول جيمس غليك " فمنذ شرع العلم في حلّ ألغاز الكون، عانى دوما من الجهل بشأن ظاهرة الاضطراب، مثل تقلبات المناخ، وحركة أمواج البحر، والتقلبات في الأنواع الحية وأعدادها، والتذبذب في عمل القلب والدماغ"^(٣) ونحن نضيف الأدب، وهو أحد هذه السلوكيات التي تنتج في هذا الكون التي تخالف المنظومة اللغوية دوما، لأنه في أصله مرتبط بمنطقة لا يمكن أن يفهم أو يمكن التنبؤ بها إنها منطقة الانفعالات الوجدانية، فالأدب بحدّ ذاته ظاهرة فوضوية، وهو ما سنحاول أن نبينه في محله.

١ - بنية الثورات العلمية: ١٠١.

٢ - ينظر: نظرية الفوضى علم اللامتوقع: ١٦ وما بعدها.

٣ - م . ن : ١٦.

الفصل الأول

ومن هنا تحديداً ظهر علم جديد (علم الفوضى - Chaos Science)، هذا العلم أخذ على عاتقه تقديم وصف أولي لظواهر كونية متعددة لم يمتلك العلم التقليدي القدرة على فهمها، بل "إن الجانب غير المنظم من الطبيعة، غير المنسجم وغير المتناسق والمفاجئ والانقلابي، أعجز العلم دوماً" (١).

أخذ علم الفوضى بجذب العلماء إلى ساحة ظواهره التي يدرسها، فتشكّلت الكثير من المراكز البحثية التي تحاول فهم الفوضى (Chaos) للوقوف على "الخيوط التي تجمع ظواهر الفوضى كلها" (٢)، فعرف (علم الفوضى) بأنه "ذلك العلم الذي يختص بدراسة القوانين الخفية التي تحكم البيئات العشوائية غير المتوقعة المنتشرة في الكون" (٣)، إنه سباق لكشف القوانين التي تحكم الظواهر التي لا تتصف بالانسجام والاستقرار والتناسق، وهذا ما ينتج عنه عدم القدرة على التنبؤ، فعرف علم الفوضى بأنه "دراسة السلوك المعقد غير المتنبأ به كالطقس والأرصاد" (٤)، وعرف علم الفوضى رياضياً بالآتي "علم الفوضى يصف التركيبات أو الأنساق غير الخطية وشديدة التعقيد من حيث الزمان والمكان، بأنها تتبع قواعد وقوانين محددة؛ وهذا يقودنا إلى التعريفين الآتيين:

١- السلوك الفوضوي الناتج عن العشوائية يحدث في النظام الحتمي

.Deterministic

١ - نظرية الفوضى علم اللامتوقع: ١٦.

٢ - م . ن : ١٦.

٣ - فلسفة الفوضى رؤية مستقبلية لتوظيف نظرية الفوضى في فلسفة العلوم: ١٥.

٤ - م . ن : ١٥.

الفصل الأول

٢- الدراسة الكمية للسلوك الدوري غير المستقر في حتمية الأنساق - الأنظمة الديناميكية اللاخطية" (١).

ومن هذه التعريفات نجد أن هناك مجموعة من المصطلحات الجديدة التي بدأت تظهر، واصفةً بعض مظاهر السلوك الفوضوي، فنجد التعقيد، العشوائية، النظام الحتمي، اللاخطية، وهي ستتضح مع تقدم البحث وتحديداً مع الاشتغال على تحديد مصطلح (نظرية الفوضى - Chaos Theory).

تُظهر لنا محددات علم الفوضى حالة تقسيم العلم إلى نموذجين، هذا التقسيم في أصله مبني على وجود ظواهر مختلفة، فالعلم التقليدي يقارب ظواهر خاصة به، مما يعني أن له طرقاً خاصة ينتهجها تتوافق مع مجموعة من الظواهر، وعلى العكس منه ما يدرسه علم الفوضى، فهذا الأخير يختص بما لا يتمكن العلم التقليدي من سبر أغواره، من هنا كان السلوك الفوضوي سلوكاً مستقلاً ومنعزلاً عن غيره (٢)، وهو ما سنكتشف أنه غير ممكن، بمعنى أن الفوضوية جزء من كل شيء منظم، أو لنقل أنها شرط وجود النظام، ولكن ما يجب أن نؤكد، أن السلوك الفوضوي لا يمكنه أن يقلب إلى سلوك نظامي أو حتمي، وهذه حقيقة علمية، يقول علي عبد المجيد الحريري " إنه من المستحيل قلب الظواهر الفوضوية لتصبح ظواهر حتمية... فإن الظواهر الفوضوية هي ظواهر مستقلة وإذا أردنا أن نقلبها لتصبح حتمية فإن هذه الحالة تشبه حال رجل يمشي على قدم واحدة... إن هذه النتيجة تستند إلى مقياس كمي إنها لا تستند إلى المزاجية أو الميول السياسية" (٣)، فالاختلاف بينهما - أقصد

١ - م . ن : ١٥-١٦ .

٢ - ينظر: فلسفة الفوضوية: علي عبد المجيد الحريري، نينوى للنشر والتوزيع، سورية-دمشق، ط١، ٢٠٠١-٢٠٠٢: ٢٥ .

٣ - م . ن : ٢٥ .

الفصل الأول

العلمين التقليدي والفوضوي - يُنتج لنا وصفين مختلفين لما يتعامل معه العلمين، في هذا يقول جايمس غليك أن علم الفوضى علم " من العمليات المتحركة أكثر مما تصلح وصفا للحالات الثابتة"^(١) ، فهي ليست قواعد ثابتة، توصلنا إلى نتائج ثابتة، بل هي في حالة من التغير المستمر؛ لأن الظواهر التي تتعامل معها لا يمكن تحديد صورتها التي ستكون عليها مع تقدم الزمن، إنها تتعامل مع لعبة الاحتمالات، وبما أنها مع الاحتمال، فهي علم "ما قد يتحقق وما قد يكون، أكثر مما هي علم الكائن والمتحقق فعلا"^(٢).

يؤكد أصحاب الدرس الفوضوي على مقولة رئيسة وهي أن علم الفوضى غير تخصصي، أو لنقل أنه عابر للتخصصات، إن خروجه على العلم التقليدي يبدأ من مرحلة تجسير الفجوات بين العلوم والتخصصات، فالفوضى "تعبّر الحدود الفاصلة بين الاختصاصات العلمية"^(٣)، فالظاهرة الفوضوية خارج حالة التجريد والاختزال العلمي، إنه - علم الفوضى - موجه لما هو معقد في الواقع، هذا التعقيد ناتج عن شبكة العلاقات المتداخلة بين الظواهر الكونية، هذا العلم "يبحث عن الصورة الكبيرة الشاملة"^(٤).

بعد أن بيّنا المعنى اللغوي لـ(الفوضى Chaos) ومن ثمة السلوك الفوضوي وما يرتبط به من مصطلح العلم الفوضوي، نشرع الآن بتتبع هذا التركيب (نظرية الفوضى Chaos Theory)، طرحت هذه النظرية بوصفها "ثالث أكبر النظريات العلمية ثم الفلسفية في القرن العشرين أهمية بعد (ومع) نظريتي النسبية وميكانيكا

١ - نظرية الفوضى علم اللامتوقع : ١٨ .

٢ - م . ن : ١٨ .

٣ - م . ن : ١٨ .

٤ - م . ن : ١٩ .

الفصل الأول

الكم، أحدثت مثلها ما يشبه الثورة في العلوم الطبيعية (الفيزياء خصوصاً) قبل أن ينتقل تأثيرها إلى كل من الفكر الفلسفي والسياسي/الاجتماعي والنظرية الأدبية" (١)، والتعريفات التي سنوردها مُنتجة في حقول العلوم الصرفة، وهو مولد الفكر الفوضوي، ويمكن لنا أن نصنف هذه التعريفات إلى ثلاث مجموعات :

الفوضى وعلاقته بالسلوك

الأولى - تعريفات تشير إلى معالجة سلوك فوضوي لا يمكن التنبؤ به مثل:

١- "نظرية الفوضى تصور وتصف كونا خاضعا لقوانين حتمية يطيع قوانين فيزيائية أساسية ولكن بأسلوب يميل إلى عدم الانتظام والتعقيد وعدم القابلية على التنبؤ" (٢).

٢- "تشير نظرية الفوضى إلى النماذج الرياضية التي تصف سلوك بعض الوظائف إلى سلوك غير ثابت ولا يمكن التكهّن به" (٣).

٣- "مبدأ علمي يصف حالة عدم إمكانية التنبؤ بالأنظمة بمختلف مستوياتها" (٤).

٤- "تصرف قدرتي معقد إلى درجة يبدو كأنه عشوائي وتعالج تصرفات غير عادية للنظم الديناميكية غير الخطية التي يبدو من الممكن التكهّن بها" (٥).

١ - مصطلحات الفكر الحديث : سامي خشبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ط١، ٢٠٠٦ : ١٤٩/٢.

٢ - م . ن : ١٥٠ / ٢.

٣ - معجم العلوم الإنسانية: إشراف جان فرانسوا دورتيه، ترجمة د. جورج كتورة، الناشر كلمة ومجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، أبو ظبي - بيروت، ط١، ٢٠٠٩ : ٣٦٦.

٤ - نظرية الفوضى : <http://elsada.net/105840>.

٥ - التقارب الجدلي التنظيمي لنظريتي الفوضى والتعقيد في منظمات الأعمال العراقية(بحث اختياري في عينة من الكليات الأهلية): ٥.

الفصل الأول

إنّ الجوهر المشترك في هذه التعريفات هو عدم القدرة على التنبؤ بمجموعة من الأنظمة، وهو ما يخالف فيه علم الفوضى العلم التقليدي النيوتني، والذي يؤكد على ما يأتي: "يتحدد مستقبل النظام الشمسي تماما من خلال حالته الراهنة"^(١)، أي أن السيطرة على المحددات الأولية يمكّن الدارس من معرفة ما سيكون عليه سلوك أي ظاهرة، فالقدرة على التنبؤ ومعرفة ما ستؤول إليه الظواهر هو السمة البارزة التي يمتاز بها العلم التقليدي، ومنه نستنتج أن المنهج الذي يوضع لدراسة أي ظاهرة يقدر ما ستؤول إليه بحسب قوانينه، وكل سلوك لا يمكن التنبؤ به لا يمكن معالجته علميا، من هنا تحديدا انطلقت نظرية الفوضى في مراقبة ودراسة هذه الأنظمة والسلوكيات والظواهر التي تكون نتائجها مغايرة لما تقرر من مبادئ أولية لها.

الفوضى وعلاقتها باللانظام

الثانية - تعريفات تشير إلى وجود حالة من اللانظام في النظام:

١- "نظرية الفوضى دراسة الكيفية في السلوك غير المستقر في حتمية الانظمة

الديناميكية غير الخطية"^(٢).

٢- نظرية الفوضى "دراسة نوعية السلوك غير المستقر واللا دوري في النظم

الدينامية الحتمية واللاخطية"^(١).

١ - مقدمة قصيرة جدا نظرية الفوضى: ليونارد سميث، ترجمة محمد سعد طنطاوي، مراجعة

علا عبد الفتاح يس، مراجعة علمية أ.د انتصارات محمد حسن الشبكي، الناشر مؤسسة هنداوي،

المملكة المتحدة، ط١، ٢٠٢٠: ١٧.

٢ - التوجيه الاستراتيجي للمنظمات في إطار التفاعل بين القدرات القيادية وممارسات نظرية

الفوضى: فراس إسماعيل العامري، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد كلية الإدارة والاقتصاد،

٢٠١٥: ١٢٠-١٢١.

الفصل الأول

٣- نظرية الفوضى "تصف وتشرح سلوك النظم المعقدة والدينامية أو الحركية واللاخطية بعيدا عن نظم التوازن" (٢).

٤- نظرية الفوضى "مفهوم رياضي يفسر إمكانية الحصول على نتائج عشوائية من المعادلات العادية" (٣).

تشير هذه التعريفات إلى حالة من عدم الاستقرار التي تتسم بها الأنظمة، وعدم الاستقرار هذا يؤكد وجود حالة من الاضطراب والعشوائية - وهما من صفات السلوك الفوضوي - فتتولد نتائج تمثل نمطا خارج النظام وهو ما أسماه غليك "نظام اللانظام" (٤).

هذا يعني أن هناك نظامًا معينًا غير مستقر، إذ "بإمكان النظام أن يتصرف بعشوائية لكنها عشوائية لا تستقر" (٥)، والاستقرار من سمات أي نظام، فالسلوك المستقر في أي نظام هو "السلوك الذي لا يختفي بمجرد حدوث تغيير صغير في قيمة بعض مؤشراتته" (٦)، فكل نظام مستقر يحمل معه جين فوضوي هو عدم الاستقرار، وهذا ما ينتج حالات عن النظام غير متوافقة مع المعطيات الآلية. إلا أن هذه الحالة - نظام اللانظام أو نظام يسكن فيه اللانظام - تشير إلى مغالطة منطقية ذكرها بهاء الدين الخاقاني في كتابه (نظرية الفوضى الخلاقة) بقوله " لا

١ - التقارب الجدلي التنظيمي لنظريتي الفوضى والتعقيد في منظمات الأعمال العراقية (بحث اختياري في عينة من الكليات الأهلية): ٥

٢ - م . ن : ٥ .

٣ - نظرية الفوضى : <https://www.meemapps.com/term/chaos-theory>

٤ - نظرية الفوضى علم اللامتوقع : ٣٠ .

٥ - م . ن : ٦٥ .

٦ - م . ن : ٦٥ .

الفصل الأول

أعرف كيف لمن يملك بعض الشيء من العقل، أن يقبل الجمع بين مفهومين نقيضين لكي يحصل على نتيجة سليمة صحيحة وصحيّة" ^(١)، وهذا ما يؤكد مترجم كتاب (الهيولية تصنع علما جديدا) علي يوسف علي في مقدمة الترجمة إذ يقول " اختلفت الآراء حول وضع مصطلح لعلم CHAOS فذهب رأي إلى ترجمته الفوضى استجابة للترجمة الحرفية للمصطلح، هو ما يرفضه المترجم رفضا قاطعا، حيث يجمع المصطلح بين المفهوم ونقيضه" ^(٢).

ويأخذ بهذين الرأيين فراس محمد إسماعيل العامري في أطروحته للدكتوراه بقوله " ... لم يبتعد كثيرا عن باقي التعاريف إذ أن وصف السلوك غير المستقر يوازي انعدام الدورية والتي تأخذ طابعا فوضويا ظاهرا مع حتمية الأنظمة غير الخطية وهذا الأمر يوحي بالتقاء النقيضين ... وهنا يكمن الخوض في المحذور وكما أشرنا سابقا إلى عدم إمكانية ذلك بأي شكل من الأشكال" ^(٣). إن مصدر الإشكال هو الاحتكام إلى قاعدة منطقية هي "أن النقيضين هما اللذان لذاتيهما، لا يجتمعان ولا يرتفعان" ^(٤)، فوجود عنصر يعني عدم تحقق العنصر النقيض والعكس صحيح، ومن هنا أكد الخاقاني أن المراد من مصطلح Chaos هو الخواء، المادة الأولية التي تشكل منها الكون، أما ما يقصده بالفوضى في عنوان كتابه هو (البلبلة) والتي تؤدي إلى الخواء،

١ - الفوضى الخلاقة (استراتيجية السياسة الأمريكية لمائة سنة قادمة): بهاء الدين الخاقاني، مكتبة الخاقاني بغداد-العراق، ط١، ٢٠١٣: ١٤.

٢ - الهيولية تصنع علما جديدا: جيمس جلايك، ترجمة علي يوسف علي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠: ٣.

٣ - التوجيه الاستراتيجي للمنظمات في إطار التفاعل بين القدرات القيادية وممارسات نظرية الفوضى: ١٢٠.

٤ - موسوعة مصطلحات علم المنطق عند العرب: ١٠٦٩.

الفصل الأول

ولذا عرّف نظرية الفوضى بـ " نظرية تقع في العلوم الجيوسياسية، ولا تعني الفوضى الاختلال المطلق، بل تعني نظرية محددة لجأ إليها علماء الاستراتيجيات في الولايات المتحدة الأمريكية بعد انهيار العملاق السوفيتي، بل قبل ذلك بكثير، لإطالة أمد هذا الانهيار أطول وقت ممكن رغبة في الانتقال من البلبلة إلى الخواء"^(١)، والمبدأ الرئيس في هذه النظرية هو " ثنائية أساسية تقوم على الهدم والبناء"^(٢).

والمشكل في هذا الرأي أنه غير مستقر على تحديد المصطلح الذي يؤسس عليه فرضيته هل هو البلبلة أو الخواء أو الفوضى؟! على الرغم من إيجابية تحديد الحقل السياسي للنظرية، إلا أنه لم يكشف عن طبيعة الخطأ المنطقي المنافي للعقل في تعدد المصطلح وتذبذبه عند المؤلف نفسه.

أما المترجم علي يوسف علي فحجته أكثر منطقية، إذ يؤكد على عدم مشروعية التسمية بالفوضى لأن الـ Chaos يتعارض مع تركيب (علم الفوضى)، يقول " لقد قام هذا العلم الجديد لينفي صفة الفوضى عن ظواهر الطبيعة ووضع اسم العلم يحمل معنى ما يريد أن ينفيه، أمر لا تقبله مبادئ علم المصطلح"^(٣)، وهذا ما يذهب إليه فراس محمد إسماعيل في أطروحته، وهو صحيح شكلاً، لكنه يتسم بعدم الواقعية، بمعنى أن هناك مجموعة من الظواهر التي تشكل ثنائية الانتظام / اللاننتظام سمة بارزة فيها، وهذا ما يؤكد جاييمس غليك في الكثير من الظواهر الطبيعية التي يؤكد وجودها وجود النظام، وهو وجود ينتج عنه الكثير من العشوائية وعدم الاستقرار في ديمومته، إذ لا يمكن التنبؤ بما ستؤول إليه حركة هذه

١ - الفوضى الخلاقة: ١٩٧-١٩٨.

٢ - م . ن : ١٩٨.

٣ - الهولوية تصنع علماً جديداً : ٣.

الفصل الأول

الظواهر^(١)، كما أن ترجمة الـ Chaos بالفوضى ناتج من الحقل العلمي نفسه، بمعنى أن المشتغلين في العلوم الطبيعية، وجدوا الكثير من الظواهر الطبيعية التي لا يمكن لمقولات العلم من التعامل معها، مما دفعهم إلى وسمها بالفوضى، لعدم استقرارها و عشوائتها، فهو نوع من الإقصاء.

الثالثة - تعريفات تؤكد على أن المقدمات الأولية لأي ظاهرة تعطي نتائج يحددها العلم التقليدي، وهناك ظواهر لا تخضع لهذه القاعدة، فالنتائج فيها مغايرة تماما لشروطها الابتدائية :

١- "نظرية الفوضى هي فرع من فروع الرياضيات (وأحيانا الميكانيكا) تهتم بدراسة خصائص الأنظمة المحددة أو الحتمية التي تعتمد في سلوكها على مجموعة من الشروط الابتدائية مما يجعل دراستها أمرا معقدا نوعا ما، باستخدام أدوات الرياضيات التقليدية"^(٢).

٢- نظرية الفوضى " كما لا دوريا يحدها ديناميكية في حتمية النظام مع حساسية الاعتماد على الظروف الأولية ولها هيكل في فضاء الحالة"^(٣).

٣- نظرية الفوضى تدرس " الجمل المتحركة الديناميكية اللاخطية التي تبدي نوعا من السلوك العشوائي يعرف بالشواش، وينتج هذا السلوك العشوائي إما عن طريق عدم القدرة على تحديد الشروط البدئية (تأثير الفراشة Butterfly effect) أو عن طريق الطبيعة الفيزيائية الاحتمالية لميكانيكا الكم"^(٤).

١ - ينظر: نظرية الفوضى علم اللامتوقع : ١٦.

٢ - نظرية الفوضى : ١٠٥٨٤٠ /http://elsada.net/.

٣ - التوجيه الاستراتيجي للمنظمات في إطار التفاعل بين القدرات القيادية وممارسات نظرية الفوضى : ١٢٠.

٤ - نظرية الشواش : https://www.marefa.or /simplified.

الفصل الأول

يفترض العلم غير الفوضوي أن فهم المعطيات الأولية يمكننا من معرفة سلوك أي ظاهرة في الكون، هذا ما أفترته فيزياء نيوتن، والتغيرات الطفيفة التي تحدث في هذه المعطيات لن يكون لها كبير الأثر على سلوك الظاهرة، إلا أن نظرية جناح الفراشة أكدت غير ذلك، إذ كُشف لنا أن متغيرات متناهية الصغر بمرور الزمن سيكون لها عظيم الأثر في الواقع.

يمكن لنا أن نحدد نظرية الفوضى بأنها : دراسة تحليلية لأي سلوك في الكون لترصد نمطا من اللا استقرار فيه.

هذا السلوك الفوضوي لا يُلزم بأن يكون خارجا عن أي نظام يحتويه، فمن الممكن أن نجد حالة من الفوضى في النظام اللغوي، هذه الحالة تكون ساكنة في لحظة تشكل النظام، كما سنبين في أن لحظة اللا استقرار في النظام اللغوي تنشأ في لحظة اقتران الدال بالمدلول.

ويمكننا التعريف أيضا من تتبع أي سلوك فوضوي، من خلال علاقاته التي تبدو ظاهريا خلوا من أي قاعدة تنتظمها، ولكنها تحتوي على نمط قواعدي، تجوزا نقول عنه أنه نظام، فتعمل النظرية على اكتشاف هذا النمط لدراسته.

ومثل هذه الظواهر تخالف النظم في مسألة جوهرية هي أن كل نظام له حالة بدئية ينطلق منها، وهذه الحالة تحدد مبدئيا ما ستكون عليه النتائج، وهنا نقول ان هذا السلوك سلوك نظامي، على العكس منه السلوك الفوضوي، والذي لا تكون نتائجه مُتنبأ بها، فمآله منفتح على حزمة من الاحتمالات، ولذلك أسميناه نمطا يقترب من النظام.

الفصل الأول

وبعد هذه الرحلة من عدم الاستقرار في تحديد المقابل العربي لكلمة (Chaos) هل هو الفوضى، أو الهيولية، أو الشواش، أو العشوائية، أو البلبلة، أو الخواء، أو العماء؟ يمكننا أن نصنف هذه المصطلحات إلى مجموعتين:

الأولى : وهي التي تؤكد على الحالة البدئية للكون، والتي لا تمايز فيها فهي خالية من الهوية، وقد ارتضاها مجموعة من الكتاب، وهذه المصطلحات هي :

المصطلح	المؤلف	اسم الكتاب - البحث
الهيولية		الهيولية تصنع علما جديدا
		الهيولية في الكون
الخواء		
العماء		

الثانية : مجموعة من المصطلحات التي عُنونت بها بعض الكتب والأبحاث هي :

المصطلح	المؤلف	اسم الكتاب - البحث
البلبلة		
الشواش		
العشوائية		

وقد ارتضينا مصطلح الفوضى لعدة أسباب هي :

١- مجموعة من الرسائل العلمية في الحقول غير الإنسانية وفي الجامعات

العراقية وغير العراقية قد استعملت هذا المصطلح.

٢- أن الفوضى هي تسمية العلم التقليدي الذي يصف كل سلوك لا يفهمه بأنه

فوضوي.

الفصل الأول

٣- أن المصطلحات الأخرى وتحديد المجموعة الأولى هي وصف لحالة لا يمكن التأكد من وجودها، فهي محض تصور لا صورة حقيقة له. والمجموعة الثانية، هي دوال تمثل صفات يحملها السلوك الفوضوي، لكنها لا تمثل هوية هذا السلوك، فاللاتوقع والبلبل والشواش والعشوائية والتذبذب صفات للسلوك الفوضوي، بينها تغاير، فالبلبل كما حددها الخاقاني في الفوضى الخلاقة، حالة من ال"اضطرابات من كل نوع بغية الوصول إلى حالة من الخواء السياسي العام"^(١)، فهي ضرب للنظام بفعل مؤثر خارجي، وهذه الصفة أصيلة في كل سلوك فوضوي لكنها ليست الوحيدة فيه. وقس على ذلك كل الصفات الأخرى، فالعشوائية مرتبطة بعدم القدرة على التنبؤ، وهي صفة مغايرة لحالة اللا استقرار في الأنظمة المستقرة. فالعشوائية لا تستوعب الحالة الثانية.

لذا وجد الباحث - وهو تحديد قابل للتغيير متى ما استقر المترجمون على مصطلح أكثر شمولية - أن مصطلح الفوضى هو الأكثر ملاءمة حتى هذه اللحظة.

وهو مصطلح يشير إلى ما يأتي :

- ١- مراكز اللا إستقرار في النظم.
 - ٢- سلوك خارج النظم لا تقبله الأنظمة.
 - ٣- ظواهر لا يمكن التنبؤ بما ستؤول إليه.
- ٢- الفوضى في الفكر الأسطوري

١- الأسطورة السومرية

١ - الفوضى الخلاقة : ١٩٧.

الفصل الأول

في الأسطورة السومرية نجد أولى الاجابات التي طرحها الإنسان حول المغزى من وجوده، ومن رؤية السومريين نشأت رؤى الحضارات الأخرى، فتسربت أفكارهم عن الخلق والتنظيم إلى الأقوام الأخرى.

وتبدأ قصة الخلق لديهم من تحديد الحالة الأولى، لحظة الفوضى البدئية، إذ لا شيء موجود فلا زمن ولا شكل، إنه العماء الذي تمثله (نمو) الآلهة الأم، والتي منها وُلد كل شيء، فأنجبت الإله (آن) إله السماء، ثم أنجبت الآلهة (كي) آلهة الأرض، وقد كانا ملتصقين بالأم، ومن آن وكبي ولد إله الهواء (أنليل) وقد كان بينهما محتجزا بين السماء والأرض، فقرر بقوته الفصل بينهما فرفع آن - إله السماء إلى الأعلى، ودُفعت كي - آلهة الأرض إلى الأسفل، ثم خلق لنا القمر (نانا) والذي بدوره خلق لنا الشمس (أوتو)^(١).

وهذه هي المرحلة الأولى أو عملية الخلق التأسيسية، من بعدها يظهر لنا الإله (أنكي) وهو من نسل أنليل، إله المياه العذبة، إله الحكمة^(٢)، إنه المؤسس والمكمل لهذا الكون، إنه (النظام). ويبدأ أنكي بتشكيل الحياة في الكون وفرض الحدود، تظهر ((قدرته على إخصاب الأرض والنباتات والحيوانات في الطبيعة))^(٣)، ومن خلق الكائنات إلى تنظيم المدن فبدأ بسومر ثم أريدو ونفر، مع توكيل الآلهة بمهام على هذه الأرض^(٤).

١ - ينظر: مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة - سوريا وبلاد الرافدين: فراس السواح، دار الكلمة ط ١١، ١٩٩٦ : ٣٢-٣٣.

٢ - ينظر: م . ن : ٤٣ .

٣ - الأساطير السومرية: د. الحسيني الحسيني معيّ، مراجعة لغوية حسام الكاشف، كنوز للنشر والتوزيع، قصر النيل - القاهرة، ط ١، ٢٠١٢ : ١٠٥ .

٤ - ينظر: م . ن : ١٠٦ .

الفصل الأول

٢- الأسطورة البابلية

تقول الأسطورة البابلية (الأنيوما أيليش)^(١)

عندما في الأعالي لم يكن هناك سماء،

وفي الأسفل لم يكن هناك أرض .

هذه هي الافتتاحية التي ترسم لنا حالة البدء الأولى، حالة ما قبل التحول، هذا التحول الذي ينبثق من الداخل، فهي حالة من حالات الولادة، القائمة على مبدأ الصراع (الثورة)، فبعد سلسلة من الولادات الداخلية يُولد إله الفطنة والحكمة (إنكي) أو (نوديمود)^(٢) وبعد هذه الولادة تبدأ رحلة الصراع - الثورة ضد الأصل أو ضد حالة الفوضى الأولى^(٣) :

أزعجوا بحركتهم تعامة

نعم، لقد هزوا جوف تعامة

يروحون جيئة وذهابا في مسكنهم المقدس

وهنا قرر الآلهة التخلص ممن ولد في رحم الفوضى، ولكن وجود إنكي الحكيم أنقذ الآلهة الجدد^(٤). وبعد رحلة إنكي يُولد من هو أشد حكمة وقوة من أبيه يُولد (مردوخ) والذي معه يتحقق النظام الكوني.

١ - مغامرة العقل الأولى: ٥٦.

٢ - ينظر: م . ن : ٥٦.

٣ - ينظر : م . ن : ٥٦.

٤ - ينظر: م . ن : ٥٣-٥٤.

الفصل الأول

يدخل مردوخ مع تعامة في حرب كونية الهدف منها إحلال النظام بديلا عن الفوضى، ومن ثم تتم عملية خلق الإنسان بوصفه عبدا يعيد تمثيل هذه الحرب كل عام ضمن طقوس سنوية.

تبدأ المعركة بين تعامة ممثلة الفوضى والعماء الأولي وبين مردوخ ممثل النظام الكوني،^(١) :

أحد عشر نوعا من الوحوش أظهرت للوجود

ومن الجيل الأول للآلهة الغاضبة، في مجلسها

اختارت (كينغو) وجعلته عليا وعظيما

وضعته أمام جيشها قائدا

فيشهر السلاح للمعركة ويبدأ الصراع

إنه الأمر الأعلى للمعركة.

وبعد جدال بين الآلهة يقع الاختيار على مردوخ لمواجهة قوى تعامة، فيطلب مردوخ^(٢) من الإله نشار الآتي :

اجعلوا لكلمتي قوة تقرير المصائر، بدلا عنك

وليبق ما أخلق قائما لا يزول

وما أنطلق به من أوامر ماضيا لا يحول.

١ - مغامرة العقل الأولى: ٦٣.

٢ - م . ن : ٦٦-٦٧.

الفصل الأول

فتبدأ حالة الصراع التي يخرج منها الكون بنظامه الحالي، فما نسير عليه اليوم من ترتيب كوني حدده مردوخ - بحسب الأسطورة.

بعد أن تخلص مردوخ من الفوضى ممثلة بتعامه توجه إلى تنظيم الكون فبدأ بعملية الخلق من الشمس والقمر إلى تحديد المواقيت الزمنية وتنظيم الأنهار والجبال (١) ...الخ.

ثم التفت مردوخ إلى خلق الإنسان ليكون عبداً للآلهة يسير الأمور بدلاً عنها (٢)، فقام مردوخ بالبحث عن دفع تعامه للصراع، فقالوا أنه (كينغو) قائد جيشها، أي عنصر رئيس من عناصر عالم الفوضى، فقتله وأخذ من دمه ما خالطه بالطين، وهو المادة الأصل لتعامه (٣)، ليخرج الإنسان ويُخلق (٤):

"إنه كينغو الذي خلق النزاع

ودفع تعامه للثورة وأعد للقتال"

ثم قيده، ووضعوه أمام أيا

أنزلوا به العقاب فقطعوا شرايين دماغه

ومن دماغه جرى خلق البشر

فبهذه الطريقة خلق الإنسان بحسب الرؤية البابلية، فالجانب المادي فيه مأخوذ من الفوضى، ممثلة بتعامه وكينغو، والروح وهي الجانب المعنوي، أكسبها أياها الإله

١ - ينظر: مغامرة العقل الأولى: ٧٧.

٢ - ينظر: م . ن : ٧٨ وما بعدها.

٣ - ينظر: م . ن : ٨٣.

٤ - م . ن : ٨٣.

الفصل الأول

مردوخ. ويبدو أن نمط التفكير المادة / الروح يرجع إلى هذه الحالة البدئية، ومن دون أن نعطي بعدا قيميا للجانبين إلا أن الاهتمام بالجانب المادي يعني الانتصار لحالة الفوضى، والاعتماد بالجانب الروحي يعني الانتصار للنظام.

٣- أسطورة الخلق اليونانية

لم تتعد الأسطورة اليونانية عمّا ذكرته البابلية من تصور لخلق الكون فهي تتطلق من ذات المقدمات، وتصل إلى النتائج نفسها، ويبدو أن هذا النمط من التفكير مرتبط بالأسئلة نفسها، وأن البشر كلهم يشتركون فيها. وما يهّمنا هو حضور الفوضى في هذه الأسطورة، وكيفية تشكل العالم والكون والنظام مقابلا للفوضى.

يمدّنا كتاب أنساب الآلهة لهزيودوس بما يغني بحثنا (١) :

إذن في البدء

كان الخواء، ثم وجدت من بعد

الأرض الصدر الواسع ..

الخواء هو ترجمة الـ (chaos) ومنه حدث الكون وبدأ بالتشكل ومنه ظهر أو ولد اربوس وهي الأرض ومنه ولدت السماء ومنه ضوء النهار (٢). هذه عملية الولادة هي حالة تفسيرية لوجود ما يؤثت عالم منشئ الأسطورة، وهي ما يضمنها أيضا رؤيته التفسيرية لوجود الكون.

ومن بعد رحلة الولادات التي يذكرها هزيودوس يكشف لنا عن حالة الصراع التي تحدث بين الآلهة، فالأب يحجز الأبناء في قعر الأرض، والأب هو أورانوس إله

١ - أنساب الآلهة : ٤١.

٢ - ينظر: م . ن : ٤٢.

الفصل الأول

السماء، والأرض اربوس، وهي الأم التي تحرض الأبناء على قتال الأب^(١). تبدأ
الأسطورة بحالة الصراع^(٢):

وإذا بالأب السماء يقبل بعظمته

جارا وراءه الليل،

وقد استحوذت عليه رغبة مجنونة

فامتد على الأرض، مغطيا إياها

من أقصاها إلى أقصاها ..

ثم يقدم (كرونوس) على ضرب أبيه بتوجيه من أمه^(٣):

ما إن قطع كرونوس

بمحطب ألماس، خصيتي أبيه

حتى ألقاهما من أعلى اليابسة

وبعد ما استقرت هذه الاجزاء المقطوعة على الأرض حتى تشكّل (زيوس)، وهو الإله
الحكيم^(٤) والذي ترتبط به حالة انتظام الكون فزيوس^(٥):

الحكيم جدا

١ - ينظر: أنساب الآلهة: ٤٨-٥٠.

٢ - ينظر: م. ن. : ٤٩.

٣ - ينظر: م. ن. : ٥٠.

٤ - ينظر: م. ن. : ٨٦.

٥ - م. ن. : ٨٧.

الفصل الأول

أبا البشر والآلهة

هو الذي يُرجف رعدَه

الأرض الفسيحة

ومن بعد هذه الولادة يتكفل زيوس بفرض النظام على الآلهة فأدخل الكون كله في حالة الصراع (١):

وأصاب حريق هائل

الخواء، وكان ذلك

لمن يرى بعينه

ويسمع بأذنيه

كما لو أن الأرض

والسمااء الفسيحة من فوق

قد صدمتا ..

وتستمر عملية تنظيم الكون بحسب رؤية زيوس بعد حربه الضروس ضد من يمثلون الفوضى، فيعمل على حجز ما يمثل مفسدة لنظامه في (khaos) الكاوس والتي " تعني ما هو أبعد من الأرض، عن تارتاروس tartars وهو مكان يقع في أعماق

١ - أنساب الآلهة : ١١٣

الفصل الأول

الأرض^(١) ومن قلب هذه المنطقة تصدر محاولات خلخلة النظام، حالة الفوضى مصدر قلق النظام ولذلك وضع زيوس عليها حرسا^(٢) :

مسجونين بمشيئة

زيوس سيد الغيوم

في سجن رطب

على حافة الأرض الفسيحة

لا يستطيعون الخروج منه

جعل له بوزيدون أبوابا

من البرونز وجدارا يمتد

من جهة إلى أخرى

هنالك يعيش جيجيس

وكوتوس، وبرياريوس صاحب القلب الكبير

يتولون الحراسة مخلصين

من أجل زيوس ذي الدرع .

١ - أنساب الآلهة : ١٥ .

٢ - م . ن : ١١٤ .

الفصل الأول

وبذلك الفوضى ما زالت موجودة لم تفنّ بل هي باقية ما بقي النظام، وإيها ينسب كل قلق يمكن أن يحدث خلخلة في نظام الكون. ومن هنا ولد الكون والذي يسمّى في اليونانية "كوزموس" والذي يعني النظام^(١).

ولم تكن الأساطير الصينية والهندوسية مجانبة لفكرة الأسطورة البابلية واليونانية فضلا عن المصرية، والتي خلاصتها جميعا، أن هناك حالة أولى أو لنقل (أولانية) تمثل الفوضى أو هي الفوضى، وتمتلك صفات خاصة بها فهي لا زمنية ولا مكانية أي لم تدخل حركة التاريخ، وعليه فهي لا تمتلك شكلا، هذه الكتلة الأولانية يحدث فيها حالة من حالات التفجّر الداخلي فيخلق منها إله تسند إليه مهمة تشكيل الكون بتكوين عدد من الآلهة، وبعد مرحلة من الصراع والولادة المترتبة عنه يُولد الإله المنظمّ الإله الفاعل والذي يدخل بصراع مع الفوضى أو الحالة الأولانية، فتَهزم الفوضى أمامه، ومنها يخلق من يخلفه على الأرض وهو الإنسان، لتبدأ عملية خلق الكون بهذا التنظيم، فمردوخ وزيوس هما من هزما الفوضى، وهما أيضا من فرضا النظام ومن هذه اللحظة تتشكل المقابلة بين (كايوس / كوزموس).

ما الذي نستخلصه من رؤية الأساطير لنشأة الكون؟ هذا السؤال سيحدد لنا بذور التفكير المترسبة لدينا منذ حالة الصراع الأولى بين الإله المنظمّ و الكون المنظمّ والفوضى.

أول فكرة تتصدر المشهد هي حالة الصراع وما يعقبها من انسجام، وهي من مرتكزات الفوضى الخلاقة، فخلق شكل سياسي بحسب توجهات معينة قائم على خلق حالة فوضى تكثر الصراعات فيها، فيكون الحل بتحديد نموذج سياسي لحل حالة الأزمة، فمن يخلق حالة الفوضى يتلاعب بالمؤثرات الصغيرة التي تحيط بعناصر الصراع،

١ - أنساب الآلهة: ١٤.

الفصل الأول

ومن يتحكم بهذه المؤثرات هو من ينتج الشكل النهائي، وعليه نعتقد أننا دخلنا حالة النظام، وهو في الحقيقة نظام وهمي، فالنظام الذي يتشكل بعد الصراع هو نظام مؤدلج لصالح توجه معين، ما يعني أنه يخلق انسجاما مزيفا، فبسببه تم إقصاء عناصر إلى الفوضى لأنها ببساطة لم تنتظم في النظام الوهمي. وربما من هنا ولدت بذرة السلطة، والتي لا تخرج عن كونها القدرة بالفعل على الإقصاء.

وتبين لنا الأسطورة السبب في وجود الإنسان وخلقها، فالوظيفة التي يتحملها على كاهله هي أنه يكون خليفة لتسيير شؤون الأرض بديلا عن الآلهة، فالأخيرة بعد حالة الصراع ترغب بالسكون، ومن يسيّر شؤونها هو الإنسان. ما يلفت الانتباه أن عملية خلق الإنسان كما ذكر سابقا تعطينا صورة عن اجتماع قدرة الفاعل المنظم وهو الإله مردوخ مثلا، مع دم كينغو وتراب الأم الفوضى^(١) وهو ما ينتج عنه الإنسان، فبعدما انتصر مردوخ خلق منهما الإنسان، وهذه اللحظة هي بداية التاريخ الإنساني. وهنا الإشارة واضحة إلى أن الإنسان حامل لجزئين الأول هو قدرة الإله الخالق أو الروح، والثاني هو البعد المادي والذي يرجع إلى الفوضى، وهو ما يبرر حالة الخروج عن النظام لدى بعض البشر، أي ميلهم إلى حالة الفوضى، والقدرة على كبح الفوضى في الإنسان هو ميل لحالة النظام.

كرّست الأسطورة نظام الكون من خلال تصدير أحداثها بوصفها حقائق، ويتم تعزيز هذه الحقائق من خلال التكرار، وهو ما تعمله الطقوس، والتي تخلق امتدادا زمنيا خطيا تُعاد فيه حالة الصراع الأولى وكيفية تشكل الكون، فمن خلال هذا الفعل يتم تأسيس الحقيقة المطلقة، إنها وثوقية الخطاب التي ينتجها النظام، فتعطي الأسباب

١- ينظر : مغامرة العقل الأولى : ٨٣.

الفصل الأول

"والأمر هكذا، لأنه هكذا قيل"^(١) لأن الأسطورة حكته، وهذا ما يؤسس لخطية الزمن، فالأسطورة "تظهر كيف أن حقيقة الشيء قد جاءت إلى الوجود"^(٢) من هنا تولدت الحقيقة مع الخطية التي تنشئها الطقوس التي تعزز مقولات الأسطورة، فالطقوس تعمل على إعادة الزمن الأول من خلال جعل السنة تبدأ من لحظة الصراع مع الفوضى، وانكسار الفوضى يؤسس الكون، ثم في نهاية العام تظهر الفوضى مرة أخرى فيعيد مشهد ولادة الكون وترتيبه بحسب الأسطورة.

وهذه الخطية تضمن للقائمين عليها حضورهم المقدس في الزمن الأسطوري وفعله، فلا يمكن الانعتاق من دائرية الزمن المغلق، "فكل عام جديد تستعاد النشكونية ويُعاد خلق العالم وبإجراء هذا يخلق الزمن أيضا، إنه يجدد بدؤه من جديد"^(٣) أنها لحظة صناعة التاريخ والإنسان برعاية النظام .

يذكر مرسيا ألياد ما يأتي: "هذا التكرار الأمين للنماذج الإلهية له نتيجتان:

- ١- باحتذاء حذو الالهة يبقى الإنسان في المقدس وبالنتيجة في الحقيقة.
- ٢- ومن جهة أخرى إعادة التحيين الغير متقطع للإشارات الإلهية النموذجية ينتقدس العالم، ويساهم السلوك الديني للبشر في الحفاظ على قدسية العالم"^(٤)
- ٣- ونلاحظ أيضا، أن الخطية تضمن لنا السيطرة على البشر من خلال معرفة النتائج، فمن كان مواليا للفوضى مصيره معروف بحسب الأسطورة.

١ - المقدس والمدنس : مرسيا ألياد، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٩٨٨ : ٧٤.

٢ - م . ن : ٧٥.

٣- م . ن : ٨٠.

٤ - م . ن : ٧٧.

الفصل الأول

ومن هنا يصنع الخطاب الترافق بين النظام والحقيقة، فالحقيقة تأسس وجودها بتفاعلها مع النظام، لتأسس لدينا ثنائية أخرى هي (الخير/ الشر)، إن تكرار الولادة الكونية هو عملية تطهير، فكل ولادة جديدة هي تخلص من متعلقات الفوضى، فكل "الإباحة الجنسية والتهتكات الخ... كانت ترمز لانكفاء الكون في العماء"^(١) أي في الفوضى، ومنها تحديدا يبدأ تشكل الإنسان، بحسب مقولات النظام، فالإنسان "لا يصبح إنسانا حقيقيا إلا بتوافقه مع تعليم الأساطير وباحتذاء حذو الالهة"^(٢) من هنا يمكننا أن نعيد الثنائيات بحسب ترتيبها :

النظام	الفوضى
الحقيقة	الزيف
الخير	الشر
المعنى	اللا معنى

إن ثنائية الخير والشر ناتجة عن تقييم طرفي الصراع بمعايير السلطة الحاكمة^(٣) فهما قالب شكلي ينتجه الخطاب، يعمل على تصنيف البشر، فالنظام هو ممثل حقيقي لسلطة الآلهة، مركز الحقيقة الكلية، وهو ما يسعى الإنسان إلى محاكاته في تأسيس حياته التاريخية وجغرافية مكانه الذي يعيش فيه، فكل عداً موجه لهذا التأسيس هو عداً موجه للنظام الإلهي، و هذا العداً له صور متعددة، من هنا نشأت أسطورة الشيطان، ممثلاً لهذه الفوضى، وكل عداً ضد النظام الإنساني الحاكم المذعن لسلطة الآلهة هو عداً لهذه القدسية الإلهية. من هنا كان واجب

١ - المقدس والمدنس: ٦٤.

٢ - م . ن : ٧٧.

٣ - ينظر: من ألواح سومر : صاموئيل كريمر: ترجمة طه باقر، مراجعة الدكتور أحمد فخري، مكتبة المثني ببغداد و مؤسسة الخانجي بالقاهرة: ٦٤.

الفصل الأول

الدفاع ضد أي عداء موجه لحكام بابل، مثلا - وهو ما ينطبق على الأقوام كلها - هو نكوص نحو الفوضى، إنه محاولة لإعادة تعامة إلى الوجود.

وعلينا أن نلتفت إلى المعنى، فكل نظام (سميولوجي) هو تكريس لمركزية المعنى، إشارية العلامات تجعل احتمالية الرمز تكون منعدمة، فالترميز يمكن أن تتسل من خلاله معانٍ لها ارتباطات مع العالم الذي تم اقصاؤه (الفوضى)، من هنا جاء المعنى الأصل، فكل عمل يقوم به الإنسان مرتبط محاكاتيا، بفعل إلهي^(١) فكل ما هو خارج هذه المحاكاة يقع في دائرة اللا معنى، فيجب أن ينبذ، لأنه امتداد لعالم الفوضى - الكايوس. من هنا كانت لمنتجات الإنسان بعدا قيميا، لأنها مرتكزة على اعتقاد إيماني، بل كل معنى يكتسب وجوده بحسب النظام الذي أفرزته القوى الخارقة، عالم الآلهة. من هنا تحديدا علينا أن نضع تشكل الوعي الإنساني موضع المساءلة، إذ من غير الممكن أن يتشكل هذا الوعي من دون هذه المركزية التي تعطينا المعنى الأصل، "فأنه يستحيل على المرء أن يتخيل كيف يمكن للوعي أن يظهر بمعزل عن إضفاء "معنى" (Meaning) على دوافع الإنسان وتجاربه"^(٢). وبما أن الخطاب يُوسطر القوالب الشكلية لكل نظام سيميولوجي، فما كان منحرفا شكلا كان فوضويا، هذه هي قدرة النظام على إنتاج خطاب يعزز مقولاته مع وضع حدٍ لكل محاولة اختراق لقوالبه. من هنا تحديدا كانت العلامة التي تخلص من المعنى خارج النظام، وبالنتيجة هي من منتجات الفوضى، وهذا ما يجعلنا نتساءل عن السبب الذي يجعل أسلافنا يلجؤون إلى ترميز ذلك الإقصاء لما (لا يعرفونه) وركنه

١ - ينظر: المقدس والمدنس : ٧٤.

٢ - البحث عن التاريخ والمعنى في الدين: ميرتشيا إلياده، ترجمة وتقديم د. سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ونشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧:

الفصل الأول

في مستنقع الفوضى؟ ما الذي كان يثير فيهم القلق تجاه معطيات العالم الذي يعيشون فيه؟ ما الصورة التي يكون عليها العالم الواقعي حتى تشكل الفوضى كمقبرة؟، هذا يجعلنا نبحث عمّا يشكل تهديداً، " تهديد يوجه إلى قوى التصور لدينا، إشارة إلى أن قدرتنا على الخلق والفهم واستعمال الرموز قد خذلتنا، فإذا حصل ذلك، فسنكون... أكثر عجزاً من حيوانات القندس^(١) إن ما يجعل الإنسان يسمو هو الخطاب الذي يقولب المعنى، هذا ما دفع الأسلاف إلى خلق النظام، وتصور الفوضى مركزاً مهدداً لهذا النظام، وتصنف قضايا العالم على أنها فوضوية عندما تكون معطلةً لقدرة الإنسان على التصور والفهم، من هنا تحديداً لا يسع الإنسان أن يبني حياته في الفوضى^(٢)، ففهم السبب الذي يحدث أمراً ما مرتبط بالنظام، حتى وإن كان السبب خيالياً أو متوهماً يفرضه الإنسان، كما فعل في الأسطورة الكونية، فهو سبب يحسسه بأنه على علم ودراية بكيفية حدوث الظواهر في الكون.

٣- الفوضى في الخطاب الفلسفي

بدأت الفلسفة بالبحث عن المصدر الأول الذي نشأت منه الحياة والعالم، وبحثهم دفعهم إلى محاولة الكشف عنه في الطبيعة، وهذا ما جعل طاليس يحدد الماء^(٣) مصدرَ النشأة، وقدّم بعد ذلك انكسمنديس فكرة الأبيرون الأكثر تعقيداً، إذا رأى أن

١ - تأويل الثقافات مقالات مختارة: كليفورد غريتز، ترجمة د. محمد بدوي، مراجعة الأب بولس وهبة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٩ : ٢٤١-٢٤٢.

٢ - ينظر: البحث عن التاريخ والمعنى في الدين: ٤٠.

٣ - ينظر: نحو فلسفة العلوم الطبيعية: الدكتور عبد الفتاح مصطفى غنيمية، سلسلة تبسيط العلوم: ٨.

الفصل الأول

الحياة متنوعة بشكل لا يمكن أن ترد إلى أصل وحيد، ولذلك وجد الأبيرون بوصفه اللانهائي واللامحدود هو الأصل، وهو نموذج الفوضى (chaos).

إلا أن التقدم الفلسفي تجاه فكرة الفوضى نجده عند هيراقليطس، والذي أسس لفكرة التغير المتصل^(١)، في محاولة منه لنقض فكرة الثابت، فالأصل هو الصراع بين الأضداد، وهو ما يكسب الحياة سيرورتها، ومن أشهر أمثاله هو أننا لا نستطيع أن ننزل إلى النهر مرتين، لأن هناك مياه جديدة سوف تغمرنا^(٢)، إذ الثبات حالة لحظية، يتكفل الزمن بفرض حالة التغير واقعيًا، وهو ما يجعل من التغير، وهو مقولة الفوضى، الامتداد الطبيعي، وما حالة النظام إلا تطور طارئ قابل للتغير. وهذا التصور يجعل من الفوضى حاضرة في مجرى الحياة، فهي ما يجب أن نلتفت إليه، وما النظام إلا حالة متولدة عنها، وبالنتيجة يكون النظام ناتج عن الفوضى، وما تولده الفوضى هو حالة من الانسجام الخفي، انسجام يتولد من حالة التوافق بين الأضداد، هذا التوافق يتمثل في الواقع صراعًا متصلًا يعد المبدأ الأصل، وهو من يتكفل بديمومة العالم.

إن فكرة هيراقليطس قد تطورت عند افلاطون، ولكن مع حدوث المغايرة في النتائج، إذ يجعل افلاطون المقابلة بين الفوضى والنظام، كما أنه يعمل على بيان نمط العلاقة بين الحالتين، ويمكن لنا أن نقول أنه أسس للرؤية العلمية للفوضى بوصفها ذلك الذي يوصف بال(لا)، لا نظام، ولا ترتيب، مما يؤسس للمقابلة بين الكوزموس والكايوس (الفوضى).

^١ - ينظر: ربيع الفكر اليوناني: د عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٩م: ٨٠.

^٢ - ينظر: جذور المادية الديالكتيكية هيراقليطس: ثيوكاريس كيسيديس، ترجمة حاتم سلمان، دار الفارابي، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٨٧: ١٨٣.

الفصل الأول

يفترض افلاطون وجود حالة من الفوضى أولية، يحكمها اللانظام، وبوجود الإله المنظم فرضت على هذه الفوضى الأشكال الهندسية والأبنية الرياضية^(١)، بمعنى فرض الحدود في الفوضى المضطربة، مما يشكل حالة النظام، إلا أنها حالة مرهونة بوجود الإله المنظم، فهذا الأخير "عندما وجد أن الدنيا المنظور كلها متحركة في نمط شاذ ومضطرب أوجد النظام خارج الفوضى"^(٢)، وعلى أساس هذا التشكل ترتب الخير مقابلا للشر، فالنظام خير مطلق لأنه شكل النظام بحسب حضور الخير فيه^(٣)، وهو بالضد من حالة الاضطراب والشذوذ.

إلا أن أفلاطون لا يلغي الفوضى، إنما يعمل على تأصيل مبدأ الشر فيها، فإذا كان النظام مرتبط بالخير، فإن الفوضى مبدؤها الشر، وكلاهما ناتج عن علل، فالعلل التي ترتبط بالعقل الكلي تنتج ما هو خير مرغوب به، والعلل التي لا تقع تحت طائلة العقل تنتج ما هو فوضوي، لأنها تقنقد النظام والحدود، ولذلك ينسب إليها أفلاطون الأمراض والتشوهات^(٤)، لأنها امتداد لحالة الخلق البدئية "عندما كانت كل الأشياء في فوضى واضطراب"^(٥)، ومن هذا الحكم القيمي على الفوضى تشكل الإقصاء لها، لمصدرية الشر وأصالته فيها، وهو ما يعني أن التغير غير المنتظم، أي الذي لا يمكن التنبؤ به يولد عدم التناسق و الانسجام، وكلاهما يولدان مقولة الشر.

١ - ينظر: فلسفة الفوضى رؤية مستقبلية لتوظيف نظرية الفوضى في فلسفة العلوم: ٤١.

٢ - محاورات افلاطون: أفلاطون، نقلها إلى العربية شوقي داود تمرار، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٤: ٣٨٣-٣٨٢.

٣ - ينظر: م. ن. : ٣٨٢.

٤ - ينظر: م. ن. : ٣٩٥.

٥ - ينظر: م. ن. : ٤٤٩.

الفصل الأول

حاول أرسطو من بعد افلاطون أن يبين تناسل الخلق والانتقال من اللاوجود إلى الوجود، معتمدا على ثنائية الكون والفساد.

تظهر الفوضى في البحث الأرسطي تحت مسمى (الهيولى)، وهي تناظر الفراغ المظلم أو حالة الاضطراب والتشوش عند أفلاطون.

يحدد أرسطو مجموعة من العلل الفاعلة في تشكل العالم، والأصل في هذه العلل، العلة الغائية، فكل شيء محكوم بالغاية التي رُسمت له، فهو ينتقل إلى حالة تمثل علة وجوده، وما هو طبيعي يتكون ماهويا من أمرين (المادة والصورة)، فغاية الشيء صورته الوجودية، ف"أي شيء يحدث في الطبيعة، إنما يحدث لغاية ما، ولما كانت الطبيعة تعني أمرين المادة والصورة، كانت الصورة هي الغاية التي من أجلها يتم إنجازها الشيء"^(١)، وبذلك يكون كل شيء محكوم بحركة النظام، المؤسس بحسب الغاية، من دون النظر في البعد الكيفي لتحقيق الشيء.

وترتبط آلية التفسير الأرسطية للحركة والتغيير بثلاثة مبادئ رئيسة، الأول الهيولى، والثاني العدم، والثالث الصورة، وهذه المبادئ تُعدّ أولية، وأوليتها نابغة من عدم صدورها عن مكون أصل، والهيولى "موضوع غير متعين في نفسه، فهي ليست ماهية، ولا كمية، ولا كيفية، ولا شيئا داخلا في المقولات التي هي أقسام الوجود، ولكنها قوة صرفة لا تدرك ذاتها، وهي عبارة عن المادة الأولية للكون قبل تكوينه"^(٢)، أي أن الهيولى بهذه الصفات التكوينية مادة الكون، بعد فرض البعد الغائي عليها، مما يجعل من النظام الكوني متشكل منها، بفرض الحدود الصورية، فالصورة هي المنفذ الوحيد لوجود الهيولى. أما العدم فهو غير متحدد بذاته لأنه يمثل حالة النهاية

١ - نحو فلسفة العلوم الطبيعية: ٢٤.

٢ - تاريخ الفلسفة اليونانية: يوسف كرم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، السلسلة الفلسفية، ١٣٥٥-١٩٣٥: ١٧٥-١٧٤.

الفصل الأول

لصورة والبدائية لصورة أخرى، فهو ليس حاضرا في جسم^(١). أما الصورة، فإن علاقتها بالهيولى أو المادة علاقة تحول من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، ولذلك عُدت الصورة " كمال أول لهذا الموضوع، أو فعل أول لهذه القوة، أي أنها ما يعطي الهيولى الوجود بالفعل في ماهية متعينة"^(٢)، مما يعني أن وجود الشيء المُدرك واقعا منتج باتحاد الهيولى والصورة، مع التذكير بغائية الصورة بوصفها علة للمادة الأولية.

إنّ العلاقة بين المادة الهيولى والصورة هي علاقة بين غير التام والتام، بين المتغير والثابت، بين النظام والفوضى، ومن هنا تولدت أهمية الصورة بالنسبة للهيولى، فالصورة مقولة النظام المقابل للفوضى، وممثل الفوضى هو الهيولى. وجعل الصورة علة الهيولى هو محاولة لتحديد الثابت بوصفه علة للمتغير، مما يعني أن "أي شيء في الوجود لابد أن تكون له ماهية حتى يكون له وجود معين بالفعل"^(٣)، فمصدر التغير مرتبط بالهيولى وهو ما لاتقبله الصورة مقولة النظام.

وعلى أساس الحركة من الوجود بالقوة إلى الفعل أي من الهيولى إلى الصورة، يحدث الكون، أي وجوده الواقعي مماثلا لحالة الانتقال من اللانظام إلى النظام، وهو التحرك الطبيعي للموجودات بالانتقال بين المتناقضين، أما الحالة المعاكسة أي الانتقال من النظام إلى اللانظام يسمى فسادا^(٤)، فالوجود حركة للخروج من القوة إلى الفعل، وهو الحدوث، ويناقضه الخروج من الفعل إلى القوة وهو ما يدعى بالفساد، فالخروج من الوجود إلى الفوضى لا يُعد حدثا لأنه غير منتج، فالكون بما فيه من

١ - ينظر: تاريخ الفلسفة اليونانية: ١٧٤.

٢ - تاريخ الفلسفة اليونانية: ١٧٥.

٣ - نحو فلسفة العلوم الطبيعية: ٢٧.

٤ - ينظر: نحو فلسفة العلوم الطبيعية: ٢٨.

الفصل الأول

طابع سكوني يمثل النظام يتعارض وفكرة الفوضى الهيولى، ولذلك كان التغيير محكوم بالعلة الغائية بالتحول من القوة إلى الفعل، أي الثبات.

ولذلك عدت الفوضى عند أرسطو مقولة الفساد متى ما كسرت حالة الثبات الغائية، لأن الأس المعرفي قائم على مقولة الثبات لا التغيير.

توماس هوبز: الطبيعة هي الفوضى

استمدت الفلسفة الحديثة هذا التصور عن الفوضى بوصفها مقابلا للنظام، ويظهر ذلك في ما قدمه توماس هوبز ضمن الفلسفة السياسية، محاولا تبرير وجود الدولة.

يقسم هوبز المجتمع وما فيه من أفراد إلى (طبيعي/صناعي)، مقدما الوجود الطبيعي منطقيا على الصناعي، إذ يقوم الأخير بالتشكل ضمن مقولة الدولة، التي تفرض النظام والقانون على أفراد المجتمع، مما يشكل المجتمع الصناعي، وهو مقابل للمجتمع الطبيعي الفوضوي، وهو أول من حدد فوضوية الإنسان قبل وجود النظام^(١).

والمراد من الحالة الطبيعية للإنسان، هي حالة (اللانظام)، والتي يخضع فيها الإنسان للبعد الغرائزي، فإن "الميل الطبيعي للكائن الحي يحتم عليه أن يحافظ على ذاته"^(٢)، مما يجعله منفلتا من سلطة النظام والقانون، وهو ما يولد حالة من الصراع المتواصل سعيا للحفاظ على وجوده حيا، وهذا التصور هو ما يسميه هوبز المملكة

١ - ينظر: الطاغية دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي: أ.د. إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة ١٨٣، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٤: ٥.

٢ - توماس هوبز فيلسوف العقلانية: د. إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة للنشر والتوزيع، مصر، ١٩٨٥: ٣٠٠.

الفصل الأول

السوداء، وهي الحالة البدئية للمجتمع الصناعي المدني، والتي يغيب فيها التفكير العلمي الذي يحفظ كيان المجتمع لا الفرد.

وينسب هوبز إلى هذه الحالة سمتها الحيوانية^(١)، مما يعني أنه يجردها من الصفة الإنسانية، وهذا يقودنا بالضرورة إلى رؤية تصنيفية فمن يستحق الإنسانية هو الفرد الذي يخضع للنظام، وما عداه فهو حيوان، والخضوع للنظام يضمن وجود الدولة والمجتمع الصناعي، وصناعيته منشؤها إنساني، بمعنى أن الإنسان هو من يخلق هذا المجتمع، في محاولة لبيان الفارق بين خلق الإله لما هو طبيعي، وخلق الإنسان لما هو صناعي^(٢)، حيث تسود مقولة العدالة، ففي الحالة الطبيعية - الفوضوية "تنشأ حرب الكل ضد الكل"^(٣)، إذ يحكم الفرد رغبتان، الأولى رغبة في البقاء حيا، والثانية رغبته في السيطرة على الآخرين^(٤)، وهو فعل يسعى إليه كل فرد، وهو منشأ الفوضوية، إذ تعد الرغبة الغرائزية ضد النظام الذي تفرضه الدولة.

نيتشه: الصيرورة هي الأصل

إن التوجه الفلسفي أخذ بتشكيل عوالم ثلاثة، الأول هو الواقع والطبيعة ومن صفاتها التغير والتحول، والثاني عالم الحقيقة المطلقة، عالم المثال والمبادئ الأولية، وما فيه من سمة مميزة هو البساطة المطلقة والثبات اليقيني، والثالث عالم العقل الذي يمتلك القدرة على التواصل مع هذا العالم المثالي، ومحور هذه العوالم هو تحديد اليقين، بوصفه مبدئاً تقاس عليه ما في الواقع من سيرورة متغيرة.

١ - ينظر: توماس هوبز فيلسوف العقلانية: ٢٩٩.

٢ - ينظر: م . ن : ٣٩٢.

٣ - تاريخ الفلسفة الحديثة: ٨٤.

٤ - ينظر: م . ن : ٨٤.

الفصل الأول

ولفهم الواقع المتغيّر، كان لزاما على الخطاب الفلسفي أن يُخضعه لحالة العالم المطلق، أي أن يجعله يكتسب الثبات، وهذا ما يحفظ ديمومة النظام، وهو ما ولّد تصورا عن الفوضى بأنها الطرف المضاد، وهو ما يوجب إقصاءها.

بيّنا فيما سبق أن هيراقليطس قد آمن بالتغير والسيرورة، إلا أن المدّ الأفلاطوني ومن بعده أرسطو وسائر الفلاسفة قد غيّبوا هذا التوجه، ومن استطاع أن يعيد قراءة المنظومة الفلسفية هو نيتشه، والذي نقض هذا التمرکز حول النظام والخير، مؤكداً أن الحقيقة مرتبطة بالسيرورة والتغيّر لا بالثبات.

يذكر نيتشه أن سؤالنا عن الحقيقة هو مولود الخطاب الفلسفي، ولذلك يتساءل عن الطرف المضاد "لم ليس بالأحرى اللاحقيقة، اللايقين وحتى الجهل؟"^(١)، محاولا الكشف عن أثر الإقصاء لمقولة الفوضى، وما لها من أثر في تشكيل تصوراتنا، ولذلك ظل زرادشت ينادي "على المرء أن يكون حاملا بعد لشيء من الفوضى كي يلد نجما راقصا. أقول لكم: مازال لديكم شيء من الفوضى في داخلكم"^(٢)؛ لأنها منبع للإبداع، كما أنها أي الفوضى، مندمجة مع الواقع، إذ تتمثل السيرورة والتحول فيهما، ولذلك وجب أن نلتفت لهذا المتغيّر لأنه الأصل.

ولبيان ذلك يعوّل نيتشه على كشف تفكيكي لظاهرة العقل التي شكلها الخطاب الفلسفي، العقل التجريدي الذي يجعل من الحقائق التي يكتشفها بحسب فروضه، مقولات متعالية على الواقع، مقولات تتسم بالثبات المطلق، وما يدعو إليه نيتشه هو الارتكاز على فكرة السيرورة بوصفها تغيّرا مستمرا، فالعلماء "يضعون قيمة الشرف

١ - ما وراء الخير والشر تباشير فلسفة للمستقبل: فريدريش نيتشه، ترجمة جيزيلا فالور حجّار، مراجعة موسى وهبة، دار الفارابي، بيروت-لبنان، ط٢٠٠٣، ١: ٢٢.

٢ - هكذا تكلم زرادشت كتاب للجميع ولغير واحد: فريدريش نيتشه، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، كولونيا-المانيا-بغداد، ط١، ٢٠٠٧: ٤٧-٤٨.

الفصل الأول

على الأشياء عندما يجرّدونها من طابعها التاريخي"^(١)، أي يجرّدونها من كل ما هو متغير، مسلحين بكرههم لفكرة الصيرورة^(٢).

ونقده للعقل يظهر بنقده للمبادئ المنطقية، قانون الهوية وقانون التناقض، فالأول يفترض الذاتية مبدأ بديلا عن التغير، فالشيء هو هو لأنه يقصي كل ما ليس هو، ونيشته يعتقد أن هذا المبدأ ينسجم مع العقل نفسه، ولكنه يناقض الوجود الحقيقي، لأن الأخير "تغيّر مستمر، وصيرورة دائمة"^(٣) مما ينبئ بإمكان جمع المتضادات، وكذلك القانون الثاني التناقض، فالذات لا تستطيع أن تثبت الشيء ونقيضه في الآن نفسه، وما يؤكد عليه نيشته هو أن هذا القانون وليد العقل لا الواقع، فلا يعد ضرورة في الوجود الحقيقي^(٤)، وبذلك لا يوجد إمكان لإثبات هذه المبادئ واقعيًا، إلا ضمن حيزها العقلي.

وما يسعى إليه نيشته هو أن نجعل من العقل جزءا من الواقع والطبيعة، وبما أنها محكومة بالصيرورة فلا بد من أن جذور هذه المبادئ ترتد إلى الواقع المتغير، مما يولد إمكانية التوالد والنمو من الأطراف المتقابلة، وهو ما أسماه نيشته بالسفينكس: "أن تتولد الحقيقة عن الضلال، أو إرادة الحقيقة عن إرادة الخداع، أو الفعل الغيري عن المصلحة الذاتية، أو نظر الحكيم النير الخالص عن الشهوة"^(٥)، وبذلك يمهد نيشته لإعادة القيمة لما هو فوضوي، مقابلا للعقل الفلسفي، الذي يعده خطرا وغير

١ - غسق الأوثان أو كيف نتعاطى الفلسفة قرعا بالمطرقة: فريدريش نيشته، علي مصباح، منشورات الجمل، بيروت- بغداد، ط١، ٢٠١٠: ٣٥.

٢ - ينظر: م . ن: ٣٥.

٣ - نيشته: عبد الرحمن بدوي، خلاصة الفكر الأوربي، سلسلة الفلسفة، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت، ط٥، ١٩٧٥: ٢٠٤.

٤ - ينظر: م . ن: ٢٠٥.

٥ - ما وراء الخير والشر: ٢٢.

الفصل الأول

ممكن، لأن "عدم معقولية شيء من الأشياء ليست حجة ضد وجوده، بل بالأحرى أنها شرط لوجود هذا الشيء"^(١).

فالعقل في الخطاب الفلسفي يناقض الصيرورة، إنه تكرر للصراع بين ثنائيات لم تنزل فاعلة في الخطاب الفلسفي والعلمي (فوضى/نظام - شر/خير - وجود واقعي/معرفة - عالم الظواهر/عالم الحقائق - المتغير/الثابت)، وعلينا أن نلتفت إلى الوجود الواقعي لأنه وجودنا نحن، ومنطقه هو الحاكم، ولذلك كان الوجود الواقعي بما فيه من زخم فوضوي يتمظهر بوصفه تمردا ضد المبادئ الأولية^(٢).

وما يدعو إليه نيتشه الكشف عن الفوضى في داخل الإنسان، الإنسان المندمج في الحياة، بوصفها صيرورة من التحول المستمر، متجاوزا العالم المثالي وحقائقه الثابتة، فالحقيقة التي تؤسسها الفلسفة تنفصل عن الحياة الواقعية، وهو ما يكسبها صفة النظام والثبات، وما علينا إلا إعادة ارتباط الحقيقة بالحياة، وهو ما يجعل الرؤية مختلفة^(٣)، إذ تأخذ الحقيقة صفة الصيرورة والتغير من الحياة، فتجري في التغير، وهو ما يجعل من الحقيقة منفتحة على اللاتنبؤ، وذلك بفقدانها صفة الثبات المطلق.

إن الحقيقة عند نيتشه مرتبطة بالأصل المضاد، وهو البطلان، وكذلك المنطق أصله اللامنطق يقول في العلم المرح: "من أين نشأ المنطق في رؤوس الناس؟ لا شك من اللامعقولية التي كان مجالها واسعا"^(٤)، بمعنى أنه ينزع عن المنطق ونظرية المعرفة بعدها الغائي، أو الرغبة في الكشف عن الحقيقة الخالصة والمنفصلة عن الواقع

١ - نيتشه: بدوي، ٢٠٦.

٢ - ينظر: م. ن. ٢٣٨.

٣ - ينظر: نيتشه: د. فؤاد زكريا، نوابغ الفكر الغربي عدد ١، دار المعارف مصر: ٦٢.

٤ - العلم المرح: نيتشه، ترجمة وتقديم حسان بورقية ومحمد الناجي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٣: ١٢٥.

الفصل الأول

والحياة، وهو بذلك يخلص العقل من سلطة المثالي، ويتجه بالعقل إلى الواقع بوصفه جزءاً منه، وبذلك يلغي الفجوة بين العقل والصورورة، مما يحرر العقل من أوهام المبادئ، لأنها ببساطة غير واقعية، ليقينيتها، مما يفسح المجال أمام اندماج العقل مع الفوضى، التي يمتلئ بها العالم الواقعي عالم الظواهر وهو "العالم الوحيد، و(العالم الحقيقي) لا يعدو كونه أكلوبة مختلفة"^(١).

جيل دولوز: الانفتاح على الفوضى

يُعد دولوز فيلسوف الفوضى على جهة الحقيقة لا المجاز، فمنجزه الفلسفي يحاول فيه تقديم الفوضى على أنها الأصل الحاضر، الأصل الذي يمدنا بمعنى الحياة، والفوضى مرتبطة بالوجود وبحسبها يكتسب الموجود حق الانوجداد، وهذا ما لم تعمل عليه الفلسفة قبل دولوز، فالخطاب الفلسفي الذي يؤسس لوجود الفوضى بوصفها معطى يصنف ضمن الـ(لا)، بمعنى أنها ما لا يجب الوقوع فيه لأنها لا نظام، وفيها يتشكل الغياب الكلي للنمط المنطقي، وعلى هذا الأساس يجب أن تصنف على أنها شرٌّ محض، وبما أنها شر فهو مظهر من الخداع والزييف، وموطن اللاحقيقة، وهذا ما جعل الخطاب الفلسفي يؤسس لعالم مقابل للفوضى يتمظهر بوصفه النظام والخير المحض، وفيه تتجسد الحقيقة الكلية، والتي يجب على الإنسان أن يتمثلها.

هذا العالم الحقاني هو عالم المثل الأفلاطونية، وعالم المبادئ الأولية للعقل، وعالم الروح، والذي بحسبه يتشكل الوجود، فما الواقع إلا تمثل لهذا العالم اليقيني، ويسلك الخطاب الفلسفي مسلك البرهنة على ثبوتية هذا العالم، ليكون جدار عزل عن عالم الفوضى.

الفصل الأول

وفلسفة دولوز تتخذ لنفسها مسلكاً مزدوجاً، فهي من جهة لا تسعى لإلغاء هذا العالم بالإعلاء من الفوضى، في محاولة لقلب التصورات، فنجعل النظام بديلاً عن النظام، فهذا مغالطة لأنه لن يخرج عن منطق العالم المثالي، ومن جهة ثانية، تعمل فلسفته على تأسيس رؤية مغايرة، وظيفتها خلخلة التصورات السابقة، ومحاولة إنشاء منطق مغاير، مجرداً من التوجهات القبلية.

لذلك لم تكن الفوضى لديه مقابلاً للنظام، يسعى إلى تقديمه لخلق تراتبية جديدة، إنما سعي للكشف عن مدى حضور الفوضى بوصفها أصلاً، لا تلغي السابق، إنما تعدّه صورة معرفية ساهمت الفوضى في إنتاجها، أو هي مسطح معرفي محايت تشكل على الامتداد الفوضوي، ولا يمنع وجوده وجود غيره، وليس وجوده حجة على صدقه هو فقط، فالخطاب الفلسفي ما قبل دولوز تقطيع لحالة الانتظام في الفوضى نفسها.

إلا أن الاعتقاد بيقينية هذا الحالة المنتظمة، هو من جعلها الصورة المطلقة التي لا بديل عنها، مما جعل الفوضى بوصفها سديماً^(١)، مُقلّقا، "فلا شيء أكثر إيلا ما ومجلبة للقلق من فكر ينفلت من ذاته"^(٢)، بمعنى أنه يفقد صورة النظام، التي فرضتها الرؤية اليقينية، أي وجود مبادئ أولية تحكم سيرورة التصورات.

ولتمظهر الفوضى ضمن فلسفة جيل دولوز صور مفاهيمية شكلت رؤيته في استحضار الفوضى: التغيّر والسيرورة، التوليف والتشظي.

١ - ينظر: ماهي الفلسفة: جيل دولوز و فليكس غيناري، ترجمة ومراجعة وتقديم مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي لبنان-بيروت، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٧: ٢٠٧.

٢ - ماهي الفلسفة: ٢٠٧.

الفصل الأول

أولاً: التغيّر والصيرورة

عمل الخطاب اليقيني للفلسفة على تأسيس مقولة الثبات، بخلق نماذج عليا تقاس عليها الجزئيات، فلا وجود لما هو جزئي إلا ضمن مقولة كلية سابقة في الجود عليه، وهو ما شكّل مبادئ الفكر الأولية، والتي تضمن عدم التحول من طرف إلى آخر في العلاقات التقابلية، وهذا تحديدا ما لا يقبله دولوز، ويقدم البديل وهو الصيرورة ضمن مقاربتها النيتشويه، بوصفها حركة مستمرة وتغيّر^(١) ممتد بين الأطراف المتقابلة والمتناظرة، لذلك فهي تكتنز الحدوث في حركتها، مما يجعلها تقصي الثبوت من دائرتها، إذ لا يمكن لقانون معين أن يقاوم مجرى الزمن، وما يفرضه من تقلبات تنتج تشكلات غير متبئى بها. ولذلك وسمت فلسفة دولوز بالحدثية، لانهماهما بالحدث، ضمن تصور "خارج كل تحقق تجريبي أو تصور تمثيلي"^(٢)، أي خارج كل تصور معرفي محكوم بالتجربة معيارا لتحقيق المعرفة، وكذلك خارج كل تصور يعتقد بمبدأ المماثلة بين الجزئيات والمبادئ الأولية.

وهذا ما يدفع دولوز للكشف عن الحدث في ذاته، غير مرهون بمقولة سابقة، فكل حدث هو "لقاء أي اصطدام بين (سلسلتين) seris يتحقق به تغير يسري فيهما معا"^(٣)، هذا التغيّر يكتسب استمراريته من حضور الطرف المضاد بوصفه أصلا تكوينيا، وعليه لا يمكن للمعرفة أن تركز إلى حالة من المعيارية المنطقية، لأنه طبيعة الحدث محكومة باللاتنبؤية، فالتغيّر والتحول حادث لكنه منقطع عن نوعية الصور المتحول إليها، فالحدث "إثبات مطلق للحظ والانفتاح، لأنه كل حدث هو

١ - ينظر: المعجم الفلسفي: ٧٤٩.

٢ - فلسفة جيل دولوز عن الوجود والاختلاف: عادل حدجامي، دار توبقال للنشر، الدار

البيضاء - المغرب، ط١، ٢٠١٢: ٢١٠.

٣ - م . ن : ٢٠٩.

الفصل الأول

(تحديد) يحيل على (لا تحدد) هو الأساس فيه^(١)، مما يجعل هذا الطرف المقابل حاضرا في كل تحول، فيخلق اللانهائية، والحدث بهذه الحالة معنى وحقيقة لا عنصرا دالا^(٢)، فهو لا يتشكل بوصفه مؤشرا، يمكن أن يدل على ما هو سابق في الوجود عينيا أو بوصفه مفهوما ذهنيا، والحدث الأول هو لحظة تشكل المفاهيم على بساط المحايثة في لحظة الارتباط بعالم الفوضى، فتتشكل مساحة لتسوير المفاهيم ضمن صيرورتها، فالتغير والصيرورة مرتبط بلحظة تشكل المعنى الأول والذي يندفع نحو الصيرورة حاملا سمته الاختلافية فيها. هذه الصيرورة لا تخضع لحالة الثبات، فهي تبقى مرهونة بانعدام الدلالة، فهي "غير منظمة وغير دالة"^(٣) إنها حدث وحدث مستمر، لأن كل صيرورة "متعلقة بالحدث وما ينتج عنه من تحولات وتفاعلات"^(٤) حدث يتحقق في كل التفاصيل الجزئية.

وبذلك تأخذ الصيرورة على عاتقها شرطية الوجود، الوجود متحولا منتجا لأنماط وتشكلات متعددة ومتنوعة، مما جعل الوجود "جمعا للصيرورات، مفتوحا على تغيرات لا متجانسة وكاوسية تدمر كل مبدأ يذويت (subjectivataion) عامل"^(٥) أي كل مبدأ قبلي يسعى إلى تنميط الوجود بحسبه.

يتمظهر الاختلاف بوصفه سمة جوهرية للصيرورة، فلحظة الحدث لحظة التحديد، إلا أنها في إحالة مستمرة ل(لا تحدد)، وهو ما يجعل من الطرف النقيض حاضرا. إلا أن الاختلاف الدولوزي يختلف عن تصور الخطاب الفلسفي للاختلاف، فدولوز يعمل

١ - فلسفة جيل دلوز عن الوجود والاختلاف: ٢٠٩-٢١٠.

٢ - ينظر: م. ن. : ٢٠٩.

٣ - ينظر: م. ن. : ٢١٦.

٤ - ينظر: م. ن. : ٢١٦.

٥ - الاختلاف والتكرار: جيل دلوز، ترجمة د. وفاء شعبان، مراجعة د. جورج زينات، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٩: ٥٦٧.

الفصل الأول

على تجذير الاختلاف خارج مفهوم التمثل والمشابهة، أي خارج منطق الهوية^(١)، أي البحث عن مفهوم الاختلاف بذاته، من دون مبادئ أولية سابقة أو قبلية، والاختلاف ضمن الخطاب الفلسفي لا يخرج عن كونه "اختلاف الماهية، ليظهر كتعارض بين النفسي والإثبات، إيجاب وسلب"^(٢)، ولكنه مبني بحسب قانون الهوية الذي يستوعب الاختلاف، لأن المختلف عليه أن يكون هو ذاته، ليتحقق اختلافه عن الآخر المعارض، لذلك فقانون الاختلاف مبني على مقولة قبلية وهي التماثل والمطابقة كون الشيء هو هو، وما يسعى إليه دولوز هو البحث عن تصور للاختلاف بوصفه بنية الصيرورة، غير مسبوق بمبدأ أولي قبلي، الاختلاف بوصف أصلا يكسب الموجود وجوده بلحاظ الصيرورة، فهو وليد الفوضى، ولذلك وسم بالمسوخية في الخطاب الفلسفي، "فعلى الاختلاف أن يخرج من كهفه ويتوقف عن أن يكون مسخا"^(٣) ويتحقق ذلك في الخطاب الفلسفي بردّ الاختلاف إلى التماثل الهوياتي، لأنه "المفهوم الذي يجر معه الكاوس والفراغ من العمق نحو السطح، والحال أن الفكر يخاف الكاوس لأنه يهدد سكون الهويات وتماسك الوحدات"^(٤) ولذلك يتساءل دولوز "هل كان الاختلاف حقا شرا في ذاته؟"^(٥)، ولا يتم نزع الشر عن الاختلاف إلا بقبوله وسيطا للفوضى، ومنها يمكننا أن نحدد الاختلاف خارج حدود النفسي والسلب، أو بوصفهما- النفسي والسلب- تصورا ثانويا عن لحظة الاختلاف الفوضوي، الحدث

١ - ينظر: الاختلاف والتكرار: ٣٩.

٢ - أسس الفكر الفلسفي المعاصر مجاوزة الميتافيزيقيا: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء-المغرب، ط١، ١٩٩١: ٩٢.

٣ - الاختلاف والتكرار: ٩٦.

٤ - فلسفة جيل دولوز عن الوجود والاختلاف: ١٩٧.

٥ - م . ن : ٩٦.

الفصل الأول

الأول والمعنى في ذاته من دون دال عليه، فيكون الاختلاف صيرورة "لا ترد إلى جوهر جامع أو مفهوم، إنه ما يتباعد ويلتقي ويجتمع إلى بعضه في تباعده"^(١).

ثانياً: التوليف والتشظي للمفاهيم

يعمل الخطاب الفلسفي على تأسيس مفاهيمه بحسب قاعدة الاختزال والتجريد، والهدف هو الحصول على المبادئ الأولية البسيطة، ولكونها مبادئ فهي تأخذ صفة البدهيات التي يكفي وضوحها دليلاً عليها، فهي من تُرد إليها الجزئيات المتنوعة.

في فلسفة جيل دولوز الأمر معكوس تماماً، إذ تتمظهر المفاهيم بوصفها كليات معقدة، وليست بسيطة، تتسم بالتشظي، فالمفهوم "كل، لكونه يشتمل كل مكوناته، لكنه كل متشظٍ، ووفق هذا الشرط يمكنه أن يخرج من السديم"^(٢)، إذا شرط تشكل المفهوم أن يكون مركباً، توليفياً، مما يجعل المفهوم يمتلك تاريخاً، فكل مفهوم له امتدادات جذرية تربطه بمفاهيم تشكل تاريخه، وهي مرتبطة بمشكلات مغايرة، مما يجعل المفهوم خاضعاً لمفهوم الصيرورة، وبذلك يتجرد من طابعه المبدئي والبدهي، فنسقط عنه اليقينية المطلقة.

فلا تعود للمفاهيم خاصية الجمع، إي تحديد ماهو ثابت لتقرير هوية التعيين المتعدد والمتنوع، إنما أخذت المفاهيم بفكرة المجاورة^(٣)، مما يجعلها تخرق قانون الهوية، فالمفهوم يتشظى إلى مفاهيم متراكبة تاريخياً، وكذلك في لحظة الراهنة أو

١ - فلسفة جيل دولوز عن الوجود والاختلاف: ١٩٧.

٢ - ماهي الفلسفة: ٣٩.

٣ - فلسفة جيل دولوز عن الوجود والاختلاف: ١٤٧.

الفصل الأول

اقترانته الحاضرة وهو ما يجعل المفاهيم تتجه نحو اللامتناهي^(١)، وطابع المجاورة بين تراكيب المفهوم لا يعني السقوط في الوحدة والتماهي، بل على العكس تعمل المفاهيم على تعزيز حالة اللاتجانس بين مكوناتها، لكنها تبقى متصلة مع بعضها بحسب خاصية الاختلاف، وهو ما يجعل المفهوم يرتبط بالحدث والسيرورة، فيمتلك قابلية التحول، فهو -أي المفهوم- "توليف غير أنه توليف تنافري، أو قل أنه جذمور، أي حقل ترابط محايث لذاته، متكوشر ومتبادل للفعل والانفعال"^(٢)، وبذلك يقلب دولوز تصور الخطاب الفلسفي، وذلك بجعل التعدد في المفهوم ذاته، أو قابليته على التعدد، وليس فيما يندرج تحت المفهوم من تعيينات مادية. واكتساب التعددية في المفهوم متأصل في ارتباط المفهوم بالفوضى والسيرورة.

فلمفهوم علاقات عمودية وأفقية، العمودية تمثل البعد التاريخي لحضور وغياب تركيبات المفهوم وهي داخلية، وأفقية تمثل ارتباطات المفهوم وعلاقاته بما يجاوره، فلا حدود يقينية تفصل المفهوم إنما يمتلك قدرته على التحول والتغير، إنه نتاج الفوضى.

إذا وبحسب التصور الذي قدمه جيل دولوز يمكن أن نقف على تحديد للفوضى، بأنها "نحن نعرّف السديم (chaos) بالسرعة اللامتناهيّة التي يتلاشى بها الشكل الذي يرتسم في السديم، أكثر مما هو بالفوضى التي يتميز بها. إنه فراغ، وليس عدما، ولكنه فرضي، يحوي كل الجزئيات الممكنة، ويستخرج كل الأشكال الممكنة التي تظهر لتختفي رأسا بعد ذلك، بلا كثافة، بلا مرجع، بلا نتيجة"^(٣)، ويعمل كل من العلم والفلسفة والفن على صناعة مسطح محايدة يحين المفاهيم ضمن

١ - ينظر: ما هي الفلسفة : ٤٢ .

٢ - فلسفة جيل دولوز عن الوجود والاختلاف: ١٤٨ .

٣ - ما هي الفلسفة: ١٢٩ .

الفصل الأول

السرعات اللامتناهية في الفوضى، والتي بموجبها نعمل على "أن نمزق قبة السماء، وأن نغوص في السديم"^(١)، هذا الغوص يمثل حالة قطع تمكن المفهوم من التوالد، فغوص الفيلسوف يجعله يحمل من "الكاوس [السديم والفوضى] تنويعات تبقى لا متناهية... ترسم مسطحا من المحايثة فاصلا يقطع السديم"^(٢)، وغوص العالم يجعله يحمل من الفوضى "متغيرات تغدو مستقلة بالتباطؤ، أي بإلغاء التنويعات الأخرى المختلفة القابلة للتقاطع فيما بينها"^(٣)، وغوص الفنان في السديم يجعله "يحمل من السديم تنويعات لا تنشئ إعادة إنتاج للحسي في العضو، ولكنها تقييم كائن المحسوس، كائن الإحساس، على مسطح ذي تركيب لا عضوي قادر على إعطاء اللامتناهي ثانية"^(٤).

فالعالم والفيلسوف والفنان هم القادرون على الدخول في صراع مع السديم، وتشكيل حالة قطع تتولد فيها المفاهيم على بساط المحايثة، ضمن تصور الصيرورة والتحول.

يختتم دولوز الصراع مع السديم (chaos) بقوله: "إن للسديم ثلاث بنات وفق المسطح الذي يقطعه: إنها السديمانيات التي هي الفن والعلم والفلسفة باعتبارها أشكالاً للفكر أو الإبداع، ونسمي سديمانيات، تلك الوقائع المنتجة فوق مسطحات تستقطع من السديم"^(٥)

١ - ما هي الفلسفة: ٢٠٨.

٢ - م . ن : ٢٠٨.

٣ - م . ن : ٢٠٨.

٤ - م . ن : ٢٠٨.

٥ - م . ن : ٢١٤.

الفصل الأول

ثانياً: جدل الخطاب العلمي والظواهر الفوضوية

لم تكن نظرية الفوضى وليدة تتابع سببي لما أنتج سابقاً، بل هي قلب لتصورات العلم الحديث، وزعزعة لمجموعة من الأسس التي تشكلت بحسبها مقولة (العلمية)، لذلك وجب علينا متابعة ما كان عليه العصر السابق لنظرية الفوضى، وما الأسس التي استند إليها هذا العلم؟.

تسعى النظرية النقدية بوصفها منتجاً حداثياً إلى خلق نماذج تسبغ عليها صفة (العلمية)، هذه العلمية مكتسبة من السيرورة التي قدّمتها فروع العلم الصرفة الرياضيات والفيزياء، فضلاً عن الفلسفة، وما قدّمته من تطور هائل طرحت فيه تفسيرها لحركة الكون، وما فيه من ظواهر، فخلقت لنا قوالب قياسية يُسترشد بها لتقديم تفسير عن أيّ ظاهرة.

والأدب لا يخرج عن هذا الوصف، فهو ظاهرة من ظواهر هذا الكون الثقافية، وهو لا يخرج عن هذه الرؤية في تواجهه تحت مديّة النظرية النقدية، فأصبح النقد بمجمله منساقاً إلى أصول حتمية تقدم للقارئ نتائج يقينية.

فسلب الأدب طابعه الثوري – إن جاز التعبير، فالأدب كان وما زال، ممثلاً حقيقياً لحالة الاضطراب والفوضى، فهو استعمال مقصود للمعطيات اللغوية بطرق تجعله ممثلاً لاكتشاف مستوى التعقيد في النظام اللغوي.

لم تستوعب النظرية النقدية الحديثة هذه الفاعلية في الأدب، فاتجهت إلى نمذجة النقد بوصفه قراءة واصفة للعمل الأدبي لا أكثر، تسعى للاكتشاف، فظهرت لنا محاولات جمّة تحت مسمى (النظرية الأدبية)، هدفها إثبات البعد العلمي للأدب، إي إخضاع الأدب لنماذج قياسية ثابتة وحتمية يقينية.

الفصل الأول

والحتمية ليست من نتاج النقد الأدبي؛ بل وافدة إليه، أفرزها الحراك العلمي، فشكّلت الحتمية الأسس الممكنة الذي قدمته الحداثة في صيرورتها.

وما سنعمل عليه فيما سورد، هو تتبع لهذه الحتمية في سياقها العلمي، ورصد أثرها في إنتاج مقولة (النسقية العلمية)، وسنقف في الفصل القادم على حضور الحتمية، وما يرد معها من مصطلحات مساوقة لها، مثل اليقين، والنماذج القياسية، والنظام، في النظرية النقدية الحديثة.

سيكون الفصل اللاحق هو رصد لحتمية النقد الأدبي من جهة، ومن بعدها سننظر في تجاوز هذه الحتمية، والخروج من النظام المغلق للنظرية النقدية من جهة أخرى.

١- فرنسيس بيكون والبحث عن الحقيقة

كان القرنين السادس عشر، والسابع عشر، مسرحًا لتحول عظيم في ميدان البحث العلمي، لتواجد مجموعة من العلماء، غيرت طريقة التفكير في المعطى المعرفي، فأعادت صياغة الأسئلة الجوهرية حول طبيعة العلاقة بين الإنسان والعالم المحيط به، أو الطبيعة.

ومن أبرزهم فرنسيس بيكون*، صاحب كتاب الأورغانون الجديد، والذي أرادته بديلاً عن المنطق الأرسطي. كان جهده منصباً على اكتشاف الحقيقة، فكل ما قُدم سابقاً هو محض أوهام، ف"نسق المنطق الحالي [يقصد المنطق الأرسطي] يفيد في تثبيت وترسيخ الأخطاء (القائمة على الأفكار السائدة) أكثر ما يفيد في البحث عن

* فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) فيلسوف ورجل دولة وكاتب انجليزي.

الفصل الأول

الحقيقة^(١)، الحقيقة الثابتة التي لا تتغير أو تتبدل، وهذه الحقيقة موجودة، لكنها بحاجة إلى الاكتشاف، ومنطق العصور الوسطى عاجز عن اكتشافها، هذا ما دفع ببيكون إلى التأكيد على أهمية المنهج، وهو أداة العلم الحديث، وكذلك أهمية الطبيعة فـ " جرى نوع من الاستبعاد للتصور اللاهوتي للكون^(٢) ".

أما المنهج فقد ناله الغياب قبل بيكون، فهو الأداة التي تمكنا من اكتشاف الحقائق، وهو العلامة المبرزة في عصر ما قبل نظرية الفوضى، بل هو " مفتاحه وآيته"^(٣)، وبسبب جهود بيكون في تخليص البحث العلمي من شوائبه، وُسم العصر كله بروح بيكون، فـ " اقترن اسم بيكون بحركة العلم الحديث لأن دعواه المنهجية كانت أقوى تجريد وتجسيد لعصر العلم الحديث، أقوى تجسيد للحدث^(٤)، فقد كان الهدف هو تحقيق الانقطاع مع القياس الأرسطي، لأنه " أداة غير صالحة للكشف العلمي إنه منطق قياسي تكون النتيجة فيه صادقة على فرض أن المقدمات صادقة وليس على أنها صادقة بالفعل"^(٥)، لذلك قال عن هذا المنطق لا يقدم لنا الحقائق، بل هو منطق يبتعد تمامًا عن الظواهر الطبيعية، ليقصر على التصورات.

-
- ١ - الأورجانون الجديد إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة: فرنسيس بيكون، ترجمة د. عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١٣: ١٩.
 - ٢ - المركزية الغربية إشكالية التكوين والتمركز حول الذات: د. عبد الله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط١، ١٩٩٧: ٦٢.
 - ٣ - فلسفة العلم في القرن العشرين: د. يمنى طريف الخولي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة عدد ٢٦٤، ٢٠٠٠، ٤٨.
 - ٤ - م . ن : ٦٣.
 - ٥ - المركزية الغربية إشكالية التكوين والتمركز حول الذات : ٦٣.

الفصل الأول

وما قدّمه بيكون هو منهج يعتمد على رصد الجزئيات من خلال الحواس، مبتعدًا عن الطابع التأملي في الاكتشاف ومقاربة الظواهر، يقول بيكون " فنُسْتَمْدُ المبادئ من الحواس والجزئيات، ثم ترتقي في صعود تدريجي، غير متقطع حتى تصل في النهاية إلى أكثر المبادئ عمومية"^(١)، إنها محاولة لاكتشاف القوانين التي تحكم الظواهر الطبيعية، إن اكتشاف هذه المبادئ العمومية يعني اكتشاف البعد الثابت في الكون، اكتشاف المركز، وعلينا أن نركز على فكرتين مهمتين للفكر الحدائي وهما، الاكتشاف والقانون الثابت.

يعتقد بيكون بأن هناك أصل ثابت، فإذا اكتشفنا هذا الأصل، تحكمتنا بالظاهرة التي ينتجها، وهو حلم بيكون (السيطرة على الطبيعة)، يقول بيكون " يحق للعلوم القائمة على الآراء والمعتقدات أن تستخدم الاستباقيات والجدل، ذلك أن غايتها أن تفرض القبول (بالقضية)، لا السيطرة على الأشياء"^(٢)، وهذه الفكرة – أي السيطرة على الطبيعة – من أهم التصورات التي أنتجها خطاب العلم.

ولمّا كانت الطبيعة قد أُقصيت من مسرح البحث القديم، أعاد بيكون الاهتمام بها، فهي لغزه الذي يسعى لحله والسيطرة عليه، فلم تخرج فلسفة بيكون عن كونها " صورة إحياء لقدرة الإنسان على الطبيعة"^(٣)، هذا الاهتمام بالطبيعة هو تحول مركز الاهتمام من التصورات المجردة إلى ما هو أرضي واقعي، وبتحول في موقع الإنسان ووظيفته، فالطبيعة أصبحت " كتلة من الموضوعات الخاضعة لقوانين"^(٤)، هذه القوانين هي من ستخلق المركزية الأساسية للإنسان وتحول الطبيعة إلى مادة، يتم

١ - الاورغانون الجديد: ٢٢.

٢ - م . ن : ٢٥.

٣ - آفاق فلسفية: ٦٨.

٤ - المركزية الغربية إشكالية التكوين والتمركز حول الذات : ٦١.

الفصل الأول

اكتشاف نمط علاقاتها الداخلية، فتخضع لسلطة الإنسان، إنه همُّ السيطرة على الطبيعة، وهي القيمة العليا لخطاب العلم الحديث، إذ معرفة القانون يعني امتلاك الظاهرة.

وأولى خطوات بيكون هي تحديده للأوهام الأربعة: ١- أوهام الجنس، ٢- أوهام الكهف، ٣- أوهام المسرح، ٤- أوهام السوق^(١)، وبها حدد بيكون عوائق التقدم العلمي الحديث، وإذا ما التزمنا بإبعادها كان المنهج أكثر التصاقاً بالحقيقة.

والمنهج الذي أكد على حضوره بيكون هو الاستقراء، والذي يبدأ من تحديد الظواهر، مادة البحث، ثم إجراء التجارب على الظاهرة كلها، ثم مرحلة القوائم، التي يسجل فيها الباحث ملاحظاته عن الظاهرة فـ" الأمل معقود على استخدام قوائم الكشف، لكي يصنف العقل الوقائع التجريبية وينظمها، تبعاً لدرجاتها، ويحدد الأمثلة النافية"^(٢)، هذه القوائم ترصد حركة الظاهرة وحركتها المضادة، وحركتها المنافية لها، حتى يستوعب الباحث كل احتمالات الظاهرة، فضلاً عن الوقوف على القانون الذي يتحكم بها، وعزله عما لا يدخل تحته.

والقوائم ثلاثة أنواع^(٣) هي:

١- قائمة الحضور والإثبات: ويدون فيها كل ما لاحظته على الظاهرة عينة البحث.

٢- قائمة الغياب أو النفي: وفيها يدون ما لا يحضر في الظاهرة أو في عكسها.

١ - الأورجانون الجديد: ٢٨-٢٩، وما بعدها.

٢ - فلسفة العلم في القرن العشرين: ٦٨.

٣ - ينظر: الأورجانون الجديد: ١٤٨ - ١٥١ - ١٦٦.

الفصل الأول

٣- قائمة التفاوت في الدرجة: وفيها يدون المجرب الاختلاف بين مستويات حدوث الظاهرة.

وبالاستقراء منهجًا، يسعى ببيكون لتحقيق مهمة المعرفة البشرية بقوله: " مهمة المعرفة البشرية وهدفها هو أن تكتشف في طبيعة معطاة (صورتها)، أو تميّزها الحقيقي أو طبيعتها المسبّبة لها" ^(١)، والمقصود بالصورة هو القانون الذي يحكم المادة المدروسة من قبل الباحث المجرب، وفيه يقول ببيكون مفسرًا معنى الصورة "إذا كان في الطبيعة لا يوجد إلا الأجسام المفردة التي تؤدي أفعالاً فردية خالصة وفقاً لقانون، ففي مجال العلم يُعد هذا القانون نفسه (ودارسته واكتشافه وتفسيره) هو أساس كل من المعرفة والتطبيق العملي. إن هذا القانون وبنوده هو ما أعنيه بكلمة (صورة) Form" ^(٢)، وهذا يعني أن هناك أصلاً ثابتاً يجب اكتشافه، وهو اكتشاف للحقائق التي تتشكل منها الموجودات والتي أسماها الطبائع، والتي من اجتماعها وتفرقها تتمظهر الموجودات، وباكتشافها تتحقق السيطرة المطلقة للإنسان على الطبيعة.

هل يمكن لنا أن نحدد الفوضى بحسب ببيكون؟، إذا علمنا أنه أكد على أن المنهج الاستقرائي يسعى لاكتشاف حقائق الأشياء، أي صورها المميزة لها، أو قانون وجودها، إذا علمنا هذا، كان واضحاً أن الفوضى لديه هو ما كان من الظواهر عصي على الاكتشاف، بمعنى أن هناك مجموعة من الظواهر لا يمكن معرفة قوانينها، أو أنها تُبدّل من حالها مع تقدم الزمن، فهذه الظواهر فوضوية. فكل ظاهرة أو سلوك لا ينماز بالثبات في أصل وجوده، فهو فوضوي. فهو يفترض الثبات

١ - الأورجانون الجديد : ١٣٤.

٢ - م . ن : ١٣٥-١٣٦ .

الفصل الأول

عنصرًا مهمًا في " اكتشاف البنية الكامنة في الأجسام التي في حالة السكون وليست في حالة الحركة"^(١).

٢-رينيه ديكارت والبحث عن اليقين

إذا كان فرانسيس بيكون قد وسم العصر بروحه ومنهجه، فإن رينيه ديكارت* هو (أبو الفلسفة الحديثة)، هذه الأبوة جعلته عنصرًا فاعلًا في تشكيل خطاب العلم الحديث.

حدد بيكون في عمله الحواس مصدرًا لمعرفة الحقيقة، بوساطة التجريب والمحكوم بالمنهج الاستقرائي، ومن هذه الحركية قُدمت الطبيعة إلى مسرح البحث العلمي بطريقة مغايرة لما اعتقد سابقًا عنها.

أما ديكارت فقد وجد في العقل ملاذه، فلم يؤمن بما تقدمه الحواس، ففرض أو علق - بالمعنى الفينومينولوجي - كل ما لديه، فكان العقل مسرحًا لإثبات اليقين الأول، فقد اعتمد ديكارت على ما هو فطري فيه، فأنكفأ على استشعار ما في نفسه، محتكمًا إلى مبدأ البساطة.

فقد سعى بيكون وديكارت إلى الحقيقة التي تنماز بالثبات، منطلقان من أصل مهم، وهو افتراض أن الأصل في كل شيء هو الثبات لا الحركة، فالثبات يُؤدّد الاستقرار والنظام، فضلًا عن البساطة، فلا نجد التعقيد والاضطراب، ولا التبدّل والتغيير، وهذه الأخيرة كلها سمات السلوك الفوضوي، وهو ما أبعدته كل منهما؛ لأنها مصدر للخطأ.

١ - الأورجانون الجديد: ١٣٤.

* رينيه ديكارت: ١٥٩٦-١٦٥٠ فيلسوف وعالم رياضي وفيزيائي فرنسي.

الفصل الأول

وعلى الرغم من وحدة الفكرة والهدف لهما، إلا أنهما يختلفان بالطريق المؤدي، فبيكون لا يستمع لما هو متصور في العقل، مفضلاً الحواس وما تقدمه التجربة، أما ديكارت فهو مناصر لما هو بدهي فينا، فلا الحواس ولا كل ما هو خارجي يمكن أن يكون موضع ثقة.

إن الخطاب الفلسفي الذي يمثله ديكارت كان وما يزال، المرجع المؤسس لخطاب العلم الحديث، ونموذج ديكارت كان ساعياً لتأكيد فكرة المطابقة، وهي شقيقة فكرة الاكتشاف، فإذا كان الاكتشاف يقصد به تحديد ما هو موجود في الأصل، فإن المطابقة من لازمة له، فهي محققة اليقين عندما نجد أن ما لدينا هو نفسه ما يوجد في خارجنا.

فالأصل في فلسفة ديكارت الاكتشاف، لكن اكتشاف ماذا؟ هو اكتشاف أن ما في العقل من يقينيات - بدهيات فطرية - مطابق لما هو في الواقع⁽¹⁾، ونتاج هذه المطابقة أنها تتبع من مصدر علّي واحد، أو لنقل أنها معلولة بعلّة أصل، هي من أوجدت ما في العقل وما في الواقع، وحكمت عليهما بالمطابقة، وهذه العلة الكاملة التامة هي لا نهائية، أو بمصطلح ديكارت نفسه أن الوجود الموضوعي والوجود الخارجي الطبيعي، كلاهما صادر عن علة متصفة بالكمال المطلق.

يبدأ ديكارت، في محاولته للوصول إلى اليقين، بإزاحة كلّ شيء، سواء كان فكرة أو انفعالا، أو حكماً، كل شيء ينال حتى الجسم المحسوس فهو يؤكد أن من الممكن أن تكون هذه الأعضاء التي تكون الجسد ليست حقيقية، أي من تصورات العقل التي لا يوجد ما يطابقها في الواقع، كل هذا أزاحه على فرض أنه قابل

١ - ينظر: تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى: رنيه ديكارت، ترجمة الدكتور كمال الحاج، منشورات عويدات، بيروت - باريس، ط٤، ١٩٨٨: ٤٧-٤٨.

الفصل الأول

للخطأ^(١)، والغرض منها هو خطوة أولى للوصول إلى اليقين الأول الذي لا يتسرب إليه الشك مطلقاً.

ومن بعد عملية الرفض لكل شيء يضع ديكرت أمام العقل المفكر مجموعة من القواعد التي يستطيع بواسطتها التعامل مع الأفكار التي ترد لذهنه، وهذه القواعد هي^(٢):

١- عدم قبول أي شيء على أنه حقيقة إلا إذا كان حائزاً على قدر كبير من الوضوح والتميز، فلا يُقبل الشيء أو الفكرة بدافع الظن، أو التسرع.

٢- تقسيم الصعوبات في الذهن إلى أجزاء حتى يسهل التعامل معها في إيجاد الحلول لها.

٣- الابتداء بالأسهل، أو التفكير في الأسهل والأبسط، ومن ثم الانتقال والارتقاء إلى المركب من الأفكار.

٤- عملية المراجعة لكل ما تقدم حتى التأكد من عدم التغافل عن شيء، ومراجعة دقيقة لتراتب القضايا في الذهن.

هذه القواعد هي السور الحامي لليقين، فهي نظام مغلق، لا يقبل فيه ما يقاربه الشك أو الخطأ، يبدأ من البسيط والواضح جداً أمام العقل، فإذا ثبتت حقيقته، انتقل الذهن إلى ما هو أكثر صعوبة، فالأصل هو اليقين الأول المتصف بالوضوح والبساطة، إذا ثبت هذا اليقين الأول ثبت ما نتج عنه.

١ - ينظر: تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى: ٥٠-٥١.

٢ - ينظر: حديث الطريقة: رينيه ديكرت، ترجمة وشرح وتعليق د. عمر الشارني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٨: ٩٤-١٠٢.

الفصل الأول

هذه القواعد يمكن من خلالها التفكير في جميع الأشياء يقول ديكارت : " حتى لا يبقى منها شيء واحد لا يمكن بلوغه مهما كان بعيدا، أو اكتشافه مهما كان خفيا^(١)."

حدد ديكارت اليقين الأول بأنه الكوجيتو^(٢)، يقين الأنا المفكرة، فبعد الإزاحة لكل شيء بقية الأنا التي لا شك بوجودها، وهذه الأنا، على الرغم من أنها تمثل اليقين الأول والحقيقة الوحيدة، إلا أنها لم تستطع التعامل مع ما هو خارج عنها، لأنها ضعيفة، في حالة نقص وجودي، فهي لا تملك القدرة على تحديد ماهيتها أو ماهية أي شيء غيرها، مما دفع ديكارت للبحث عن الضامن لهذا اليقين، فكان لزاما تحديد ما هو كامل لا متناهٍ، مقابلا لهذه الأنا المتناهية.

ومن هذه اللحظة اكتشف ديكارت الذات المتعالية (الله) بوصفها الضامن لليقين الأول، والذي به اغتبيت الأنا، لأنها حددت الثابت الكلي الذي يمكن من خلاله للانا تحديد ما هو خارج عنها، فتفسر من خلاله كل الأشياء. فكما كان سيكون يبحث عن الصور أو الطبائع الأصل التي تفسر وجود كل شيء وجد ديكارت الأصل الذي يفسر كل شيء أيضا.

إن وجود العلة التي أوجدت كل شيء، وهي منفصلة عن الأنا والطبيعة، يجعلها مصدرا لكل معرفة يحوزها الإنسان، مصدرا لكل معنى، وهذه المعرفة وهذا المعنى بما أنه صادر عن كل كامل مطلقا، فهي ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، لأنها تسيّر بحسب قانون محدد مسبقا من قبل (الله)، هذا النظام المغلق لا يتسرب إليه الخطأ والشك، كما أنه يرفض قبول أي شيء لا يتسم بهذه الخاصية وهي الثبات.

١ - حديث الطريقة : ١٠٣.

٢ - تأملات ميتافيزيقة في الفلسفة الأولى: ٧٠.

الفصل الأول

وما يحدث في الطبيعة من تجاوز لهذا القانون الثابت، دليل على عدم انتسابه للعلّة الأولى، فهو خطأ، إنه فوضى.

من كان ملتزماً بما قدمته العلة الأولى، لن يتسرب إليه الخطأ، فالمعرفة العلمية الحقيقية ترعاها العلة الفاعلة، بل الخطاب العلمي بحسب ديكرت ضامنه الحقيقي هذه العلة.

إن اكتشاف الأنا، ومن بعدها العلة الفاعلة، ومن ثم كل شيء في الكون، هو دليل على وجود نظام محكم، يكون الإنسان فيه مجرد مكتشف، فهو يحاول جاهداً أن يطابق بين القانون البدهي اليقيني، والظواهر الطبيعية، فيكون الكون كله نظاماً مغلقاً، يخضع لعلاقات ضرورية متتابعة لا يشذ عنها أي عنصر في هذا الكون.

٣- إسحاق نيوتن: الكون نظام مغلق

رسم نيوتن حدود النسقية العلمية بما قدّمه من نظريات تمكنت من كشف أسرار الكون، وعلى الرغم من أنّ جهود نيوتن مبنية على ما قدّمه علماء آخرون، مثل كبلر وغاليليو، واستمر غيرهم من بعد نيوتن، إلا أنّ خصوصية نيوتن تتمثل في أنّه أيقونة العلم الحديث، بل أصبح نقطة فارقة في مجرى العلم، فالعلم قبل نيوتن شيء والعلم بعده شيء آخر.

وما يهمننا من هذا الكم الهائل من النظريات والاكتشافات، ما يهمننا هو مقولات حكمت خطاب (العلمية)، منها الكون نظام مغلق، والحتمية، والقدرة على التنبؤ، وهذه هي مكتشفات نيوتن، كما أنّها مركز نقضه، و نقض خطاب العلمية.

إنّ انغلاق الكون، والحتمية، والتنبؤ، هذه كلها تؤكد النموذج المعرفي الذي يؤسس لخطاب العلمية، فهي تمثّلات لهذا النموذج، هذا النموذج ينطلق من فكرة

الفصل الأول

اليقين الثابت والأبدي، والذي يأسس كل تخصص معرفي. ولا يشذُّ النقد الأدبي عن هذا النموذج المعرفي، فكانت النظرية النقدية بمجلها وليدة هذا الخطاب.

وعلى الطرف المقابل كانت نظرية الفوضى تتصاعد مقولاتها الواقعية مخلخة أركان هذا النموذج، ليؤسس لخطاب علمي مغاير، فتعاملت مع مفاهيم نيوتن الانغلاق والحتمية والتنبؤ بما يبين مكامن القصور فيها بل وعدم صدقها أصالة.

الكون : نظام مغلق

قدّم نيوتن الكون بوصفه آلة ميكانيكية محكمة الصنع، يسير بحسب تراتبٍ خطي متسلسل لعنصرين هما : المادة والحركة. أمّا المادة فقد " خلق الله في أول الأمر المادة على شكل جسيمات صلبة وقوية ولا يمكن اختراقها"^(١)، هذه الجسيمات لا يمكنها أن تتحرك أو أن تقنى من دون مؤثر خارجي، فنيوتن يفترض أن أصل كل شيء في الكون هو هذه الجسيمات، فهي جسيمات متسمة بالثبات، وهي مادة ليست فاعلة، بل هي منفعة، كما أنه يرى أن المادة والحركة منفصلتان، مؤكداً أن الحركة بعدّ خارجي يُسلط على المادة^(٢).

-
- ١ - المنهج في عصر ما بعد الحداثة: ويليام دول، نقله إلى العربية خالد بن عبد الرحمن العوض، نشر وطبع وتوزيع العبيكان، المملكة العربية السعودية-الرياض، ط١، ٢٠١٦: ١٢.
 - وينظر: العلم في منظوره الجديد: روبرت م. أغروس، جورج ن. ستانسيو، ترجمة د.كمال خليلي، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب-الكويت، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٣٤، ١٩٨٩: ١٩.
 - ٢ - ينظر: مدخل إلى فلسفة العلوم العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي: الدكتور محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ط٥، ٢٠٠٢: ٢٧٣.

الفصل الأول

من رؤيته للمادة وانفصال الحركة عنها، أسس قوانين الحركة والتمثلة في ثلاثيته الشهيرة^(١):

١- كل جسم يبقى في وضع السكون أو الحركة في خط مستقيم، ما لم يتأثر

بعامل خارجي يغيّر حالته الأولية، وهذا ما يسمى بـ(القصور الذاتي)

والذي يعني أنّ الجسم قاصر بذاته عن تغيير وضعه الأولي ولا بدّ من

وجود الفاعل المؤثر الخارجي. فالفاعل منفصل عن المادة والحركة.

٢- هناك تساوي بين نسبة التغيّر في العزم، مع مقدار القوة المفروضة من

الخارج، فيتوحد اتجاه العزم مع اتجاه القوة المؤثرة.

٣- لكل فعل ردّ فعل مساوٍ له في القوة ومعاكس في الاتجاه.

مثّلت هذه القوانين أو مبادئ الحركة، اللبنة الأولى لبناء نظرية نيوتن في

الجاذبية بفرضها العام " كلّ جسمين بينهما قوة تجاذب تتناسب طردياً مع كتلتيهما

وعكسياً مع مربع المسافة بينهما^(٢)، في الحقيقة وضع نيوتن صيغة قانونية -

رياضية تحكم كلّ حركة في هذا الكون^(٣)، فالكون انطولوجياً يأخذ تراتباً خطياً بحسب

نيوتن، فالعلة الأولى تصدر عنها الحركة المسلطة على المادة، فهناك مادة أولى

وفعل أول، تظهران الكون وكأنه آلة ميكانيكية لها مصدر قوة ومشغل خارجي، فإذا

تمكن الإنسان (العقل التجريبي) من تسيّد موقف الفاعل والمحرك، سيتحقق حلم

فرانسيس بيكون في السيطرة المطلقة للإنسان.

١ - ينظر: فلسفة العلم في القرن العشرين : ٧٩.

٢ - م . ن : ٧٩.

٣ - ينظر: م . ن : ٧٩.

الفصل الأول

ولمّا كانت المادة تتحرك في زمان ومكان مطلقين^(١)، وبما أنّ الميكانيكا هي العلم الذي يدرس حركة الأجسام، فلا بدّ إذاً من أنّ الكون آلة ميكانيكية.

إنّ تصور الكون على أنّه آلة ميكانيكية، يعني أنّه كونٌ منسجم، متنسق، بما يضمن له حركية مستقرة، فالآلة تتحرك بحسب قياسات محددة لا تخرج عنها، ومتى ما خرجت الآلة عن هذه المقاسات سقطت في الفوضى، كما أنّ الآلة تخدم غرضاً محدداً، فعليه تكون لها بداية محددة ونهاية محددة، وإذا ما لم تنسجم النهاية مع البداية تسمى هذه الحالة بالفوضى، ويقابل هذه الفوضى حتمية الكون^(٢).

تتبنى هذه الحتمية والآلية على فرض رئيس هو أنّ " نطاقا رياضيا متناسقا بسيطاً يتحكم بكل حركة^(٣)"، هذه المقولة التي التصقت بفكرة النظام : متناسق و بسيط، الأول مصدره حالة الانسجام المتولدة عن قانون المماثلة بين عناصر الكون، والبساطة التي تختزل تعقيد الطبيعي إلى رؤية تجريدية تُفقد الظاهرة طبيعتها. فكل ما يشدّ عن التناسق والبساطة، و يتصف بالاختلاف والتعقيد، يُعدّ فوضى.

أرجع نيوتن حركية الكون إلى نمط من الصياغة الرياضية، ذات التناسق والبساطة، فجعلت من حالة المماثلة " علاقات ضرورية"^(٤)، لا غنى للوجود عنها، وهذه الضروريات هي نفسها عند ديكارت والتي سمّاها بالبدهيات، إنها الحالة الخالية من كل تعقيد - بحسب نيوتن - ومن كل شكّ - بحسب ديكارت.

١ - ينظر: العلم في منظوره الجديد : ١٩.

٢ - ينظر: فلسفة العلم في القرن العشرين : ١٠٣.

٣ - المنهج في عصر ما بعد الحداثة : ٦٧.

٤ - المنهج في عصر ما بعد الحداثة: ٦٥.

الفصل الأول

ومن هذه الضروريات يضع نيوتن قواعد يسترشد بها العقل ليصل بها إلى اليقين، لأنه يعتقد، ومن دون دليل عقلي، أن "الحقيقة بسيطة يمكن مشاهدتها"^(١)، أمّا القواعد فهي^(٢):

١- يجب أن لا نقبل من الأسباب إلا تلك التي تبدو ضرورية لتفسير

الطبيعة . فالطبيعة لا تتصرف عبثاً، وسيكون مما لا فائدة فيه الأخذ

بعدد كبير من الأسباب عند تفسير ما يمكن تفسيره بأقل عدد منها .

٢- إن النتائج التي هي من نفس النوع يجب أن تعزى دوماً وكلما كان ذلك

ممكناً، لنفس السبب، وهكذا فتنفس الانسان وتنفس الحيوان، وسقوط

الحجر في أوروبا وسقوطه في أمريكا، وضوء النار هنا على الأرض

والضوء المنبعث من الشمس، وانعكاس الضوء على الأرض وانعكاسه

على الكواكب، كل ذلك يجب أن يعزى، بالتتابع، إلى نفس الأسباب .

٣- وإن الكيفيات التي تتصف بها الأشياء، ولا تقبل الزيادة ولا النقصان، و

نلاحظها في جميع الأجسام التي يمكننا التجريب عليها، يجب أن ينظر

إليها بوصفها كيفيات تعم جميع الأجسام على الجملة.

إنّ خصائص الأجسام وكيفياتها لا تعرف إلا بالتجربة، ويجب أن ننظر

إلى الكيفيات التي توجد في جميع الأجسام والتي لا تقبل النقصان، ككيفيات

عامة، لأنه من المستحيل تعرية الأجسام عن الخصائص التي لا يمكن

الانقاص منها. يجب أن لا تعارض التجارب بالأحلام، وأن لا نتخلى عن

المماثلة والمقايسة في الطبيعة، فهي بسيطة وماثلة لنفسها دوماً .

١ - م . ن : ٦٥ .

٢ - مدخل إلى فلسفة العلوم : ٢٧٢ .

الفصل الأول

٤- في الفلسفة التجريبية، أي الفيزياء، يجب النظر إلى القضايا المستخلصة من الظواهر، على الرغم من الفرضيات المضادة، كقضايا صحيحة تماماً، أو قريبة من الصحة، إلى أن تؤكد بعضها بعض الظواهر الأخرى تأكيداً تاماً، أو تكشف عن كونها موضوع استثناءات .

تُظهر لنا القاعدة الأولى أنّ ما يؤخذ بنظر الاعتبار السبب الرئيس المؤثر في النتيجة مُبعداً بذلك حزمة من الأسباب التي تهمل لأنها ثانوية وليست مباشرة، وهذا ما ترفضه نظرية الفوضى، لأنها -وبلحاظ الزمن- تعتقد بأهمية الأسباب التي يهملها الخطاب العلمي لثانويتها، وتؤسس لدراسة أثر هذه الأسباب في الامتداد الزمني.

ومن الأولى تشتق القاعدة الثانية وهي الثبات في التحقق، فإذا تكرر السبب في أي زمن تكررت النتيجة نفسها، من دون الالتفات إلى الزمان والمكان والثقافة وأثرهم في الظاهرة، وهي من أصدق صور انغلاق الكون أو لنقل آليته.

ما الطريق الذي يثبت لنا هذا التماثل الكوني؟ إنها التجربة، المنهج التجريبي الذي يعتمد الحسّ في تحقق المعرفة، وهذه التجريبية هي المؤدية إلى الحقيقة اليقينية عن كل شيء.

هذه قواعد نيوتن التي وضعها بوصفها نموذجاً إرشادياً، هي نفسها قواعد

ديكارت:

ديكارت	نيوتن
البدهي	الضروري
التجزئة لمعرفة الأسباب	تحديد السبب المباشر للنتيجة
المنهج الرياضي من البسيط إلى المعقد	تعميم المماثلة بين الظواهر

الفصل الأول

مراجعة ما سبق للتأكد من صحة النتائج	التجربة تثبت الحقيقة اليقينية
-------------------------------------	-------------------------------

إنّ تحديد البدهي والضروري هو تحديد لمركز ثابت تنطلق منه المعرفة الإنسانية، فالثابت المعرفي الذي لا يحتاج إلى دليل لبساطته ووضوحه كما في البداهة، ولانعدام الأثر لانعدام الضروري، هذا ما يسمّى باجتزار الرؤية الميتافيزيقية التي نقضتها مقولات الخطاب العلمي.

وهذا الخطاب على الرغم من إعلائه من شان العقل والإنسان، إلا أنه أسرف في عملية التقديس، فلو فرضنا أنّ الكون لا ينطلق من مركز ثابت، وأنّ الجسيمات التي يتكون منها الكون ليست ثابتة بل متغيرة - كما سيظهر مع تجربة هايزنبرغ - وأنّ الأسباب البسيطة التي تُهمل، لها أثر عظيم، ولو فرضنا أنّ هذه الأسباب البسيطة يمكن لها أنّ تشكل كوارث كبيرة وأحداث عظيمة، ويمكن إثبات هذا بالبعد التجريبي، تُرى كيف سيكون موقف الخطاب العلمي؟ هل يمكن له أنّ يغيّر من أسسه اليقينية؟.

الحتمية

لما كان الكون خاضعاً لمجموعة من العلاقات الضرورية، التي تحدد لنا قوانين تخضع لها حركة الأجسام، فُرِضت (الحتمية) مقولة رئيسة وسمت العلم الحديث، فهي مؤسسة بحسب قانون السبب والنتيجة، أو هي " القول بحدوث ظاهرة ما محددة بالضرورة من قبل عوامل وأسباب محددة في ظروف محددة، وإذا ما تحققت هذه الأسباب والعوامل حصلت هذه الظاهرة بالضرورة"⁽¹⁾، وهنا بنا حاجة لتحديد دقيق لكلمة (الضرورة) بحسب المنطق العلمي، فهي تعرّف بأنّها " ما لا

١- معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية: جلال الدين سعيد، دار الجنوب للنشر، تونس،

الفصل الأول

يمكن تصور عدمه^(١)، أو هي " الذي لا يمكنه أن لا يكون"^(٢)، فكل نتيجة سبب يرتبط بها برباط الضرورة، وهذا يرتبط بوحدة المأل لما في الكون الآلي، فإذا ما تكررت العوامل والظروف، لا بدّ إذاً من تكرر النتيجة نفسها مهما تغير الزمان المكان.

الاحتمية مقولة صنّفت الباحث والعالم والناقد بأنّه (مكتشف)، فعملهم يقتصر على مراقبة الظاهرة في أيّ مجال، وتحديد أسبابها الضرورية، وإذا حُدد السبب الرئيس، سهلت عملية السيطرة على الظاهرة، مما يعني تكرارها بحسب حاجة المكتشف. وعليه " أصبحت مهمّة العلم هي تحليل كلّ الظواهر وتحديد علة كلّ حدث، أمّا التسليم بحدث بغير علة فلا يعني إلاّ إنكار العلم به"^(٣)، وهذه الإشارة - عدم اعتراف العلم بما لا تُحدد علة - مهمّة، لأنها تكشف انغلاق التصور العلمي، فالظواهر التي لم تحدد أسبابها تُهمل، بل لا تُعدّ موضعاً يستحقّ الدرس، لأنها فوضى لا تخضع لمنطق الخطاب العلمي الحديث " إذا كان ... فإنّ ... دائماً طبيعاً"^(٤).

تضعنا الاحتمية في مواجهة مع جهلنا، كيف يكون ذلك؟، كما قلنا ينطلق الخطاب العلمي من مركز ثابت هو البدهي والضروري والسبب الرئيس، وعليه فنحن نبحث عن هذا الثابت دوماً، و يشاء الكون أن يضعنا قبالة مواقف لا نعرف ثابتها المحرّك لها، فهل نحن نجهل ثابتها، أو هل هي لا تملك ثابتاً يؤسسها؟، يقول أحد المناصرين والمطورين لنظريات نيوتن، وهو لابلاس، " إنّ جميع الحوادث، حتى تلك

١ - معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية: ٢٧١.

٢ - م . ن : ٢٧١.

٣ - فلسفة العلم في القرن العشرين : ١٠٢.

٤ - م . ن : ١٠٢.

الفصل الأول

التي تبدو لصغرها مستعصية على القوانين الطبيعية العامة، هي نتيجة ضرورية لهذه القوانين، مثلها في ذلك مثل حركة الشمس، غير أنّ جهلنا للروابط التي تشدّها إلى النظام الكوني العام قد جعلنا نعزوها إلى أسباب غائبة أو إلى الصدفة^(١)، يؤكد، لابلاس وريث نيوتن، على أهمية التماثل الكوني، فهو يفترض أنّ كل متحرك في الكون مهما كان صغيراً لا بدّ وأنه مماثل للشمس في حركتها، وهو مما لا دليل علمي يؤكده، هذا من جهة، كما أنّه يؤكد على أنّ كل حدث له سبب رئيس، ثابت، يضمن تكرار الحدث إذا ما تكرر، وهو ما تنقضة نظرية الفوضى بما تقدمه من ظواهر طبيعة لا تكرر نفسها، كما أنه علق الجهل على الذات، ولم يفترض أنّ الموضوع نفسه يمكن أنّ يكون خارج مقولة الثبات، وهذا ما تقدمه لنا تجربة هايزنبرغ، والتي تكشف أنّ للمادة الأولية حالتين متغايرتين في أصل وجودها، فالعلة في عدم اكتشاف السبب، هو متعلق بالمادة في أصلها متغيرة لا ثابتة.

ومن هذه المعارضة لفكرة الحتمية، تولدت الاحتمالية، صفة للموضوع، فلا علاقة للمراقب الخارجي بالظاهرة التي لا تتساق لمقولة الحتمية، تقول الخولي " مثلت قوانين الديناميكا الحرارية والنظرية الحركية للغازات والحركة البرونية، الثلاثة معاً، أزمة للفيزياء الكلاسيكية، من حيث كانت تمرداً وعصياناً لحتميتها العلمية ... الاحتمال ضرورة موضوعية تتفق مع الطبيعة الخاصة لهذه الظواهر، فهي في تغير دائم وحركة متواصلة عشوائية وغير منتظمة ... فليس الأمر عجزاً عن تحديد علل في الواقع، إنما هي وقائع موضوعية تختلف في طبيعتها عن وقائع الفيزياء

١ - مدخل إلى فلسفة العلوم : ٣٩٣.

الفصل الأول

الكلاسيكية"^(١)، وهو فارق رئيس تشير إليه المؤلفة، فإذا كان الموضوع مغاير للمنودج المنهجي، فلا بد له من رؤية منهجية مغايرة معرفياً.

التنبؤ

إنّ التنبؤ هو حلم فرانسيس بيكون الذي حققه نيوتن، فجعل الكون نظاماً مغلقاً، يؤدي إلى حتمية الظواهر فيه، وكلاهما يؤدي إلى القدرة على التنبؤ، بل إنّ معرفة القوانين التي تحكم الظواهر في الكون يؤدي إلى القدرة على معرفة مستقبل حدوثها، وكذلك القدرة على إنتاجها، إنتاج الظاهرة.

يقول لابلاس: " يجب أنّ ننظر للكون، إذن، إلى الحالة الراهنة للكون كنتيجة لحالته السابقة وكسبب لحالته اللاحقة"^(٢)، وهذا ترديد لما قاله نيوتن: " السبب نفسه سيؤدي إلى النتيجة نفسها دائماً" و " لنفس النتيجة الطبيعية ... ينبغي أن نحدد السبب نفسه" و " أنّ النتيجة نفسها تتبع دائماً السبب نفسه، التنبؤ هنا ليس مضموناً فقط، بل هو كامل، مطلق"^(٣)، والسبب في كل هذا هو الاعتقاد بأنّ كل ظاهرة يحكمها قانون، ثابت، مطلق، غير قابل للتغيير، ومعرفة هذا القانون تعني فرض سلطة العارف على الكون. فالكون يبقى على حاله من دون تغيير أو تبدل^(٤)، وهذا مغاير لما نعيشه الآن فالواقع يبيّن لنا أنّ فكرة وجود ثابت مطلق فيها نظر. فالكون، إذاً آلة نظامية مغلقة، حتمية، قابلة للتنبؤ.

١ - فلسفة العلم في القرن العشرين : ١١٢.

٢ - مدخل إلى فلسفة العلوم: ٣٩٤.

٣ - المنهج في عصر ما بعد الحداثة : ٦٨.

٤ - ينظر: فلسفة العلم في القرن العشرين : ١٠٤.

الفصل الأول

وبحسب ما تقدم نجد أنّ توافقاً أُسس بين بيكون وديكارت ونيوتن، حول نظامية الكون وظواهره، وهذا هو التصور اليقيني، وهذا التصور يكشف عمّا ظهرت فيه الفوضى، فتجلت برؤيتين:

الأولى : أنّ الفوضى هي اللانظام، فكل سلوك خارج عن منطق الخطاب العلمي هو سلوك فوضوي، الثانية: أنّ الكون محكوم بقانون المماثلة، مما يُهيء لنا قاعدة تفعيل الشبيه، فما يجري على الشمس يجري على أصغر جزء في الكون، وما كان خارج هذه المشابهة هو الفوضى.

أنّ جوهر فكرة النظام التي ارتكز عليها الخطاب العلمي قائمة على قانون المماثلة، وهو تجلٍ لحالة الثبات التي يشتغل بحسبها العقل، هذا يعني معرفياً، رفضاً قاطعاً لوجود أصل يقوم على التغيّر والاختلاف، فالمماثلة من خصائصها الانسجام والاستقرار التي يحاول أي نظام ديمومتها، أمّا التغيّر والاختلاف، فمن خصائصهما الاضطراب والعشوائية، ومنها تولدت المقابلة بين النظام والفوضى.

الفصل الأول

ثالثاً: نظرية الفوضى - الفوضى هي الأصل

١- ملامح ظهور نظرية الفوضى

لم تكن نظرية الفوضى نتاج جهدٍ علميٍّ لفردٍ ما، وفي حقلٍ معرفيٍّ معيّن، بل جاءت من توافقٍ لمقولاتٍ نظريةٍ مع وقائعٍ حدثت في ميادينٍ علميةٍ مختلفةٍ، فنجد الفلك، والرياضيات، والفيزياء، والأبرز بينهم حقل الإحصاء الجوي.

ومسلك البحث في هذه الوريقات أننا نبدأ من الوقائع التي برزت فكرة الفوضى في علوم متعددة، ومن ثمّ نقف على مقولاتها النظرية التي شكّلت قوام (نظرية الفوضى)، ومن بعدها نحدد حالة التعارض بين مقولاتها - أي الفوضى - ومقولات النسق العلمي الذي نقضته.

ولقد اخترنا (تمثّل) لأنّها تشي بحالة الفكرة الموحدة التي ترتبط بها وقائع مختلفة، على الرغم من أنّ كلمة (تجلي) هي الأقرب؛ لأنّ الظواهر جميعها شكّلت حالة من اللاتوقع، فكانت الوقائع تتجلى منها مقولات نظرية الفوضى، وهي مقولات غير محسوبة بمنطق النسق العلمي وخطابه، مما أظهر حالة الدّهشة والصدمة عند بعض علماء هذه النظرية، ولعلّ خير ممثل لحالة الدّهشة هو بوانكاريه، وهو من سيتصدر التمثّلات - التجلي.

مشكلة الأجسام الثلاثة - هنري بوانكاريه*

يُعدُّ هنري بوانكاريه أباً لنظرية الفوضى؛ لأنّه اكتشف أنّ أثر الاختلافات الطفيفة في شروط الحالة البدئية للظواهر الطبيعية يؤدي إلى أحداث كبيرة لا تتناسب وهذه الحالة البدئية.

* عالم رياضيات وفيزياء نظرية يعد من فلاسفة العلوم فرنسي الأصل.

الفصل الأول

تبدأ أبوة بوانكاريه من تحديده لخطأ وقع هو فيه في مسابقة علمية، ففي نهاية الثمانينات من القرن التاسع عشر أُعلن عن جائزة بمناسبة عيد الميلاد الستيني لملك السويد أوسكار الثاني، تُقدم يوم ٢١ يناير من عام ١٨٨٩م، وقد وضعت على صورة أربع مسائل رياضية اختيارية، وضعها الرياضي الألماني كارل فيرشتراس^(١)، وكانت المسألة الرابعة متعلقة بالنظام الشمسي، وهي من اشتغل عليها بوانكاريه، وطُرحت بصيغة سؤال مباشر نصه "هل المنظومة الشمسية مستقرة أم لا؟"^(٢)، وفكرة الاستقرار هي مولود الخطاب العلمي الذي أرسى صورته الرئيسة نيوتن، فالضامن للنظام هو حالة الاستقرار التي يعيشها النظام، ولتوضيح فكرة الاستقرار تُقدّم تجربة الصندوق فكرة أولية عن الاستقرار: "ما الذي نعنيه بكلمة استقرار؟، أفضل طريقة لفهم ذلك هي تصور صندوق فوق منضدة، فتقل الصندوق يضغط على المنضدة إلى الأسفل، ويقابله ردّ فعل من المنضدة على الصندوق للأعلى، كلتا القوتين متساويتان في المقدار ومتضادتان في الاتجاه، فهما إذا متعادلتان والنظام كله مستقر"^(٣)، هذا ما تُقرّه فيزياء نيوتن، وتعممه على كل ظاهرة في هذا الكون، وهذا ما دفع الباحثين إلى افتراض سؤال يسحب بساط التعميم النيوتني، هل الكون كله خاضع لهذا الاستقرار؟، ماذا سيحدث لو وضعنا الصندوق على إحدى زواياه؟، فهل تتساوى قوة ضغط الصندوق مع ضغط المنضدة؟، ماذا لو اختلفت القوى ولم تكن متعادلة؟ ما الذي سيحدث؟، في الحقيقة لا يمكن معرفة الاتجاه الذي سيسقط إليه الصندوق، فلا وجود للتوازن بين القوى، وهذا تحديداً ما

١- الهيلولية في الكون التعقيد المذهل للكون: باري باركر، ترجمة علي يوسف علي، المشروع القومي للترجمة، نشر المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢ : ٥٦.

٢- الهيلولية في الكون : ٥٦. وكذلك : فلسفة الفوضى رؤية مستقبلية لتوظيف نظرية الفوضى في فلسفة العلوم : ٥٢.

٣- م . ن : ٥٦.

الفصل الأول

يخلخل فكرة الاستقرار في الكون كله، إذ عدم معرفة، أو (عدم القدرة على تنبؤ) ما سيؤول إليه الصندوق هي النتيجة الحتمية.

بحث بوانكاريه قضية الاستقرار فيما يعرف بقضية الأجسام الثلاثة، وهو تبسيط للنظام الشمسي، فاكتشفه استقرار وثبات النظام بدراسة العلاقة بين ثلاثة عناصر هي: (الشمس، القمر، الأرض)، وفي ضوء المعطيات الأولية المتعلقة بسرعة وحجم وموضع هذه الأجسام، منها يُحدد مسار كل جسم من الأجسام الثلاثة.

عمد بوانكاريه إلى وضع مقطع عمودي على الرسم الهندسي لتحديد نقاط مسار كل جسم في حركته، وجد أنّ مسارات محددة تمر بها هذه الأجسام، مما يجعلها تسير بشكل دوري، فكل نقطة على المقطع يمر بها الجسم ويكرر هذا المرور^(١)، وقد حصل على الجائزة لأنها كشف عن هذا الاستقرار في النظام الشمسي.

وعند طباعة البحث المكون من ٢٠٠ ورقة، لاحظ (إدوارد فراجمان) وجود مشكلة جوهرية في البحث^(٢)، فأعيد البحث إلى بوانكاريه ونظر في الرسم التوضيحي لمسارات الأجسام، فوجد "مقاطع فضاء الطور خاصة في المناطق التي لم تظهر بها دورية خالصة. في مثل هذه الحالة لن تكون النقاط متكررة، فماذا تكون عليه حالتها إذن، سوف تنتشر بعد عدة خطوات قلائل متبعثرة في شتى الاتجاهات. وهذا ما حدث، لقد بدأ الشكل يتخذ هيئة غريبة المنظر، بعض المناطق مكدسة بالنقاط، وبعضها الآخر خالٍ تماماً منها ... وبالتالي لا يمكن التنبؤ به في المستقبل للبعيد،

١ - ينظر: الهيولية في الكون: ٥٩.

٢ - ينظر: م. ن. : ٦٠.

الفصل الأول

إنّ مضمون العملية أنّ النقاط لا تتقارب بل تتباعد^(١)، وهذا يعني أنّ حركة الأجسام الثلاثة حركة غير دورية، غير تكرارية، وهذا ما جعله - بوانكاريه - يؤكد أنّ "قوانين نيوتن لا تقدم أي حلّ لـ (مشكلة الأجسام الثلاثة) أو السلوك الانجذابي والمداري للأجسام، أي كيفية التنبؤ بحركات الشمس والأرض والقمر"^(٢)، فالنظام الشمس غير مستقر، وهو من أكثر الأنظمة المشاهدة حسياً وتظهر استقراراً، وهذا ما يناقض أو ينقض فكرة الاستقرار النيوتني.

ولكن، كيف ظهر عدم الاستقرار؟، ببساطة لوجود اختلافات بسيطة في الشروط الابتدائية، هذه الاختلافات الطفيفة تتراكم مما يؤدي إلى سلوك غير متوقع.

والأصل في فلسفة نيوتن، أنّ المتغيرات البسيطة والصغيرة تُهمل ولا تدخل في معادلات النظام، فقد ركّزت على أنّ المقدمات الأولية والشروط الابتدائية كل زيادة فيها، تقابلها نتائج تكون فيها الزيادة نفسها، هذا يعني أنّ التغيّر الكبير أو الصغير في المقدمات نجده بالمقدار نفسه حاضراً في النتائج، والمشكل الذي واجه بوانكاريه هو أنّ النتائج كانت أكثر من الشروط الابتدائية في المقدمات، فكأنما تتعاضم هذه المتغيرات في الامتداد الزمني، مما ينتج عنه سلوكاً غير متوقع، لا بل يكون أعظم من مقدماته.

ويشير بوانكاريه إلى أمرٍ مهم هو "إنّ سببا صغيرا، لا تأخذه في الاعتبار، يحدد أثرا ملموسا لا نستطيع التغاضي عنه وهكذا نقول: إنّ هذا الأثر سببه الصدفة"^(٣)، ومن ثمّ يوضح هذه الصدفة بقوله: " لماذا يجد علماء الإرصاء الجوية

١ - الهيولية في الكون : ٦٠.

٢ - فلسفة الفوضى رؤية مستقبلية لتوظيف نظرية الفوضى في فلسفة العلوم : ٥٢.

٣ - م . ن : ٥٢.

الفصل الأول

صعوبة في التنبؤ بالزمن بدقة كافية؟ لماذا تسقط الأمطار، وتأتي الزوابع، كما تري بالصدفة، حتى يرى بعض الناس أنه من الطبيعي أن يصلوا من أجل الأمطار أو الجو الصحو؟ ويحكموا على فكرة الصلاة للخسوف بالشيء الهزلي؟ وترى أن الاضطرابات الكبرى تتولد عموماً في مناطق يكون الجو فيها في توازن غير مستقر، سوف تتولد زوبعة في مكان ما؛ ولكن ليس العلماء في موضع يؤهلهم لذلك؛ بسبب عشر درجة بزيادة أو نقصان في نقطة ما، ينطلق الإعصار هنا وليس هناك ... ولو كنا نعرف هذه الدرجة العشر لاستطعنا أن نتنبأ للأمام، ولكن الرصد لم يكن محكماً، أو دقيقاً، مما يؤدي كل ذلك، إلى دخول الصدفة^(١)، يؤسس بوانكاريه لمفهوم الصدفة، بأنه ناتج عن جهل منا، وما الصدفة إلا القول بوجود حالة الفوضى، وهذا تحديداً مخالف لمقولات الخطاب العلمي، فهو يؤكد أن المتغيرات البسيطة والتي تهمل علمياً، تؤثر في النتائج، وهذا التأثير كبير جداً، ويسبب جهل العلماء بهذه المتغيرات الصغيرة ولدت الصدفة، فهو جهل بكيفية حدوث الظاهرة هنا والآن وليس هناك.

نستنتج من جهد بوانكاريه أن النظام - أي نظام - لا يمتلك استقراراً، والسبب في ذلك وجود تغيرات طفيفة لا يلتفت إليها، هذه الحالة أسماها العلم بالصدفة، هي جزء من نظرية الفوضى، والتي تجعل غياب كلاً من الحقيقة والمعنى جزء من أسسها النظرية والعملية.

كذلك أكد على أهمية المتغيرات الطفيفة في إحداث آثار عظيمة - وهو ما سيبرهن عليه إدوارد لورنز في الإحصاء الجوي بشكل أوضح - مع تقدم الزمن.

١ - ما الكون؟: إشراف إيف ميشو، تُرجم في قسم الترجمة في السفارة الفرنسية في مصر، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٦: ٤/٨٧٢.

الفصل الأول

وعاينا أنّ نلتفت إلى قوله بامتلاكنا جزءًا من الأشياء، لا كلها، لوجود العنصر الغائب في كل ظاهرة، وهنا يعطينا الأسّ الرئيس الذي يشرح مركزية العقل في الخطاب العلمي، فما يتوصل إليه لا يتسم بالشمولية، إنّهُ خلخلة للتعميم التجريبي، ضرب للمطلق.

مبدأ اللايقين - هايزنبرغ

قدّم الخطاب العلمي أسسه في الرصد والتنبؤ بمستقبل الظواهر والأشياء، وأهمّ هذه الأسس هو أنّ كشف المستقبل مرهون بما يُسجل من تحديد لحالة الظاهرة البدئية، ويكون ذلك برصد ثلاثة عناصر، فإذا علمنا (موقع، وسرعة، واتجاه حركة) الشيء تمكّنّا من تحديد حالته الماضية والمستقبلية، فالكون حتميّ التحرك لا يشدّ فيه عن النظام شيء.

يقدم لنا هايزنبرغ صورة عملية، تجريبية، ينقض فيها (حتمية) النظام، مما جعل لتجربته أثرًا في الخطاب العلمي السائد، فتغيّرت، بل هُدمت أهمّ أركانه (الموضوعية).

تتلخص تجربة هايزنبرغ بمحاولته تحديد حالة بدئية لجسيم - الالكتران وهو جزء من الذرة - حتّى يتمكن من الكشف عن حالته في المستقبل، التنبؤ بما سيكون عليه، ولتحقيق ذلك يجب تحديد موقع، وسرعة، واتجاه حركة، الالكتران، وقياسا على قواعد الخطاب العلمي يمكن تحديد هذه العناصر ويمكن أيضا رؤية مستقبل هذا الجسيم.

والأصل في فكرة التنبؤ، التي يؤسس لها الخطاب العلمي، هو وجود فكرة رئيسة عن الزمان والمكان، فكلاهما يعدّان (متصلين) فكل جسم متحرك يوجد في موضع مكاني، ويتحرك في امتداد زمني محدد أيضا، هذا الاتصال يجعله مركزا

الفصل الأول

ثابتا تقاس حركة الأجسام فيه بالنسبة إليه، فإذا حددنا لحظة بدئية لجسيم ما في هذا المكان والزمان المتصل، استطعنا أن نرصد حركة هذا الجسيم وموقعه بعد ملايين السنين، لأنّ المركز ثابت، أي ما تقاس بالنسبة له الأشياء^(١).

يحدد هايزنبرغ العناصر الثلاثة للجسيم بتسليط ضوء على الجسيم، ولحظة التقاء الضوء بالجسيم تحدث المفاجأة، " إذ في اللحظة التي يسجل فيها مكانه تتغير سرعته... وفي اللحظة التي يحاول فيها تسجيل سرعته يتغير مكانه، لأنّ اطلاق الضوء عليه لرؤيته ينقله من مكانه ويغير من سرعته"^(٢)، وهذا يعني أننا لا نملك معرفة كاملة عن هذا الجسيم الذي يؤسس للذرة، وهي بدورها وحدة الكون الصغرى، فهناك، وبشكل دائم، شيء لانعرفه، هناك غياب حاضر دوما في معرفتنا.

تضعنا فكرة هايزنبرغ أمام مقولة الغياب، فظاهرة اللايقين " ترجع... إلى الحاجز الذي يحجب الإنسان عن معرفة الكون وطبيعته"^(٣)، إنّ هذه المفارقة في تحديد مقدار المعرفة تجعل أصل معرفتنا هو عدم امتلاكنا معرفة (كلية)، فيحضر الاحتمال بدلا من الحتمية، فلم نعد نمتلك القدرة على تحديد اللحظة البدئية التي يتأسس عليها التنبؤ في الخطاب العلمي، وكلما حاولنا التأكد سقطنا في الخطأ، إنّ "محاولة زيادة التدقيق في جانب منها تؤدي حتما، إلى زيادة الابهام واللايقين من جانب آخر. فنحن لا يمكننا التحدث سوى عن احتمال وليس عن يقين، ونفس

١- ينظر: فلسفة العلم المعاصرة ومفهومها للواقع: سالم يفوت، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٦ : ٦٣.

٢- نحو فلسفة علوم الطبيعة النظريات الذرية والكوانتم والنسبية: دكتور عبد الفتاح مصطفى غنيمه، سلسلة تبسيط العلوم : ٩٣.

٣- م . ن : ٩٣.

الفصل الأول

الشيء بالنسبة للزمان"^(١)، أنّ تجربة هايزنبرغ وضعت اليقين العلمي الجزمي موضع الشك، إذ " إنّ مبدا هايزنبرغ يقول : بأنه لا يمكن وصف أيّة أحداث ولا حتّى الأحداث الذرية بيقين"^(٢).

وهذا يقارب إجابة بوانكاريه عن سؤال الجائزة : هل النظام الشمسي مستقر؟، أنّ وجه المقاربة وصول العالمين إلى أنّ الأصل هو عدم الاستقرار، والسبب وجود جانب مخفي بل غائب عنّا، نحن المراقبون.

إنّ تجربة مبدأ اللاتيقين وضعنا في مواجهة مبدأ الموضوعية، فالأخيرة ملازمة للخطاب العلمي، وفكرتها المركزية أنّ العلم يستطيع " دراسة الأشياء الموضوعية للدرس، ومعرفة صفاتها وخواصها، دون أن يؤدي ذلك إلى أن تكون نتائج الدراسة العلمية مرتبطة أو متعلقة بالعالم المُجرب، أو بالمنهج الذي اتبعه في دراسته، فدرجة الحرارة التي يقيسها العالم المُجرب بالحرّ (الثرموتر) مستقلة عن أداة القياس وعن العالم المُجرب..."^(٣)، ويؤكد سالم يفوت هذه الفكرة بقوله " فالعلم يكون موضوعيا بقدر ما يعكس الظاهرة المدروسة كما هي عليه في الواقع، كما أنّ نقطة البداية في العلم كانت هي الواقع، إنّهُ هو ما ينبغي أن يُتخذ بداية للدراسة لمعرفة صفاته وخواصه، والموضوعية إذن كانت تقتضي الواقعية، وتقوم عليها، فتكون نتائج العلم ذات قيمة مطلقة ونهائية إذا أبرزت بصورة حقيقية وواقعية صفات وخواص الأجسام المدروسة"^(٤)، لقد ذكرنا أنّ العقل الذي يصدره الخطاب العلمي هو كاشف، أو لنقل

١ - فلسفة العلم المعاصرة ومفهومها للواقع : ٧٣.

٢ - نحو فلسفة علوم الطبيعة النظريات الذرية والكوانتم والنسبية : ٩٣.

٣ - فلسفة العلم المعاصرة ومفهومها للواقع : ٦٤.

٤ - م . ن : ٦٤.

الفصل الأول

عاكس، وهذا ما ذكره سالم يفوت عن العلم، فالعالم الواقعي منعزل عن العقل الإنساني، لا يوجد بينهما بعدا تفاعليا.

وعلى النقيض من هذا التوجه الموضوعي، تبرز الذاتية مقولة أصيلة، والتي تُحدد بواسطتها العلاقة بين الإنسان والعالم.

ما الذي نقصده بالذاتية؟ تجيب عن ذلك مدرسة كوبنهاجن، والتي يُعدّ هايزنبرغ أحد روادها، والمراد من الذاتية " أنّ عدم خضوع الجسيمات الأولية للتحديد الدقيق كما كشف عنه مبدأ اللايقين يرجع فيه إلى تداخل الآت القياس تدخلا يجعل من الصعب الفصل في نتائج القياس بين ما يعود إلى الموضوع المُلاحظ، وما يرجع إلى عملية القياس وأدواته"^(١)، وكذلك أكدت المدرسة على " تداخل أدوات القياس مع الظاهرة العلمية، وأنّ عملية القياس تُعدّ تأثيرا ذاتيا، أو انعكاسا إنسانيا على الطبيعة الخارجية، بشكل يثير اضطرابا في العملية الفيزيائية ويجعل قياساتنا غير يقينية"^(٢)، تشير نصوص مدرسة كوبنهاجن إلى حالة تفاعلية بين الإنسان والظاهرة المراد دراستها، بل إنّ ما يظهر له من ملاحظات هو بتأثير حضوره، مما يعني أنّ حضورك وما فيه من طاقة يؤثر في الظاهرة المرصودة.

ومصدر هذه الذاتية هو الالكترون نفسه، فهو عند الرصد مرة يُرصد على أنّه جسيم مادي، ومرة يكون موجة لا مادة لها^(٣)، فالوجود في العناصر المكوّنة لهذا

١ - مبدأ اللايقين عند هايزنبرغ بين ذاتية كوبنهاجن وموضوعية أينشتاين: الدكتور محمود محمد علي محمد، دار الوفاق للطباعة والنشر بأسبوط، ط١، ٢٠١٠: ١٨.

٢ - م . ن : ١٩ .

٣ - ينظر : فلسفة العلم المعاصرة ومفهومها للواقع : ١٣٤ .

الفصل الأول

الكون في أصلها ثنائية الكينونة، فلا وجود لجوهر فرداني، هذه الثنائية قائمة على علاقة التضاد، فالمادة ضدها الموجة.

نخلص من هذا إلى أنّ بوانكاريه حدد لنا أنّ عدم الاستقرار صفة للنظام، وهايزنبرغ دعم هذه الفكرة بمبدأ اللايقين والذاتية، واللذان يعتمدان على الأصل الثنائي.

٢- التأسيس لفوضوية الظواهر الطبيعية

نظرية الفوضى علم جديد - رؤية جديدة

أثر جناح الفراشة

إدوارد لورنز* هو من أطلق عبارة "أثر رفة جناح الفراشة" في ميدان اشتغاله العلمي - الطقس الجوي، يعمل لورنز في مركز الإرساد الجوي في أميركا (معهد ماساشوستس للتقنية).

اخترع لورنز كومبيوتر خاصا للتنبؤ بحالة الطقس الجوي، مستعملا " ١٢ قانونا، ويتشكل كل قانون من معادلات رياضية تُعبّر عن العلاقة بين الحرارة والضغط وبين الضغط وسرعة الرياح"^(١)، منطلقا من القاعدة المعرفية التي أسسها نيوتن وهي أنّ كل شيء يسير بحسب صيغة رياضية قانونية، إذا ما كشفت هذه الصيغة، وكررت، سنجد أنّ السلوك الناتج عنها سيتكرر نفسه من دون تغيير، فـ" تكرر الأشياء نفسها بانتظام ثابت"^(٢)، وبحسب هذه العملية كانت النتائج التي تنبأ بها كومبيوتر لورنز مرضية له، فهي قاربت الحقيقة الواقعية للطقس، ولكن لورنز

* عالم رياضيات وإرساد جوي ولد في ٢٣ مايو ١٩١٧ وتوفي في ١٦ ابريل ٢٠٠٨.

١ - نظرية الفوضى علم اللامتوقع: ٢٦.

٢ - م . ن : ٢٦.

الفصل الأول

لفت ذهنه شيء يرافق نتائجه بشكل دائم، فقد وجد أنّ " التكرارات لا تأتي على الشكل نفسه كلياً، يُجد نمط ولكن مع اضطراب، إنّ نظام اللانظام"^(١)، وهنا غير لورنز من تعامله مع البيانات، فمثل ما يقدمه الكمبيوتر من أرقام على شكل رسوم بيانية، خطوط متأرجحة لها قمة وقاع، تتردد بينها حركة الرياح^(٢)، تظهر هذه الأرجحة على شكل " دورات وكأنّها تتكرر مرة تلو المرة، لكنّها لا تتطابق مع نفسها ألبتة"^(٣)، هذا يعني أنّ المعادلات الثابتة لا تنتج رسوماً بيانية ثابتة، فالأشكال تتغير على الرغم من تكرارها متخذة شكلاً دورياً.

وكل رسم بياني يمثل نمطاً معيناً يقابله في الواقع طواهر طقسية محددة، أراد لورنز أن يتتبع نمطاً من هذه الأنماط، في مدة زمنية أكبر من حالة النمط الأولى، فعمل على إعادة كتابة المعادلات الخاصة بهذا النمط في الكمبيوتر المخصص للتنبؤ، ف" أدخل بنفسه المعطيات عن الأوضاع الأولية... مستخدماً لوحة المفاتيح في طباعة الأرقام، التي تمثّل الأوضاع الأولية، التي يجب على الكمبيوتر درسها، والتنبؤ بالطقس اللاحق"^(٤)، ومبدئياً هذا النمط له رسم بياني يوافقته حصل عليه لورنز من جهازه، وبحسب الفكر العلمي السائد، فإنّ إعادة قراءة النمط في الكمبيوتر تُنتج وتكرر الرسم البياني نفسه، وهذا ما لم يحدث، فعلى الرغم من أنّ المعطيات الأولية، وهي الحالة البدئية في لحظة زمنية معينة، كانت واحدة، إلا أنّ النتائج كانت مختلفة.

١ - م . ن : ٣٠ .

٢ - ينظر : نظرية الفوضى علم اللامتوقع : ٣٠ .

٣ - م . ن : ٣٠ .

٤ - م . ن : ٣٠ .

الفصل الأول

والمشكلة في الأصل أنّ الخطاب العلمي يجنح إلى التقريب، بمعنى أنّه لا يلتفت إلى التغيّرات البسيطة التي تحدث، وهذه المتغيّرات لا تُحدث فرقا في النتائج، وما فعله لورنز هو إدخاله لأرقام المعطيات الأولية بحسب فكرة التقريب، فأدخل ثلاثة أرقام بدلا من ستة أرقام بعد الفاصلة للنمط المختار^(١).

فحذف جزءا بسيطا - البساطة صفة يؤكدّها الخطاب العلمي - من المعطيات الأولية " فما أدخله لورنز هو الأرقام التقريبية، التي تمثل أحوال الطقس، ظنا منه أنّ الفرق هينٌ، ومقداره كسر من الألف"^(٢). ولكنّ الكمبيوتر لم يكرر النمط، بل تأثر بحالة الحذف البسيطة.

معادلات لورنز من صنف المعادلات الحتمية وفيها أيّ تغيّر بسيط في المعطيات الأولية ينتج عنه تغيّر بسيط أيضا في النتائج، إلا أنّ تجربة لورنز أثبتت أنّ " التغيّرات البسيطة وغير الملحوظة [أدت] إلى نتائج كارثية"^(٣).

حاول لورنز أن يجمع بين النمطين في رسم بياني موحد ليُشاهد الفرق بينهما، فوجد أنّهما يؤولان إلى حالة من الاختلاف العجيبة، وهنا أدرك لورنز أنّ عدم الحتمية فيما ينتجه الكمبيوتر أصبح مقاربا لما يحدث في الواقع، إذ البحث عن توقع للطقس في مدة زمنية طويلة أمر غير حتمي، بل هو غير قابل للتحقق^(٤).

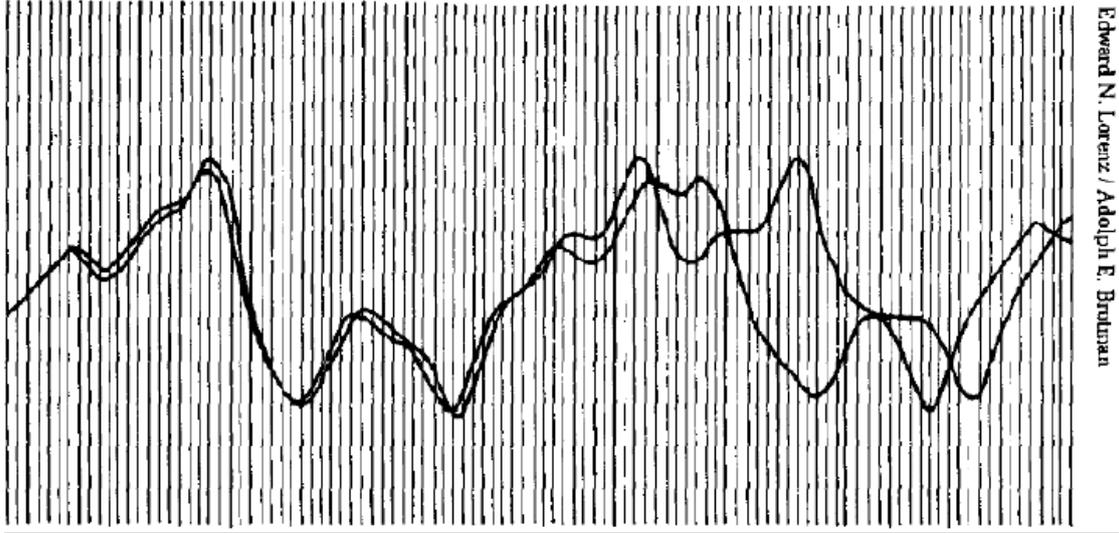
١ - ينظر: نظرية الفوضى علم اللامتوقع: ٣١.

٢ - م . ن : ٣١.

٣ - م . ن : ٣٢.

٤ - ينظر: م . ن : ٣٢.

الفصل الأول



سئل لورنز عن الاختلاف بين الحوادث الطبيعية التي يمكن التنبؤ بها مثل المدّ والجزر وبين الطقس الذي ينفلت من هذه التنبؤية؟ فأجاب " أعتقد بأن السبب هو أنّ المد والجزر يتضمن قسما دوريا قابلا للتنبؤ أمّا الشيء غير القابل للتنبؤ فإنّه صغير بحيث لا يثير الكثير من الانتباه إلاّ عندما يصبح لافتا، مثل هبوب عاصفة مفاجئة، بالنسبة للطقس فإنّ القسم غير القابل للتنبؤ هو الأكبر"^(١).

نقاط عدم الاستقرار - الفوضى في كل شيء

كان همّ العلماء السيطرة على الطبيعة، لذلك حاولوا محاكاتها في ميدان الطقس الجوي، وتمثّل ذلك بتحديد نقاط لا تتسم بالاستقرار، بمعنى، أنّها متغيّرة، وتغيّرها يصاحبه نتائج لها آثار كبيرة، وغير متوقعة.

تزامن مع هذه المحاولات تطور الحاسوب، فكان هو البيئة الجديدة لإجراء عمليات حسابية تتجاوز ما قدّمه كومبيوتر لورنز في التنبؤ.

كان الهدف الذي يطمح العلماء إلى تحقيقه هو التنبؤ بالمستقبل، على مستوى الطقس وأحواله، لمدة أطول مما كان عليه التنبؤ. ومن بين هؤلاء العلماء

١ - نظرية الفوضى علم اللامتوقع: ٣٣.

الفصل الأول

كان (فون نيومان) أحرصهم على تطويع الطقس، لكنّه " لم ينتبه إلى الفوضى، حيث عدم الاستقرار منتشر في كل نقطة من النظام"^(١)، وهذه المقولة مهمة جدا، لأنّها تُخرج الفوضى من دائرة السلوك الشاذ الذي وصفها به الخطاب العلمي الحديث، فظواهر الكون المتسمة بعدم الاستقرار أكثر حضورا من الظواهر الكون المستقرة، فضلا عن حضور الفوضى في كل عنصر يدخل في تشكيل النظام، فهي ليست حالة من حالات الخطأ، بل حالة كينونة وجودية، وهذا ما أشار إليه جاك دريدا في مقاربتة للنظم، وتحديدًا العلامة، فقد أظهر فيها مستوى من عدم الاستقرار والعشوائية لا يمكن حسابه، مما يجعل المعنى في حالة إرجاء مستمر.

لقد افترض العلماء " أنّ الفوارق الصغيرة جدا لا تتسبب إلا بفروق صغيرة، فلا ينمّ عنها تغيرات نوعية في سلوك النظام"^(٢)، وهذا ما لا يتوافق مع نقاط عدم الاستقرار المنتشرة في كل جزء، وهذه النقاط مستمرة في وجودها، وهي قابلة للمضاعفة مما يجعل النتائج غير متطابقة مع البدايات، هذا يعني أنّ هناك فرقا بين المقدمات والنتائج، وهي الأصل في مخالفة نظرية الفوضى لمعطيات الخطاب العلمي، فالحقيقة الموضوعية أمر مستحيل، والذي يعني المطابقة، وهو ما بيّنه هايزنبرغ، فلحضور الذات أثر ينقض المطابقة.

ومن هذه المخالفة، صرّح لورنز بجملته المجازية (أثر رفة جناح الفراشة)، والذي يعني " تستطيع عناصر صغيرة نسبيا من الطقس أن تفقد أفضل التنبؤات عن المناخ قيمتها، إذ تتضاعف الأخطاء والأشياء غير المتوقعة، وتتجمع آثارها وتتعاقد عبر سلسلة من الاضطرابات، لتتحول من عناصر محلية صغيرة إلى

١ - نظرية الفوضى علم اللامتوقع: ٣٤.

٢ - م . ن : ٦٤.

الفصل الأول

حراك يشمل القارات"^(١)، ولذلك قال أنّ رفة جناح فراشة في البرازيل يحدث إعصارا في لوس أنجلوس، وهو تمثيل لحالة التّرك والإهمال لمؤثرات يُعتقد أنّها لا تؤثر في الحدث الكلي، فرفرفة جناح الفراشة لا يُحسب لها حساب، فلا تؤثر على الطقس، ولكنّ استمرارها يمكن أن يحدث إعصارا.

يقول لورنز " لو غطيت الأرض بالمجسّات التي لا يبعد بعضها عن بعض سوى مسافة قدم، ولو كُدّست بشكل مماثل عبر الغلاف الجوي، وحتّى لو أعطى كل مجس قياسات دقيقة عن الحرارة والرطوبة والضغط وغيرها، ثمّ تولى سوبر كومبيوتر جمع تلك المعطيات كلها، فإنّه لن يفلح في توقع إذا ما كانت بلدة برنستون في نيوجرسي ستشهد صباحا مشمسا أم مطرا، بعد شهر من الآن؟!، فعند الظهرية ستُخفي المسافات الصغيرة بين المجسّات بعض التقلبات البسيطة وبذا لن يعلم بها الكومبيوتر، وبعد دقيقة تصبح تلك التقلبات أخطاء صغيرة على مسافة قدم، وسرعان ما تتضاعف تلك الأخطاء على كل عشر أقدام، وهكذا دواليك"^(٢).

يهدم النص المتقدم الحتميّة لأنها مقولة العلم المؤسس على آليتي الاختزال والتبسيط، فضلا عن التكرار الذي يمثل إطارا لكل نظام، فالأشياء والظواهر عندما يتخذها الخطاب العلمي موضوعا للدراسة، يتحرك نحوها للكشف عن قانونها، وذلك بالتخلص مما كان متغيّرا ورصد ما هو ثابت، بواسطة الاختزال والتبسيط، ومن ثمّ تأتي فكرة التكرار التي تتحقق بعد اكتشاف القانون، فإذا أعدنا الظروف الاوليّة للظاهرة يمكن لها أن تتكرر بنفسها من دون تغير يُذكر.

١ - نظرية الفوضى علم اللامتوقع: ٣٧.

٢ - م . ن : ٣٧.

الفصل الأول

أمّا لورنز يؤكد على أنّ التبسيط والاختزال يُسقط من حساباتنا ما هو متغيّر، وهذا الإسقاط يعني أنّ هناك شيئاً غير محسوب دوماً في قراءتنا، وهذه الحالة هي التي بشرت بالفوضى، والتي تسعى من جهة أولى إلى لفت النظر إلى أنّ الحقيقة فيها شيء غير ظاهر، وهذه ما يخص المراقب الخارجي، ومن جهة ثانية، تؤكد أنّ الأصل في الأشياء والظواهر وجودها الثنائي المتضاد.

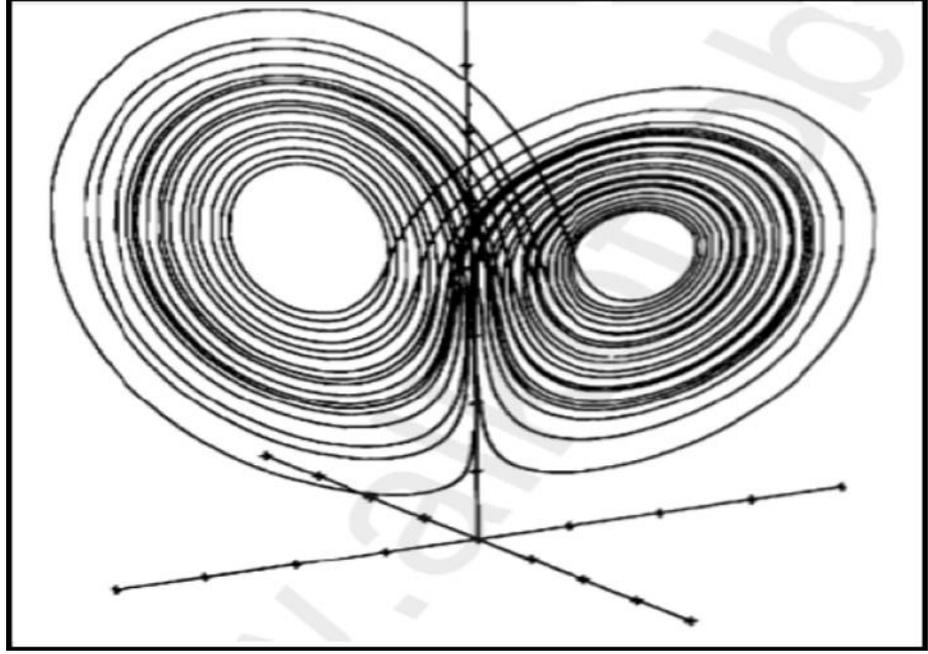
ولذلك وبحسب هذه المعطيات فإنّ حلم السيطرة على الطبيعة أصبح مجرد رغبة غير متحققة، أو هي الحلم الذي راود رواد الخطاب العلمي.

إنّ الفوضى تعطي الإنسان طابع التفاعل لا الانفعال في تعامله مع الطبيعة وظواهرها، فهو متصل بها لا متسلط ومنفصل عنها، جزء من الموضوع لا ذات مكتشفة.

اكتسب التعبير المجازي (أثر جناح الفراشة) اسمه العلمي " الاعتماد الحساس على الأوضاع الأولية"^(١)، و يشير إلى وجود حالة معينة تمثل عدم الاستقرار في بداية سلوك طبيعي معيّن، تتضاعف هذه الحالة مع تقدم الزمن مما ينتج أثراً كبيراً لا يتلاءم والحالة الأولية، وهذا يعني، أنّنا في كل مرة يعاد الفعل نفسه، لا يعني تكراره بنفسه، بل هو تكرار ومعاودة متسمة بالتغيّر والتحوّل، إذ تظهر مراكز معينة أخرى تحرف السلوك عن توجهه الأولي، وهذه هي الطبيعة اللاخطية للنظام، وهو ما يسمّى جاذب لورنز كما في الصورة :

١ - نظرية الفوضى وعلم اللامتوقع : ٣٩.

الفصل الأول



والمعادلات الخطية تتعامل مع أجزاء المنظومة في حالة انفصال، غير مرتبطة ببعضها، فيكون الكل هو مجموع أجزائه، وعلى الطرف الآخر المعادلات الخطية وفيها تتغير الرؤية، فالكل لا يساوي مجموع أجزائه، فكل معالجة لجزء لا يمكن عزلها كما في الخطية عن ترابطها بالأجزاء الأخرى^(١).

ويظهر أمامك في الصورة "جاذب لورنز يشبه هذا الرسم قناعاً له وجه بومة أو جناحاً فراشة"^(٢)، فهذه الخطوط تمثل السلوك في الواقع، وكل انتقال من جهة إلى أخرى يمثل تحولاً في النظام نفسه، والسبب في ذلك هو وجود حالة عدم الاستقرار التي تكوّن الأوضاع الحساسة للحالات الابتدائية، والتي تؤكد وجود الفوضى في كل ظاهرة.

١ - ينظر: الانتروبيا أو عندما ينتج النظام من الفوضى: داود خليفة، مجلة متون مجلد ١٤، عدد ٢، ٢٠٢١: ١٢.

٢ - نظرية الفوضى وعلم اللامتوقع : ٤٥.

الفصل الأول

الجاذب العجيب والأصل الضدي

تُعدّ قضية الجاذب العجيب من الأسس الرئيسية في نظرية الفوضى؛ والسبب في ذلك هو أنّ الجاذب العجيب يكشف عن حالة من حالات الظواهر الطبيعية التي يفقد فيها النظام لنظاميته، ولبّ النظام هو الانسجام والاستقرار، وحضور الجاذب العجيب هو حضور لحالة الاضطراب.

الظاهرة التي قادت علماء الفيزياء والرياضيات إلى البحث في الجاذب العجيب ظاهرة نزول الماء من الصنبور، فانصباب الماء منه لا يخرج عن ثلاث حالات، فالماء في أول نزوله يكون مستقرا، فيظهر الماء وكأنّه ساكن، وعند زيادة التدفق نجد أنّه بدأ بتغيّر حالته إلى حالة جديدة يكون الاستقرار فيها مختلا بشكل نسبي، وإذا زدت من تدفق الماء بشكل أكبر، سنجدّه قد تحول تماما إلى حالة ثالثة ينتقي فيها الاستقرار، وهي حالة الاضطراب التام^(١).

فالاضطراب هو اللانظام، أي (الفوضى / النظام) وكل نظام قابل للتحويل إلى الفوضى، لأنّ فكرة النظام قوامها الاستقرار ومدى استطاعته في مجابهة اللانظام والاستقرار، بمعنى أنّ فرض النظام وفرض ديمومته هو في الأصل صراع مع الفوضى وحالة الاضطراب.

والتحوّل من النظام إلى الفوضى يعتمد على مقدار اعتماد المنظومة على الحساسية للشروط الابتدائية - وهو ما ذكرناه عند لورنز.

١ - ينظر : المصادفة والشواش: ديفيد رويل، ترجمة طاهر شاهين، ديمة شاهين، سلسلة قضايا فلسفية عدد ١، منشورات وزارة الثقافة سوريا - دمشق، ط١، ٢٠٠٦: ٧٢-٧٣. وينظر: علم الفوضى: فرانسوا لورسا، ترجمة زينا مغريل، مراجعة د. شمس الدين خياري، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، السعودية، ط١، ١٤٣٤ هـ : ٩١ وما بعدها.

الفصل الأول

فالمتغيّرات التي تُهمل من قبل النظام، لأنّها طفيفة وربما غير ملحوظة، هي العامل الرئيس في التحول، مما يخلق (اللاخطية) في النظم، وهي تعني أنّ " دخل منظومة input غير متناسب مع خرجها output"^(١)، إنّ نسقية العلم التقليدي تؤكد على أنّ ما يدخل في منظومة، أو أي زيادة في النظام، تجد مقداراً مساوياً للمضاف في النتائج، وهذا ما لا يتحقق في السلوك الفوضوي، فالمتغيّرات تُحدث نتائج غير متوقعة، وهو ما بيّنه أثر جناح الفراشة.

يتموضع الجاذب العجيب على حافة الاضطراب، بمعنى أنّه يمثل لحظة تشكل النتيجة في السلوك الفوضوي، وهنا نجد من الضروري أنّ نبيّن ماهية الجاذب؟ ولماذا وصف بالعجيب؟.

في العلوم الصرفة تحوّل الظواهر إلى فضاء الحال، والذي يُقصد به " طريقة رياضية حديثة تحوّل الأرقام إلى صور متحوّلة انطلاقاً من المعلومات المدخلة"^(٢)، وفضاء الحال يبيّن لنا ماهية الجاذب " يعبر من الناحية الفعلية عن مجموعة من النقاط التي تتقارب جميع المسارات متجهة نحوها"^(٣)، أي أنّ للظاهرة مسارات حركية كما في انصباب الماء، تتحرك منقبضة أو منجذبة تجاه نقطة مركزية تشكل مسارها.

يقول جيمس غليك " كل مدار يجب أن ينتهي إلى المكان والمركز نفسيهما ... تلك النقطة تجذب المدارات بدل أن تتلّولب إلى ما لا نهاية"^(٤)، ويكون مركز

١ - مدخل إلى نظرية التعقيد والشواش : ٢٢٥.

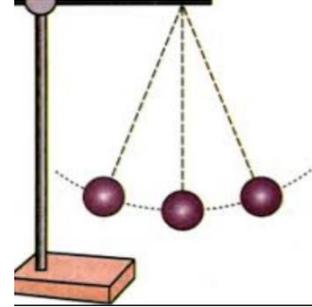
٢ - فلسفة الفوضى رؤية مستقبلية لتوظيف نظرية الفوضى في فلسفة العلوم : ٢١.

٣ - مدخل إلى نظرية التعقيد والشواش : ٢٢٧.

٤ - نظرية الفوضى علم اللامتوقع: ١٦١-١٦٢.

الفصل الأول

الجبذ " مغناطيسا بحجم رأس الدبوس مستقرا في قلب ذلك الفضاء"^(١) وخير ممثل له حركة البندول البسيط :



فنقطة الجذب هي من تضمن الاستقرار والانسجام في أي نظام، وحركة البندول خير نموذج عنها فحركته محكومة بمركز الجذب، وبحسبها تتحدد أرجحته مما يضمن تكرار الحركة نفسها من دون تغيير، فالشكل واحد.

وبناءً على ذلك رصد العلماء أنواع الجاذب^(٢):

١- الجاذب النقطي: وهو ممثل الاستقرار إذ يتحرك الشيء من نقطة إلى نقطة، ويتوقف، فلا تكرر، مثل حركة النواس متأرجحا، أو حالة انصباب الماء فيكون ساكنا، ومن أمثله الأكثر وضوحا الموت، فهو جاذب نقطي لا يزول ولا يتغير.

٢- الجاذب الدوري : وفيه يحدث التكرار لسلوك أو سلوكين من دون تغيير، ويفصل بين السلوكين المتضادين فاصل زمني، فظهور سلوك ما، يعني انتفاء سلوك آخر، وهذا يحدث بشكل دوري، و من أفضل أمثله، ثنائية العمل / الراحة عند الموظفين.

١ - نظرية الفوضى وعلم اللامتوقع: ١٦٢

٢ - ينظر : م . ن : ١٦٢، و فلسفة الفوضى رؤية مستقبلية لتوظيف نظرية الفوضى في فلسفة العلوم : ٢٢ و مدخل إلى نظرية التعقيد والشواش : ٢٢٨.

الفصل الأول

٣- الجاذب العجيب (الفوضوي) : يظهر هذا الجاذب عند حدوث الاضطراب، وفيه تكون الظاهرة غير خاضعة لنموذجها النظامي، بل تدخل الظاهرة مرحلة معقدة تنفتح فيها الظاهرة على إمكانات عدة لا يمكن التنبؤ بها، ومن هنا " يدل اسمه على أنه يطرأ على المنظومة ... بشكل غير متوقع وغير قابل للتنبؤ مما يوحي بأنه غريب عن فضاء الطور الخاص بالمنظومة"^(١)، فتخرج الظاهرة من إطارها الناظم لها، وتدخل حالة التغير المستمر، مع التأكيد على عدم تكرار أي سلوك اتخذته الظاهرة سابقا، فالظاهرة بحسب حالة الاضطراب تعمل على إنتاج سلوك جديد.

هذا الانتاج متصف بالاستمرارية فتتشكل سلوكيات جديدة مختلفة عن بعضها^(٢)، فالجاذب العجيب " يعبر عن عدد لا نهائي من المسارات لفضاء الطور بحيث يصبح التنبؤ بمستقبل النظام أمرا غير متيسر"^(٣)، وبحسب هذا التحديد رصدت صفات لهذا الجاذب^(٤):

- ١- للجواذب العجيبة أشكال غريبة فهي ليست منحنيات ولا سطوح ملساء، ولكنها أشبه بذات أبعاد غير صحيحة، سميت كسوريات fractal.
- ٢- يُظهر الجاذب العجيب استنادا مركزيا والاعتماد الحساس على الشروط الابتدائية.

١ - مدخل إلى نظرية التعقيد والشواش : ٢٢٨.

٢- ينظر: تـانجو الفوضوي والانتظـام: _____

١=ac&aid=٣٩١٨٥٢&print.art.asp?ar/www.ssrcaw.org/https://

٣- الهيولية في الكون التعقيد المذهل في الكون : ٩١.

٤- ينظر: المصادفة والشواش : ٨٨.

الفصل الأول

٣- مع أنّ الجاذب العجيب لها أبعاد منتهية، فإنّ تحليل الترددات الزمنية تُظهر أن هناك استمرارية.

ويوجد في لبّ الجاذب العجيب صفة أصيلة فيه، وهي مصدر هذا الوصف (العجيب)، فالجاذب في أصل وجوده قائم على فكرة التضاد، أي وجود حركتين متضادتين، ومنهما يولد الجاذب (العجيب).

الحالة الأولى للجاذب العجيب، هي حالة الجذب نحو مركز محدد، إذ تدور المسارات حول مركز جذب واحد، والحالة الثانية، وهي مضادة للحالة الأولى، فهي حالة تنافر للمسارات عن مركز الجذب، وتتولد من الاعتماد على الشروط الابتدائية. فالجاذب العجيب يتكوّن من فعلين (الجذب / التنافر)، وهذا تحديدا مصدر الاضطراب الذي يولد مسارات حركيّة للظاهرة غير متكررة.

وعليه فصفة العجيب " تتبع من التناقض [التضاد] في الخصائص، مكونة جاذبا عجيبا بمعنى تقارب المسارات إليه، وصفة الحساسية المفرطة للظروف الابتدائية، تعني أنّ مسارين متقاربين سوف يتباعداً تباعداً شديداً فيما بينهما بمرور الزمن"^(١).

نستخلص من الجاذب العجيب أنّ الظواهر الكونية لا تكون في أصلها قائمة على مادة أحادية الوجود، بل إنّ كينونتها الوجودية قائمة على التضاد، وهو ما يولد الصراع بين فعل الجذب/التنافر، ويمكن أنّ تتولد من هذه الثنائية الضدية أفعال أخرى، وهو دليل علمي (بحسب العلم الفوضوي) يسند فكرة العقدة الأوديبية، وفكرة جاك لاكان عن العلامة اللغوية القائمة على التضاد بين الدال والمدلول (الدال / المدلول).

١ - الهولوية في الكون : ٩٢.

الفصل الأول

٣- النظام ينتج عن الفوضى - الانتروبيا

كانت الطبيعة مصدر قلق للإنسان، إذ تكشف عن نوع من المزوجة بين (النظام/الفوضى)، مزوجة لا ترجيح فيها، فهي تتبع سيرورة التوالد الذاتي، إنها سيرورة متجاوزة، وهي منشأ حالة التطور.

هذه المزوجة أنتجت لنا التصور الأسطوري، ضمن طابعه التفسيري، فالبحث عن السبب المجهول قاد الإنسان إلى تصور عن الكون، يتمظهر فيه الإنسان عنصرا ناقصا، مما جعله يسعى إلى الكمال، مفترضا عالما متعاليا، يجب عليه أن يتقيد بأحكامه، اعتقاديا، فهو يقدم تفسيراً سببيا.

قدم الخطاب العلمي طروحاته بالضد من التصور الناقص للإنسان، فناقض الأسطورة ذات التفسير الميتافيزيقي، ليخالف التوجه العلمي كل تأويلي تأملي للطبيعة، مقدما بذلك المنهج التجريبي أداة ناجزة مكّنت الإنسان من فرض سلطته على الطبيعة، فمعرفة السبب التجريبي الذي تحدث بسببته الظواهر مكن الإنسان، ليس فهم الطبيعة فحسب، وإنما بدأ الشروع بالسيطرة عليها.

أنتج هذا التصور اعتقادا بأن الظواهر المعقدة وذات البعد الفوضوي هي مظهر معقد لأصل بسيط، حقائق كلية ترجع إليها متغيرات الطبيعة كلها، فكان الحوار بين الإنسان والطبيعة مدركا بشكل دقيق من قبل مؤسسي العلم الحديث على أنه الخطوة الأولى نحو فهم الطبيعة^(١)، وهو لم يكتفِ بالحوار إنما تجاوزه للإخضاع، مما جعل العلم يتجاوز حالة الفهم، إذ صوّر العلم بأنه الحقل المعرفي

^١ - نظام ينتج عن الشواش حوار جديد بين الإنسان والطبيعة: إليا بريغوجين، إيزابيلا استنجر، ترجمة طاهر بديع شاهين، ديمة طاهر شاهين، وزارة الثقافة - دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٨: ٨٣.

الفصل الأول

الـ"قادر على اكتشاف الحقائق الكلية حول الطبيعة"^(١)، و حيازة هذه الحقائق الكلية تعني القدرة على تحكم الإنسان الحديث بها.

كما أنتج هذا التصور رؤية عن الكون، يقول آلفين توفلر أن العلم الحديث يبحث في الأحداث والظواهر بحسب مبدأ الآلية "حيث يتعين كل حدث بشروط ابتدائية قابلة على الأقل من حيث المبدأ للتعين بشكل دقيق، لقد كان عالما لا تلعب فيه المصادفة أي دور، وحيث تتراكم فيه كل القطع معا كتروس في آلة كونية"^(٢)، وهذا ما أنتج لنا مقولة النظام وما يرافقها من مبادئ ضرورية، لذلك كان مفاهيم الاستقرار والتوازن والتناغم حاضرة، إذ لا نظام مع انعدامها.

وأنتج هذا التصور فكرة التعميم، وهي مبنية على فكرة الاختزال والتجزئة، فكما اكتشفت حقيقة كلية لظاهرة مجتزأة من الطبيعة تعمم الحقيقة بوصفها مفتاحا لفهم الطبيعة كلها، وهو ما أسس لفرض أن الطبيعة منظمة وما مظاهر الفوضى فيها إلا جزء سطحي يتأسس على قواعد بسيطة كلية.

وعليه أسس الخطاب العلمي لوجود الظواهر الشاذة الفوضوية التي لا تخضع لمقولة النظام، ضمن التصور الآلي.

كان للزمن تصور ضمن هذه الآلية، فقد أسس نيوتن لحالة الزمن السكوني، وهو زمن الثبات، الذي يفرض على الظواهر حدوثها من دون تغيير، فالماضي والحاضر والمستقبل لحظة زمنية يحكمها قانون المشابهة، ولذلك كانت الظواهر محكومة بالنظام، وهو ما يمكننا من التنبؤ، فالعلم "اكتشف قوانين أبدية في قلب تحولات الطبيعة وبهذا حرّم الزمن والسيرورة، وأنتج اكتشاف النظام هذا في الطبيعة

^١ - نظام ينتج عن الشواش : ٨٣.

^٢ - مقدمة كتاب: نظام ينتج عن الشواش: آلفين توفلر : ٧.

الفصل الأول

شعورا بالأمان الثقافي"^(١)، أمان مصحوب بأسطورة العلم فكل ما هو مجهول الآن قابل للكشف، علميا.

العلم مع فيزياء نيوتن أراد التخلص من السيورة الزمنية فقد 'كان طموح العلم النيوتني أن يقدم رؤية للطبيعة يمكن أن تكون عامة حتمية وموضوعية بحيث لا تحتوي أية إشارة إلى المراقب وبحيث تصل إلى مستوى من التوصيف يتهرب من قبضات الزمن"^(٢)، وهذا الزمن السكوني هو ما يسمى بالزمن العكوس، إذ تتوحد تشابها اللحظات الزمنية مما يؤسس لمقولة الثبات، وهذا تحديدا ما اعتمد عليه سوسير في اكتشاف نظام اللغة، فقد جرد اللغة من سيورتها الزمنية حتى يحدد النظام.

والإشكال الحقيقي لمثل هذا التصور عن الكون والطبيعة ضمن مقولة الثبات، متعلق بحالة التطور في الطبيعة، مما يجعل الطبيعة قالبا ساكنا لا حياة فيه، إذ "ليس هناك من تطور لا إلى النظام ولا إلى الفوضى"^(٣)، هذا التصور هو ما ترفضه نظرية الفوضى، فهي تقربنا من الحالة الحقيقية للطبيعة، والتي تجعل من مقولة الثبات والنظام حالة نادرة في قبال مجموعة الظواهر الطبيعية التي تمثل الفوضى، وبذلك يتغير المبحوث عنه علميا فبدلا عن النظام صار لزاما علينا البحث عن اللانظام والاستقرار، بوصفهما ممثل الطبيعة الأكثر شيوعا. وبدلا عن الزمن الثابت السكوني العكوس، صار التوجه نحو الزمن بوصفه لا عكوسا، أي له اتجاه يتحرك فيه من لحظة البدء الكونية إلى المستقبل، وبذلك يكون منطق الاختلاف هو الحاكم

١ - نظام ينتج عن الشواش: ٣٧٨.

٢ - م . ن : ٣٣٧.

٣ - م . ن : ٣٠.

الفصل الأول

فيه، لا منطق المشابهة، ف"الكون يكبر بالعمر وبدوره إذا كان ذلك صحيحاً فهذا يعني أن الزمن هو طريق ذو اتجاه واحد وهو لم يعد عكوساً بل لا عكوساً"^(١).

إنّ الزمن اللاعكوس ذا الاتجاه الواحد ارتبط بالقانون الثاني للثرموداينمك (الانتروبيا)، والانتروبي لغة تعني التحول^(٢)، أما في الاصطلاح تعرّف "بأنها عدم الانتظام"^(٣)، وهي ترتبط بالطبيعة بوصفها صفة أصيلة، وطابعها العام بالضد من التصور الآلي للكون، فإذا ما كان في الكون تنوع وتعقيد وتطور فالأصل فيه هو الانتروبي.

فهي تضاد حالة الثبات، لأنها ترتبط بالتحول، يشير القانون الثاني للثرموداينمك إلى سير وتحول الحالة من دون الرجوع بشكل عكسي، ومن أمثله "تحلل الجثة وتحولها إلى تراب، ولكن عناصر الأرض لا تقوم بتكوين الجسم تلقائياً في العملية العكسية"^(٤)، ونظائر هذا المثل كثيرة في الطبيعة، ف"حينما تدير سيارتك لا تنتشر كامل الطاقة الناتجة من البنزين لتحريك السيارة فقط، بعضها يُفقد في صوت الموتور، والبعض في ارتفاع درجة حرارة السيارة، والبعض في الاحتكاك ما بين التروس. لكن هل يمكنك جمع كل تلك الطاقة المفقودة مرة أخرى لإعادتها؟،

١ - نظام ينتج عن الشواش: ١٦.

٢ - ينظر: الفلسفة والفيزياء: د. محمد عبداللطيف مطلب، الموسوعة الصغيرة ١٦٣، دائرة الشؤون الثقافية والنشر-بغداد، الجمهورية العراقية، ١٩٨٥: ٣٠/٢.

٣ - هل يمكن لنظام أن ينشأ من الفوضى؟: شادي عبد الحافظ، <https://www.ida۲at.com/can-a-system-that-originates-from-chaos/>

٤ - أساسيات الفيزياء: ف.بوش: ترجمة الدكتور سعيد الجزيري، الدكتور محمد أمين سليمان، مراجعة الدكتور محمد عبدالمقصود النادي، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة - الكويت - لندن، ط٥، ١٩٩٠: ٣٤٤.

الفصل الأول

تتخذ الانتروبي اتجاهًا واحدًا دائمًا وهو الازدياد، هنا يرتبط ازدياد الإنتروبي بسهم الزمن. حينما نرى مشهدين لنظام ما أحدهما في درجة أعلى في الانتظام من الآخر فيمكن تحديد أيهما كان الماضي و أيهما هو مستقبه^(١). وزمن هذه الظواهر لا عكوس، إذ لا يمكن أن نتقدم إلى الماضي، لأن الانتروبي يتقدم باتجاه المستقبل، وحركته نحو المستقبل يرافقها ظاهرة مهمة، وهي سعي المنظومة إلى التوازن، وهو يرتبط بالفوضى فحالة التوازن هي حالة التحول نفسها عند انتقال الظاهرة من حالة إلى أخرى، مما ينتج منظومة جديدة متزنة، ومعنى الاتزان هو أنها قابلة للاحتمال، فهي متزنة طبيعيا لكنها غير منتظمة، لذلك وصفت الانتروبي فيها بأنها أكثر، وكلما مالت المنظومة إلى عدم الاتزان فهذا يعني انتظام عناصرها ضمن تشكيل بنيوي معين، مما يجعل الانتروبي أقل احتمالا فكل حدث في الطبيعة يجري بحيث ينتقل السستم من حالة أقل احتمالا، إلى حالة أكثر احتمالا^(٢)، بذلك يكون الانتروبي مقياسا للفوضى في الظاهرة، إذ يمثل النظام حالة انعدام الاحتمال وهو النظام المغلق، أما النظام المفتوح فهو الفوضوي الذي ترتفع فيه نسبة الاحتمال، فتتسأ حالة من الازدواج الضدي فاتزان الظاهرة يعني ارتفاع الانتروبي، وحالة عدم الاتزان تعني انخفاض الانتروبي مما يشكل النظام.

والانتروبي يحدد الزمن ضمن تقسيمه الماضي والحاضر والمستقبل، وبما أن سهم الزمن متجه للمستقبل، فهذا يعني أن الظاهرة تسعى للدخول في حالة الفوضى بوصفها اتزاناً مما يكثر من احتمالات ما ستؤول إليه، ولحظة تحديد التشكل الجديد بوصفه تطورا تدخل الظاهرة في حالة عدم الاتزان فيتشكل النظام، وهكذا دواليك،

^١ - هل يمكن لنظام أن ينشأ من الفوضى؟: شادي عبد الحافظ،
<https://www.ida۲at.com/can-a-system-that-originates-from-chaos/>

^٢ - الفلسفة والفيزياء: ٢٧.

الفصل الأول

وهو مؤشر حالة التطور. ومن هنا حدد إليا بريغوجين مقولته الرئيسية في العلم الجديد ف"على كل المستويات أكان مستوى الفيزياء الكبيرة أو مستوى التآرجحات أو مستوى الصغري، فإن اللاتوازن هو منبع النظام، واللاتوازن هو الذي يحضر نظاما ينتج عن شواش"^(١)، وهذا بلحاظ أن لحظة تشكل الكون مرتبط بالفوضى ولحظة الانفجار الكبير، وهذه اللحظة الفوضوية هي لحظة بداية الزمن.

إنّ حالة الانتقال والتحول الانتروبي للطاقة من وإلى لا يتم من دون مؤثر خارجي ف"الحرارة لا تنتقل بذاتها تلقائيا (دون فعل خارجي) من جسم أبرد إلى جسم أسخن"^(٢)، هذا يعني أن للمراقب الخارجي أثر في الانتروبيا.

يطبق بريغوجين تصوره عن الانتروبيا على الطروحات الفلسفية، ويحاول رصدها في العلوم الإنسانية، وما يهنا هو إمكانية استثمار الانتروبيا في حقلين الأول هو حقل اللغة، فتصور سوسير عن اللغة يجعله ينتمي للخطاب العلمي النيوتني، فالزمن لا اثر له في النظام اللغوي، والانتروبي تبين لنا أثر الزمن بوصفه متحركا لا ثابتا، وتبين لنا أثر المؤثر الخارجي على جوهر اللغة نفسها، أما الحقل الثاني فهو النقد فالانتروبي يمكن أن يقدم لنا حالة من الحوار المنتج بين النص والناقد، فيخرج الناقد من آليته المنهجية، فحضور النص لدى الناقد يجري تحويلا للنص والناقد، مما ينتج انتروبيا أعلى، مما يعني أن أثر المحيط على النص ملحوظ في الزمن ولا يمكن التغافل عنه، كما أن النص نفسه ضمن سيرورة الزمن يمتلك إمكانية التحول بحسب السياق الذي يوجد فيه، وهذا ما حاول غادامير استثماره في تأويليته مؤكدا على قيمة الحوار.

^١ - نظام ينتج عن الشواش: ٣٧٢.

^٢ - الانتروبيا أو عندما ينتج النظام من الفوضى: ٣٩.

الفصل الثاني

نظرية الفوضى ومجازة الإطار المعرفي للنظرية النقدية

توطئة

ينقسم هذا الفصل إلى محورين رئيسين، الأول تتمثل فيه عملية تبلور النظرية النقدية، بوصفها منتجا علميا، يعمل على تفسير الظاهرة الأدبية، من جهة، و يعمل على تأصيل المفاهيم النقدية بحسب أصول معرفية، من جهة أخرى، وبذلك تتحقق علمية الأدب، وهو الهدف الذي تطمح إليه الجهود النقدية منذ رتشاردز إلى ما قدمته البنيوية من تصورات منهجية متعددة ومتنوعة.

هذه التشكيلات المتعددة والمتنوعة، وعلى الرغم من الاختلاف الإجرائي لها، إلا أنها توسم بـ(النظرية النقدية)، وذلك لأننا ننظر إلى الأصول المعرفية التي انبنت بحسبها، فما يظهر من مقولات مثل (المبدأ، العقل، الوعي، المبدأ المنسق، النظام، البنية) لا تخرج عن كونها صورة عن الأنموذج المعرفي الباحث عن الثابت المركزي، واليقيني، الذي تُقاس الظواهر بالنسبة إليها، وبذلك تكون النظرية النقدية محكومة بالرؤية الخطية.

أما المحور الثاني فيمثل عملية توظيف مفاهيم نظرية الفوضى، سعيا إلى مقارنة النظرية النقدية لا من زاوية البعد الإجرائي، إنما محاولة في مقارنة الأصول المعرفية، والعمل على مساءلة هذه الأصول، انطلاقا من فرض أساسي يتمركز حول إمكانية اكتشاف تأسيس المعرفة النقدية بمغايرة هذه الأصول.

هذا ما جعل من اللاشعور والاختلاف وتجاوز المنهجية الخطية هي المرتكزات التي يمكن تشكك في منطقية الخطاب العلمي بحد ذاتها، والتأسيس لمقولة التغيّر والصيرورة، بوصفها مفاهيم توجب تغير الخطاب النقدي لمقولاته.

الفصل الثاني

أولاً- النظرية النقدية والتأسيس لعلمية النقد

١-النقد الأدبي وكلية المبادئ النقدية

أفضى بنا خطاب العلم إلى تأسيس معرفيًا- مقولة المبدأ، وهو قاعدة كلية يمكن بواسطتها إجراء فعل المقايسة المنهجية بين كلية المبدأ وما يمكن أن يمثل هذا المبدأ، مما يضمن صحة النتائج، وكذلك تحديد مستقبل الظاهرة المدروسة.

وهذا ما سعت إليه حركة النقد الجديد، وتحديدًا ما قدّمه (أيفور آرمسترونغ رتشاردز) الذي مثل أنموذجًا للتحوّل في النظرية النقدية، فقد حظي بهالة من التعظيم لمنجزه النقدي، مما دفع ستانلي هايمن إلى أن يقول عنه "لا يكاد المرء يقترب من أيفور آرمسترونغ رتشاردز إلا وهو يحس برهبة عظيمة"^(١)، والسبب في هذه الرهبة "اطلاعه في كل مجال من مجالات المعرفة، واسع مترامي الأطراف، وتميزه في ستة ميادين بجانب ميدان النقد، فذ ساطع"^(٢)، وإذا كان النقد الحديث اكتسب العلمية فذلك لـ"أنه من المستحيل أن يُعالج النقد الحديث دون التحدث عن رتشاردز لأنه خالقه، بالمعنى الحرفي، فأن ما نسميه نقدا حديثا بدأ عام ١٩٤٢ عندما نشر كتاب (مبادئ النقد الأدبي)"^(٣)، والبحث يؤكد على هذه الأهمية من جانبها المعرفي لأنه كشف عن وجود مبادئ يقينية تنقل النقد إلى حقل العلمية.

^١ - النقد الأدبي ومدارسه الحديثة: ستانلي هايمن، ترجمة الدكتور إحسان عباس والدكتور محمد

يوسف نجم: ١١٦/٢.

^٢ - م . ن : ١١٦/٢.

^٣ - م . ن : ١١٧/٢.

الفصل الثاني

يحدد رتشاردز حال النقد السابق لطروحاته بأنه فوضوي، تتغلب عليه القراءة الصوفية، فكل ما يقدم من منجز نقدي^(١):

- ١- تخمينات ولدها الذكاء.
- ٢- أقوال شعرية تدعو إلى التخدير.
- ٣- ملاحظات منعزلة ومنتشرة أكثرها يحتوي على خلط وإبهام.
- ٤- عبارة عن عقائد وافرة وأحكام مبتسرة وأهواء ونزعات.
- ٥- لن تجد في هذه النظريات سوى مقدار كبير من التصوف وكمية ضئيلة من التفكير الصادق.

فكل قراءة موجهة للأدب لا تلتزم بضابط منهجي قائم على مبادئ تشتق من الأدب نفسه تُصنف على أنها قراءة صوفية، يكون للحدس فيها حضور ملحوظ. مما يخلق مقابلة بين النقد الذي يدعو إليه رتشاردز وبين هذه القراءة غير النقدية.

ولتعزيز فكرة المبادئ بوصفها مقولة للنقد بوصف نظاما يضع رتشاردز مصطلح (التفسير) معيارا يبين بواسطته عمق النقد ما قبل المبادئ، فالنقد سابقا لا يقدم (تفسيرا واضحا) لمشكلة ماهية الفنون، ولا لمكانة الفنون بين منتجات الإنسان، ولا لمشكلة لماذا يكون الفن بكليته موضوعا للدرس؟^(٢).

^١ - ينظر: مبادئ النقد الأدبي: أ.أ. رتشاردز، ترجمة وتقديم وتعليق محمد مصطفى بدوي، مراجعة لويس عوض وسهير القلماوي، نشر المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، المشروع القومي للترجمة عدد ٤١٦، ط١، ٢٠٠٥ : ٥٦.

^٢ - ينظر: مبادئ النقد الأدبي: ٥٧.

الفصل الثاني

ويُصدّر ناقدنا (العقل) مسؤولاً عن التفسير، مبدأً كلياً في ضبط التجربة الشعرية والتجربة النقدية، فيأخذ التفسير مع العقل وظيفة كاشفة عن السببية التي يقبلها العلم.

فالعقل عند رتشاردز "جهاز يتكون من موازين عديدة دقيقة نصبت في منطقة جد حساسة... والدوافع التي تستجيب بها للموقف عبارة عن الطريق التي تسلكها هذه الموازين لكي تعود إلى حالة التوازن من جديد"^(١)، فالعقل (آلة) ميكانيكية تعمل بحسب قوانين محددة تصل إلى نتائج منضبطة، وعليه تكتسب عملية الانتاج والاستقبال صفة الانضباط منها.

بالاعتماد على ما قدمه الدرس السيكولوجي وضع رتشاردز تصوره عن العقل، مجانبا كل تصور يجنح إلى مبدأ غير قابل للتجريب، وصفات العقل، قدرته على المعرفة، والنزوع والوجدان^(٢) هي من يتمظهر بها العقل، وهي صفات لا يمكن ردها إلى ما هو أبسط منها، فهي مبادئ كلية للوعي، ومحددات مثل الشعور واللاشعور لا يعتمدها رتشاردز لما تقدمه من تعارض لا يخلق صفة التوازن، فضلا عن أن اللاشعور مكتنف بالغموض، فهو خيالي لا يمكن الاعتماد عليه، إذ يشذ عن مبدأ التجربة، وهذا بمجمله يجعل من العقل آلة عصبية^(٣).

والعقل بالنسبة للفنان يمثل مركز نمو العقل البشري، وتطوره، لأنه "يمثل تنظيماً للدوافع التي نجدها في حالة اضطراب وصراع وفوضى لدى عقول الغير،

^١ - العلم والشعر: أ.أ. رتشاردز، ترجمة وتقديم وتعليق محمد مصطفى بدوي، مراجعة لويس عوض وسهير القلماوي، نشر المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، المشروع القومي للترجمة عدد ٤١٦، ط١، ٢٠٠٥: ٣٧٣-٣٧٤.

^٢ - ينظر: مبادئ النقد الأدبي: ١٣٤.

^٣ - ينظر: م. ن: ١٣٥.

الفصل الثاني

فنتاحه تنسيق لما هو مضطرب في معظم أذهان الناس^(١)، ففي الانتاج الفني يكون الفنان بفعل الآلة قادرا على فرض حالة النظام على دوافعه التي تؤثر فيه فينتج تجربة فنية منظمة، وهذا هو ما يميّز التجربة الفنية من غيرها من التجارب الإنسانية، فيتمظهر الإنسان - الفنان صانعا للنظام في الفوضى.

ومن جهة الاستجابة والتلقي يظهر العقل ضابطا لعملية التفاعل مع التجربة الفنية، وانعكاس الأثر في المتلقي - الناقد البصير - يحدد بوضع إجابة لأسئلة محددة. وأسئلة الناقد البصير محكومة بموجهات معرفية يختزلها رتشاردز في أن يفسر العقل الحدث الذهني، وأن يعمل على عزل المقولات الجمالية غير التجريبية العلمية، وأن المبادئ لا تتوافق مع التخمين والاحتمال فليس فيها مجال للخطأ^(٢)، وهذه مرتبطة بالعلمية التي نستطيع من خلالها أن نعمم النتائج التي نتوصل إليها تجريبيا^(٣).

يحدد رتشاردز مبدئين رئيسيين "إن العمودين اللذين يجب أن تقام عليهما نظرية في النقد هما تفسير القيمة وتفسير عملية التوصيل"^(٤). والتوصيل فعل متجذر في بنية الإنسان لأننا كائنات اجتماعية اعتدنا التوصيل، وما يميز العقل البشري أنه أداة للتوصيل، وبعد نضج التجربة يكون التوصيل محتمل الوقوع، كما أن قانون الانتقاء الطبيعي جعل القدرة على التوصيل عاملا مميزا لدى الإنسان^(٥)، وبذلك

١ - مبادئ النقد الأدبي: ١١٢.

٢ - ينظر: م . ن : ١٦٨.

٣ - ينظر: أنثوية العلم: د. ليندا جين شيفرد، ترجمة د. يمنى طريف الخولي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت، سلسلة عالم المعرفة عدد ٣٠٦، ٢٠٠٤: ٤٤-٤٦.

٤ - مبادئ النقد الأدبي : ٧٥.

٥ - ينظر: م . ن : ٧٥.

الفصل الثاني

جعل التوصيل وظيفة من وظائف العقل، مما يوجب خصوصية التوصيل الفني عن غيره.

والطابع الآلي للعقل هو من حدد التوصيل عند رتشاردز، فكل رؤية تجعل من العقل ناقصا وبحاجة إلى مكمل خارج عنه^(١)، هي رؤية غير علمية، لأنها ببساطة لا يمكن التأكد منها تجريبيا، فعملية التوصيل وما فيها من سمات أخذها رتشاردز من مشاهدة الواقع، وليس تأمليا.

فالعقل الذي يسعى إليه رتشاردز هو العقل الأداتي ذو النزعة الميكانيكية، والتوصيل فيه "عملية نقل كامل أو مشاركة تامة في التجربة نفسها"^(٢)، ومعيار هذه التجربة هو أن "يؤثر أحد العقول في البيئة التي نعيش فيها بحيث يتأثر عقل آخر، وتحدث في هذا العقل الثاني تجربة تشبه التجربة التي كانت في العقل الأول"^(٣)، وهكذا يتحدد المعيار بأنه قانون المطابقة بين العقل المنتج للتجربة والعقل المستقبل لها، وتبعاً لذلك فإن الفنان هو من استطاع أن تتطابق تجربته مع تجربة المتلقي لحظة التوصيل، ومصدر هذه المطابقة هو مساحة الاشتراك في الدوافع عن البشر^(٤)، والتوصيل التام والكامل عندما "يشارك الموصل والمستقبل في عدد من الدوافع وفي المنبهات التي تثير الدوافع"^(٥)، وهذه المطابقة هي المفتاح للعمود الثاني في النظرية النقدية، فالنقيد هو أثر الناقد البصير في الكشف عن المطابقة في التوصيل الكامل، فينتج لنا التوصيل الناقص والرديء، الناقص ما كان فيه الفن

١ - ينظر: مبادئ النقد الأدبي: ٢٢٥.

٢ - م. ن: ٢٢٦.

٣ - م. ن: ٢٢٧.

٤ - ينظر: م. ن: ٢٤١.

٥ - م. ن: ٢٤٢.

الفصل الثاني

مختلا من حيث التوصيل والقيمة، والرديء ما كان فيه التوصيل ناجحا، والقيمة مختلفة^(١)، أما التوصيل الناجح فيكون لشهرة الفنان أثر في تحديده^(٢).

وما يعنينا هو البناء الخطي لسيرورة التجربة الفنية والنقدية، فالناقد لا يتجاوز حدود الكشف، لأنه في الأصل ينطلق من (المبادئ) الكلية، فما كان خارجا عن المقايسة بين المبدأ والتمثّل الخارجي، يعد فوضويا، لأن المطابقة تفرض هذه الخطية، إذ النتائج تكون معدة سلفا لوجود آلة المقايسة.

أما مبدأ القيمة، وهي الشرط الثاني لنظرية نقدية علمية، فللنقد وظيفة رئيسية وهي التمييز، إذ يتحدد النقد بكونه "محاولة التميز بين التجارب وتقويمها"^(٣)، ويؤكد رتشاردز "لا يستطيع الناقد مطلقا أن يتجنب بعض الأفكار القيمة فوظيفته كلها إنما هي تطبيق واستخدام لآرائه في القيمة"^(٤).

ولبيان معنى القيمة يعمل رتشاردز على عزل و إقصاء لكل رؤية ميتافيزيقية للقيمة، لأن المطلقات التجريدية لا تُنتج تجريبيا، لذلك كان الموقف الجمالي الكانتي بوصفه "طريقة خاصة في رؤية الأشياء"^(٥) متعاليا على الواقعة الجمالية، فهو لا يخرج عن كونه طريقة في التعامل يمكن أن توظف في قراءة الظواهر، والأصل فيه وجود عنصر فريد يتأسس بحسبه الجميل، وهو عنصر يحضر بفعل خصوصيته في تجارب ويغيب في أخرى^(٦) فكل تجربة جمالية فريدة تستلزم موقفا جماليا فريدا أيضا

^١ - ينظر: مبادئ النقد الأدبي: ٢٥١.

^٢ - ينظر: م. ن: ٢٥٤.

^٣ - م. ن: ٥٢.

^٤ - م. ن: ٨٦.

^٥ - م. ن: ٦٦.

^٦ - ينظر: م. ن: ٦٥.

الفصل الثاني

ومنه تترشح القيمة، وهذه الفرادة تعزل القيمة عن الواقع، مما يجعلها غير قابلة للتحديد، إذ تمتح وجودها من مصدر مطلق هو (الخير) وهو ما لا يمكن تحديده إلا بوصفه خيراً^(١)، ويؤكد رتشاردز أن "المصدر الأساسي لما قد يبدو في هذه النظرية من صدق هو ذلك الافتراض الميتافيزيقي الذي يزعم وجود خواص أو صفات... غير مرتبطة بشيء دون أن يكون في هذا التصور أي تناقض"^(٢)، فما يسعى إليه رتشاردز هو ما يمكن أن يثبت تجريبياً لا ما يمكن تصوره تأملياً.

وبعد هذا الإقصاء لما هو ميتافيزيقي في القيمة، يعمل رتشاردز على إرجاع القيمة إلى التجربة المباشرة، وعلاقتها بالإشباع للدوافع النفسية، فيتشكل معياراً هو التجربة بوصفها مبدأ لوجود القيمة.

ويتكأ أيضاً على فاعلية العقل، بوصفه آلية، تصنف الدوافع الإنسانية إلى دوافع الانجذاب ودوافع النفور^(٣)، ووظيفة العقل فرض النظام على هذه الدوافع فالإنسان السليم من كان منظماً لدوافعه من دون غلبة طرف على آخر، والعقل "مبدأه هو النظام المتزايد ووظيفته التنسيق"^(٤)، وهذا ما يجعل من التجارب الإنسانية كلها، الفنية وغيرها، تخضع لهذا التصور، أي صدورها من مبدأ موحد، فالاختلاف بين قراءة الشعر وبين ارتداء الملابس بوصفهما تجربة إنسانية، غير موجود بسبب هذا الأصل^(٥).

١ - ينظر: مبادئ النقد الأدبي: ٩٠.

٢ - م. ن: ٩٠-٩١.

٣ - م. ن: ٩٨.

٤ - م. ن: ١٠١.

٥ - ينظر: م. ن: ٦٦.

الفصل الثاني

ولما كان العقل هو الحارس لهذا النظام كانت القيمة أكثر وضوحا فهي "القدرة على إشباع الرغبة والإحساس"^(١)، فكل تجربة تؤدي إلى الإشباع فهي تجربة قيّمة، وما يشبع من الدوافع هي دوافع الانجذاب والميل، وللاشباع شرط وهو " أن الشيء القيّم هو الشيء الذي يرضي أحد دوافع النزوع دون أن يتضمن ذلك كبت دافع آخر مساوٍ له أو يفوقه أهمية"^(٢)، فكل إشباع ناقص بفعل الكبت لا يؤسس للقيمة، إذ يدل على عدم قدرة العقل على التنظيم، فلا وجود للقيمة مع الفوضى، والكبت والإحباط من نتاج عدم التنظيم و"تقاس قيمة الحالات الذهنية بقدر نزوعها إلى تلافي المضيق والإحباط"^(٣) ويؤكد رتشاردز على أن "القيمة تختفي حينما لا يتحقق النظام إذ تؤدي الفوضى إلى إحباط الدوافع جميعا"^(٤)، والمحور في ذلك العقل وعلى الناقد أن يهتم بصحة العقل لـ"يحصل على أكبر قدر من القيمة"^(٥).

وكل تجربة جمالية تكون تحت مجهر النقد تكون "الملاحظات النقدية هي الملاحظات التي تتعلق بقيمة هذه التجارب وبالأسباب التي جعلنا نعتبرها قيّمة أو العكس"^(٦)، فالنقد مبادئ تقاس بحسبها التجارب، وقدرتها على الإشباع، مما جعل النقد يكتسب وظيفة التمييز، بين ما يُشبع وما لا يشبع الدوافع. وهذا التمييز يحدث تحت وصاية العقل، بوصفه آلة تحقق فعل المقايسة. ومدى التزامنا بالمقايسة العقلية يضمن لنا مقولة النظام، وعليها تتأسس فكرة الخير لا بوصفها مفهوما مجردا، إنما

١ - مبادئ النقد الأدبي : ٩٨.

٢ - م . ن : ٩٩.

٣ - م . ن : ١١٠.

٤ - م . ن : ١٠٩.

٥ - م . ن : ٨٦.

٦ - م . ن : ٧٣.

الفصل الثاني

الخير في "تنشيط الدوافع وإشباع نزعاتها... وحينما نصف تجربة بالخير إنما نعني بوصفنا هذا أن الدوافع التي تتألف منها هذه التجربة دوافع ناجحة يتحقق إرضاؤها"^(١)، والهدف هو تحقيق منجز نقدي منضبط بحسب المبادئ، وكلما كان أكثر انضباطا بكشف الأسباب التي تؤسس لمبدئي التوصيل والقيمة، كلما كان النقد ميدانا علميا.

وبحسب هذه الخارطة في التأسيس لعلمية النقد نفهم وصف رتشاردز لفرويد ويونج بأن مشروعها مصاب بالفشل، لأنهم يتعاملون مع جانب لا يمكن قياسه، إذ تفقد فيه التجربة واقعتها المباشرة، لأنه يؤسس لوهمية اللاشعور، وتأثيره مزعزع لمقولة النظام والعقل، وما ينتج عنه لا يمكن إخضاعه للقيمة، لفوضويته، إذ منطوق اللاشعور مخالف للمنطق الواقعي التجريبي، ولذلك فهو ممثل للشر، والعقل الذي يجنح إلى اللاشعور والفوضى هو عقل مريض، فيصفه بـ(الرجل الفاسق - الرجل الذي ضيعه ضميره - الرجل الذي فقد لذات الحياة)^(٢).

العقل	النظام	تنسيق الدوافع	الخير
	الفوضى	عدم التنسيق	الشر

فيظهر مما تقدم أن النقد حقل علمي قدر التزامه بالمبادئ، حقل علمي لأنه يؤمن بما تقدمه التجربة من قدرة على المقايسة بوصف الظاهرة الأدبية تمثالا لهذه المبادئ، وعليه تتحقق المطابقة التي تنتج القيمة بوصفها خيرا نابعا من التجربة، وبالنتيجة ما يشذ عن هذه المقايسة وما ينتج عنها من مطابقة بالضرورة يكون فوضى.

^١ - مبادئ النقد الأدبي : ١٠٩.

^٢ - ينظر : م . ن : ١٠٣.

الفصل الثاني

وعلىنا أن ننتبه إلى أن فكرة المبادئ بحد ذاتها هي نتاج الخطاب العلمي، فهي تجتر ما قُدم في الحقول العلمية الأخرى، فديكارت قدم لنا مبادئ اليقين، ونيوتن له مبادئ في الفيزياء، وبيكون له مبادئ في توجيه العقل، مما يجعل مبادئ رتشاردز لا تخرج عن هذه المبادئ التي شكلت مقولات الخطاب العلمي، الذي يقدم العقل مركزا يمكننا من تفسير كل ظاهرة فنية أو غير فنية، وهو ما يجعل النقد محصورا في جانب الكشف عن المطابقة فهو نقد منفعل أصالة، خاضع لخطية التجربة الإرسال والتلقي.

٢ - علمية النقد والمبدأ المنبثق

من المحاولات الجادة في تحقيق علمية النقد محاولة الكندي نورثروب فراي في كتابه (تشریح النقد)، وعلى الرغم من قلة الدراسات التي تستكشف البناء المعرفي لما قدمه فراي إلا أنه لا يمكن إغفال منجزه في علمنة النقد الأدبي؛ لأنه يستثمر معرفيا مقولات الخطاب العلمي من جهة، ويعمل على تقديم بناء نظري متكامل للنقد من جهة أخرى.

يضع فراي النقد الأدبي في عصره تحت المساءلة، كاشفا ما فيه من سمات تجعل ما كتب لا يصنف نقدا أدبيا، إنما هو كتابات تقارب الأدب بحسب وجهة نظر ما، أي مرجعيات معرفية لا أدبية، وهذه الكتابات لا تؤسس للنقد إنما تعمل على تعزيز هذه المرجعيات إذ " تسعى لا إلى إيجاد إطار فكري للنقد داخل الأدب بل إلى إلحاق النقد بواحد من الأطر المختلفة خارج الأدب"^(١)، فالبحث عن إطار النقد بحث عن السور المعرفي الذي يضمن للنقد استقلاليته المعرفية، لذلك

^١ - تشریح النقد محاولات أربع: نورثروب فراي، ترجمة د. محمد عصفور، منشورات الجامعة

الأردنية عمادة البحث العلمي ٩١/٣، عمان-الأردن، ١٤١٢هـ-١٩٩١م : ٧.

الفصل الثاني

وجب تحديد المبادئ النقدية ومقولاتها ضمن حدود موضوعها، لا أن نرحل مبادئ جاهزة من حقول مجاورة^(١) يُستقرأ بها الأدب.

ولتحديد المبادئ الأولية للنقد على الناقد أن يحدد موضوع النقد بوصفه منبعاً لهذه المبادئ، فضلاً عن بيان طريقة الكشف عنها، ويصرح فراي أن موضوع النقد هو الأدب، ولأن الفنون توسم بالخرس^(٢)، كان النقد بالنسبة لها متحدثاً، فالنقد "قادر على الكلام"^(٣)، مما يعزز الارتباط الوجودي بين الموضوع وهو الأدب، وبين النقد متكلماً عنه، فتمط العلاقة وجودي سببي، وطريقة الوصول إلى هذه المبادئ هو العمل على إجراء استقراء للمنجز الأدبي كله، بوصفه مادة أولية تعبر عن وجودها بالنقد، يقول فراي "إن كان للنقد وجود فلا بدّ أنه تخصص للأدب من خلال إطار فكري يؤخذ من استعراض استقرائي للحقل الأدبي"^(٤)، فالطريق لتحقيق الارتباط الوجودي بينهما هو الاستقراء، ولا يقصد به مجرد فعل القراءة، إنما هو استحضار لحمولة معرفية وسمت الخطاب العلمي باستعمالها المنهج الاستقرائي، وعلى هذا الأساس عرّف فراي النقد بأنه "محاكاة كلامية لقوة خلاقة إنسانية لا تتكلم بذاتها"^(٥).

فالخطوة الأولى في علمنة النقد كانت في بيان موضوع النقد وهو الأدب، والمنهج الذي نستحصل به قواعد ومبادئ النقد الأدبي وهو المنهج الاستقرائي. وعلينا أن نسائل فراي عن كيفية تشكل الرابطة الوجودية بين الموضوع والمنهج حتى نقف على وصف النقد بأنه محاكاة؟. إن الكشف عن العلاقة الوجودية عند فراي يستدعي

١ - تشریح النقد: ٧.

٢ - م . ن : ٥ .

٣ - م . ن : ٥ .

٤ - م . ن : ٨ .

٥ - م . ن : ١٣ .

الفصل الثاني

فرضا أوليا أسسه الخطاب العلمي قبل بزوغ نظرية الفوضى، وهو وجود قانون قار لا زمني يحكم الظاهرة المدروسة، فبحث فراي منصب في الكشف عن نظام الأدب. وإذا ما أثبت هذا الفرض استلزم منه خلوص النقد من طابعه غير المنظم، فالنقد "بحاجة إلى (مبدأ منسق)، إلى فرضية أساسية يمكنها، مثل نظرية التطور في علم الأحياء، أن ترى الظواهر التي تتناولها بوصفها أجزاء من كل واحد"^(١)، وكما يكتسب المبدأ المنسق حصانته العلمية تابع فراي حضوره في العلوم الأخرى فضرب الأمثلة بالعلوم الصرفة، ف"من الجلي أن النقد لا يمكنه أن يكون دراسة منظمة ما لم يتصف الأدب بصفة تجعل ذلك ممكنا، وإذاً يتوجب علينا قبول الفرض القائل: إن الأدب ليس ركاما من الأعمال بل هو (نظام من الكلام) تماما مثلما نقول أن هناك نظاما في الطبيعة يكمن خلف العلوم الطبيعية"^(٢)، فالمماثلة بين الطبيعة والأدب من جهة، وبين علم الفيزياء والنقد بوصفهما علمين من جهة أخرى.

الموضوع	العلم
الطبيعة	الفيزياء
العناصر	الكيمياء
الأجرام والنجوم	الفلك
الأحداث	التاريخ
الأدب	النقد

وما يوحد العلوم هو وجود نظام في موضوعها، والأدب عنصره المكون له اللغة، ويلحظ فراي مساحة الاشتراك بين النقد والأدب في (اللغة)، فعلى الرغم من أن

^١ - تشریح النقد: ١٨.

^٢ - م . ن : ٢٠.

الفصل الثاني

علة وجود علم النقد الأدب، إلا أن فارقاً مهماً بينهما إذ الوحدة الصغرى في اللغة وهي العلامة لها طابع وظيفي مختلف بين الحقلين، يقول فراي "الرمز اللفظي (قطة) هو مجموعة من الخطوط السوداء على صفحة بيضاء، تمثل مجموعة من الأصوات التي تمثل صورة أو شيئاً في الذاكرة يمثل تجربة حسية تمثل حيواناً يموء"^(١)، فهو يتحدث عن مستويات الوجود (كتابي، صوتي، صورة ذهنية، الشيء في الواقع). وعند استعمال العلامة في سياق معيّن تبدأ الوظيفة، ويؤشر فراي وظيفتين، الأولى: أن العلامة تمثيل للواقع، لذا فهي تسعى لمطابقته، حتى تحوز مرتبة الصدق في التمثيل، وبذلك يكون البناء اللغوي متجه للخارج^(٢) وهذا النمط من اللغة أسماه فراي باللغة الوصفية العلمية وهي لغة العلم، الثانية: العلامة في هذه الوظيفة ترتد إلى داخل اللغة، فلا تسعى لتمثيل الواقع، فهي ليست معنية بمفهوم المطابقة، فلا توصف بأنها صادقة أو كاذبة، أي تخرج عن منطق (إما/أو)، لأنه في الأصل ليست تمثيلية^(٣)، وتتنمي لغة الأدب إلى هذا النمط من اللغة.

وفي هذا الإطار يتحدد انتماء النقد إلى اللغة العلمية الساعية إلى اليقين، وفي ذلك يقرن فراي في نصوص متعددة بين النقد والمعرفة، مما يجعل النقد علماً، يفترض فراي: " أن النقد كيان من الفكر والمعرفة له وجود منفصل"^(٤)، "...يؤمن بوجود كيان معرفي قابل للفهم يمكن استكشافه عن الشعر"^(٥)، وهكذا نجد أن النقد

١ - تشریح النقد: ٩٢.

٢ - ينظر: م . ن : ٩٣.

٣ - ينظر: م . ن : ٩٣.

٤ - م . ن : ٥.

٥ - م . ن : ١٦.

الفصل الثاني

بوصفه معرفة الشيء...^(١)، "فالنقد معرفة يجب أن تمضي قدما دون أن ترفض أي شيء"^(٢)، "التمييز بين النقد بوصفه معرفة وبين التجربة المباشرة للأدب"^(٣)، والمراد من المعرفة هنا هو العلم، والمعرفة لدى فراي تتحقق بالاستقراء والاستنتاج، بوصفهما ركنين تتحقق بهما مقولة الكيان. بذلك يفرق فراي بين النقد بوصفه تجربة قرائية تخضع لمقولات خارجة عنه، وبين النقد بوصفه كيان منتظم، "فالدراسة المنظمة تعتمد على الانتقال مع التجربة الاستقرائية إلى المبادئ الاستنتاجية"^(٤) ثم يضيف " ما على الناقد الأدبي أن يفعله هو أن يقرأ الأدب، أن يقوم باستعراض استقرائي لحقله وأن يجعل مبادئه تتشكل من معرفته بذلك الحقل"^(٥)، أن التأكيد على البعد المعرفي هو تأكيد على وجود الحقائق الثابتة التي يجب أن ترصد بوصفها يقينا لا يقبل الشك، فهو استثمار لبحث ديكارت عن اليقين الأول في الكوجيتو، فقيام منظومة معرفية نقدية على الأدب يستلزم التحقق من مبادئ أولية يقينية.

والوقوف على هذا اليقيني يتخذ طريق الاستقراء التجريبي، وحركية الاستقراء بتحوله من الخاص والجزئي إلى العام والكلي^(٦)، هو الطريق الوحيد لتحقيق لتحقيق ذلك مما يعني أنه يستبعد الرؤية الحدسية بوصفها طريقا للمعرفة.

وهذا ما يجعل من الاستنتاج كاشفا عن المبادئ، ولهذه المبادئ سمتها التتابعية، فهي لا تخرج عن كونها ضرورية^(٦)، فهي قواعد كلية بسيطة غير معقدة

^١ - تشريح النقد: ٣٤.

^٢ - م . ن : ٣٤.

^٣ - م . ن : ٣٦.

^٤ - م . ن : ٢٦-٢٧.

^٥ - م . ن : ٧.

^٦ - ينظر : المعجم الفلسفي : ٧٢/١-٧٣.

الفصل الثاني

ترتد إليها الجزئيات المتعددة " فالتاريخ الأدبي الشامل يعطينا بارقة أمل في إمكانية رؤية الأدب بوصفه تعقيدا يرتد لعدد محدود بسيط نسبيا من الصيغ التي يمكن أن ندرسها في الثقافة البدائية ثم نكشف بعد ذلك أن علاقة الأدب اللاحق بهذه الصيغ البدائية، ليست مجرد علاقة تعقيد، لأننا نجد الصيغ البدائية وقد عادت للظهور في عيون الأدب، لا بل يبدو أن هناك ميلا عاما لدى هذه العيون لأن تعود لتلك الصيغ"^(٢)، وعليه يتشكل النظام، فالصيغ هي النماذج الأولية للأدب، أو هي المبدأ المنسق واكتشافها يعني الكشف عن نظام الأدب، وما يحقق هذا الكشف هو النقد. فالطابع العام للأدب هو البعد الخطي، فكلما تعددت النماذج الأدبية فهي لا تخرج عن هذه الصيغ الأولية ذات البعد اليقيني.

إذا لتحديد علمية النقد يجد فراي أن النقد يجب أن يكون حقا معرفيا خاصا بموضوعه وهو الأدب، والمنهج الذي يتأسس بحسبه هذا الكيان المعرفي هو الاستقراء، وإذا كانت الاستنتاجات منسجمة مع المقدمات فلا بد أن المطابقة ستتحقق، لأن المعرفة "هي الفعل العقلي الذي يتم به النفوذ إلى جوهر الموضوع لتفهم حقيقته بحيث تكون المعرفة الكاملة بالشيء خالية ذاتيا من كل غموض والتباس أو محيطة موضوعيا بكل ما هو موجود بالشيء في الواقع"^(٣)، فإذا كانت العلوم الصرفة منتظمة بفعل الكشف عن جوهر موضوعها، فإن النقد يتمتع بهذا الامتياز، وهو الكشف عن جوهر الأدب بالكشف عن النظام الذي يؤسسه. وبذلك يكون النقد الأدبي نظاما معرفيا مبنيا بحسب مبادئ موضوعية تتسم بالبساطة.

١ - ينظر: المعجم الفلسفي: ٧٥.

٢ - تشریح النقد : ١٩.

٣ - المعجم الفلسفي: ٣٩٣/٢.

الفصل الثاني

وبذلك تتحدد خصوصية الخطاب النقدي وافتراقه عن الخطاب الأدبي الذي يتسم بالتعقيد لأن العلامة اللغوية فيه مبنية على رفضها لفكرة المطابقة كونها غير تمثيلية. ومن هذا التعقيد يستكشف فراي وجود النظام، فيبدأ باستقراء الأدب للكشف عن قوانينه، فقد وجد أن الأدب بمجمله لا يخرج عن مقولات أربع وهي (الصيغ، الأنماط العليا، الأساطير، والأنواع)، وقد خصص لكل واحدة منها فصلا في كتابه تشریح النقد. وهذه المبادئ البنيوية للأدب هي من تشكل نظامه المغلق، فالنص الأدبي لا يخرج عنها، وكل منتج مهما بلغت جدته واختلافه، فهو ينتمي لهذه المبادئ، ولذلك أكد فراي أن من وظائف النقد "قدرته على تحديد إلى ماذا ينتمي ذلك الشيء"^(١)، وبذلك يكشف فراي عن نظام الأدب بوصفه عالما مغلقا فهو في حالة خطية لا يحيد عنها، فهو في حالة "دوران إيكولوجي (بيئي) مغلق تقوم عليه النصوص"^(٢)، فيكون بذلك منعزلا عن سيرورة التاريخ، ومرتبطا بحالة أولية تحقق له استقلاله الذاتي.

وفراي يتمثل معطيات الخطاب العلمي ويعمل على تشكيل علمية النقد بحسبها، فما عملية رفضه لما سبقه من كتابات نقدية إلا تمثيلا لآلية الشك الديكارتي، محاولا رفض كل ما يمكن أن يحتمل الخطأ لأنه متغير، والعمل على تحديد ما هو ثابت لا يقبل الشك لبدايته وهو ما فرضه في مقولته (المبدأ المنسق). كما أنه يستحضر فرانسيس بيكون في عملية القفز والانتقال من الجزئي إلى حالة التعميم في القوانين^(٣)، مما يكسب قوانينه ومبادئه صفة اليقين القطعي. وتعامل فراي مع الأدب بوصفه مادة خرساء بحاجة إلى من يستنتقها هو تمثيل حقيقي لما قدمه

١ - تشریح النقد: ٤٥٦.

٢ - نظرية الأدب مدخل: تيري إيغلتن، ترجمة ثائر ديب، دار المدى: ١٥١.

٣ - ينظر: تشریح النقد: ١٨.

الفصل الثاني

نيوتن من تصوره للمادة، فالعقل هو من يستطيع التفسير والبيان، لأن المادة خرساء في هذا الكون، مما ينتج كونا مغلقا متصفا بالآلية الميكانيكية، وهذا ما حاول فراي تحويل النقد إليه.

٣- علمية النقد وانغلاق النظام اللغوي

قدمت فيما سبق نموذجين تأسيسيين لـ (النظرية النقدية) الأول محاولة ريتشاردز والتي حاول فيها التأسيس لمبادئ نقدية متكأ فيها - معرفياً - على السيكولوجيا لبيان سيرورة الأدب من حيث الانشاء والتلقي، فيتجلى النقد حقلاً منظماً ضابطاً لهذين الدورين، والثانية كانت لفراي والذي اتكأ على كلية القوانين في محاولة منه لاستقراء الأصول النقدية، وهو ما خلق نظاماً مغلقاً جرد فيه النقد من أي فاعلية في القراءة، فكان النقد إطاراً كاشفاً عن ترابطات النص الأدبي مع النماذج العليا وآلية حضورها. واللحظة الثالثة هي الشكلانية، بوصفها إطاراً مرجعياً في تمثيل الخطاب العلمي وسحب النقد الى ميدان العلم الحقيقي لا الاعتيادي ، والأنموذج الأكمل كان متجسداً فيما طرحه (ياكبسون)، وبالضرورة عند بيان علمية النقد عند ياكبسون يستدعي ذلك الحديث عن المنظر الأول (فرديناند دي سوسير) فهو من اكتملت مع مقولاته النظرية النقدية.

فرديناند دي سوسير اللغة نظام ثابت

قدم سوسير محاضراته باحثاً عن موضوع (علم) اللغة، وذلك من خلال تحديد دقيق لمكونات اللسان، ومن هذه الرؤية تشكلت ثنائية (اللغة/الكلام)، وثنائية (التزامني/الزمني)، ويرتبط بهما مفاهيم العلامة، والاختلاف، وبنية اللغة التقابلية.

والمعيار المعرفي الذي يحتكم إليه سوسير في طرحه هو البحث عن الثابت وعزلة عما يتغير أو ما كان متحركاً، وهذا المعيار يفترض حالة من التجريد

الفصل الثاني

لموضوع البحث، فهذا الثابت هو الضروري أو البديهي الذي لا يقبل التغيير على امتداد الزمن ، فكأنما سوسير فعل الشك الديكارتي، فعلق كل ما هو متغير، وسرحه خارج منظومته البحثية، وفائدة هذا الاشتغال هو ضمانه لبقية النتائج، فمحاولته هي كشف للقانون الذي يحكم الظاهرة المدروسة، وإذا ما تحقق اكتشاف هذا القانون، فإن الحديث عن النظام الكلي أمر مقبول عقلاً، وهذا ما ينتج لنا ثنائية خفية، وهي مقابلة (النظام/ الفوضى) وأصل المقابلة ما يمكن لنا أن نصفه بالثابت الذي تكون نتائجه حتمية، وبين ما ينفلت من سلطة الحتمية، وهذا الانفلات لا لكونه لا يمتلك قاعدة قانونية تحكمه بقدر ما هو عجز عن تحديد هذه القاعدة. فما كان متغيراً لا يمكنه أن يدعم فكرة التنبؤ بما سيكون.

وبحسب هذه الرؤية فحص سوسير كل ما يتعلق باللغة أو بشكل أدق (اللسان) مبيناً حالته بقوله "كل غير متجانس"^(١) وعدم التجانس في اللسان نابع من كونه متعدد المكونات، فهو يحتوي على اللغة ويشترك مع اللغة ببعد فسيولوجي وسايكولوجي فضلاً عن الفيزيائي^(٢)، وهذه الجوانب المتعددة فيه على الرغم من اشتراكها في اللسان إلا أنها مختلفة من حيث قواعدها الخاصة، مما يعني أنها لا تشترك بقانون معين يضمن لها وحدتها الداخلية، ومنه نقف على عدم امكانية الحديث عن (نظام) للسان، لأن شرط النظام هو (التجانس).

بما أن شرط النظام التجانس أي عدم الفوضى، فوجب أن نحدد أي جزء من اللسان يمكن له أن يتصف بهذه الصفة، وهذا تحديداً ما ينقلنا الى الجزء الأهم من

١- ينظر: علم اللغة: فردينان دي سوسور، ترجمة الدكتور يوثيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي د. مالك يوسف المطليبي، سلسلة كتب شهرية تصدر عن آفاق عربية عدد ٣، الأعظمية - بغداد، ١٩٨٥: ٢٧-٢٨.

٢ - ينظر: م . ن : ٢٧.

الفصل الثاني

أقسام اللسان وهو (اللغة)، في اللسان جزء يتسم بالثبات وهو ما يجب أن نهتم به، فدّنع كلتا قدمينا على أرض اللغة، ونستخدم اللغة مقياساً لجميع مظاهر اللسان، فاللغة وحدها... يمكن أن تخضع -على ما يبدو- لتعريف مستقل بذاته، وتقدم في الوقت نفسه الركيزة التي ترضي العقل^(١).

فتعريف اللغة بوصفها نظاماً ثابتاً متجانساً يوفر إمكانية جعلها مقياساً لغيرها، وهو مبدأ يعتمد على الدرس السيميائي في تحديد مبادئه. وهذا التعريف هو من يرضي العقل، وهذا الرضا يجعلنا نقف على أثر العقل في تحديد ما هو نظامي، هذا هو العقل هو الكلي القادر على كشف وتفسير مظاهر الكون مما يعني إبعاد لكل مقولة تؤثر في تحديد ماهية اللغة وتكون لا عقلية، وعليه فهو المعيار الحقيقي في تحديد أي نظام.

ولتحديد (أرض اللغة) كان لزاماً تحديد مادتها التي تكونها، وهي (العلامة) اللغوية بجزأيا (المدلول-الدال)، والعلاقة بين هذين العنصرين اتصالية فهما المادة الأولية للغة، فالعلامة "الوحدة اللغوية كيان ثنائي، كيان يتألف من الربط بين عنصرين"^(٢) وأهم ما يميز هذه الوحدة أنها تقصي الواقع الذي تمثله، فالعلاقة بين المدلول والدال وليس للشيء في الواقع ارتباط بهذه الوحدة، فالعلاقة هي ارتباط "بين الفكرة والصورة الصوتية وليس بين الشيء والتسمية"^(٣)، وهي "كيان سايكولوجي"^(٤)، والسبب في إقصاء الواقع المادي هو اتصافه بعدم الثبوت، فلا تتحقق فكرة النظام إن كان للواقع حضور، وهنا قلب سوسير الرؤية السائدة في كون اللغة تعكس الواقع

١- ينظر: علم اللغة: ٢٧.

٢- م . ن : ٨٤.

٣- م . ن : ٨٤-٨٥.

٤- م . ن : ٨٥.

الفصل الثاني

لأنها تمثيل له، بل هي من تُنتج الواقع^(١). واقصاء المرجع الواقعي يضيف على الواقع صفة التغيير، فما كان متغيراً ينفلت من النظام والتحديد هو ما لا يرضي العقل. واقصاء الواقع رافقه اقصاء للفرد أيضاً، فالفرد المتكلم لا ينتج اللغة بل يستهلكها بشكل سلبي، بل ليكون فرداً عليه أن يكسب وجوده اللغوي أولاً فاللغة "ليست وظيفة الفرد بل هي نتاج يهضمه الفرد بصورة سلبية"^(٢)، وعلية فلا وجود لعلاقه طبيعية بين الفرد والواقع وبين اللغة، وهما لا يؤثران بها بل على العكس تماماً، ومن هنا وجب أن يبين سوسير طبيعة العلاقة بين عنصري العلامة، فإذا لم يكن للفرد أثر في تكوين العلامة اللغوية ولم يكن للواقع أثر أيضاً فما هو القانون الجامع لهذين العنصرين المكونين للعلامة (المدلول- الدال)؟

وهنا تطل الاعتباطية بحمولتها غير المنطقية لتكشف عن حضورها "إن الإشاره [العلامة] اللغوية اعتباطية ففكرة الأخت Sister لا ترتبط بأية علاقة داخلية بتعاقب الأصوات $s - o - r$ التي تقوم بوظيفة الدال في اللغة الفرنسية"^(٣) وهذه الاعتباطية تعتمد على العرف الاجتماعي، فالعلامة "اعتباطية لذا فهي لا تخضع لأي قانون سوى قانون العرف، ولما كانت تستند الى العرف فهي اعتباطية"^(٤) فالعرف ينتج الاعتباطية، والاعتباطية تنتج العرف، وهذا بحد ذاته يعني أن (أ) تعتمد على (ب) و(ب) تعتمد على (أ)، وهو ما يسمى بالدور المنطقي، وسوسير يعي هذا التناقض "إن النظام اللغوي بأجمعه يستند الى هذا المبدأ غير المنطقي وهو

^١ - ينظر: نظرية الأدب: ١٧٥.

^٢ - علم اللغة : ٣٢.

^٣ - م . ن : ٨٧.

^٤ - م . ن : ٩٢.

الفصل الثاني

اعتباطية الإشارة"^(١) إلا أن هذا التناقض يؤخذ من جهة تدخل الواقع في تشكيل العلامة، وبما أن سوسير أقصى الواقع فهو مقبول عنده مادام يوفر إمكانية تدعيم نظام اللغة.

واللغة هي مجموعة العلامات، وهذه العلامات تفرض نمطاً من العلاقات والتي تهيكّل النظام ولها نموذج موحد هو (علاقة التقابل)، فكل عنصر (المدلول والبدال) والعلامة بكتلتها تخضع له "إن كل عنصر من العناصر اللغوية يستمد قيمته من تقابله مع العناصر الأخرى"^(٢)، فلا قيمة للعنصر بذاته، فلا امتياز جوهري فيه سوى الاختلاف عما يقابله، فقيمة العلامة تنتج من اختلافها السلبي عن العلامات الأخرى، وهذا الاختلاف قائم على فكرة الاعتباطية فهي من تدعمه وتعطيه حق الاستمرارية، ومنها يكتسب النظام صفة الثبات، فلا مؤثر خارجي أو جوهري سابق في وجوده لوجود العلامات ينتج هذا الثبات. وهذا الثبات يمنع التغير في صيرورة النظام "إن الطبيعة الاعتباطية للإشارة هي في الحقيقة العامل الذي يقي اللغة من أية محاولة لتغييرها"^(٣)، وما ينتج عن هذا القانون أن الشكل الذي تتحقق به العلامة لا يؤثر أو لا يشكل عقبة في النظام نفسه لأن اللغة بوصفها نظاماً هي هذه العلاقات التقابلية التي تؤسس للاختلاف السلبي المبني على اعتباطية مكونات العلامة. وإذا ما حدث تغيير في اللغة فهو لا يقع في النظام بل يكون في جانب آخر هو (الكلام) وهو معطى فردي يخضع لقصد المتكلم واشتراطاته التاريخية، وهذا ما يخلق مقابلة بين (اللغة/ الكلام) وطرف التضاد الأخير يصفه سوسير بأنه فردي، ثانوي

١- علم اللغة: ١٥٣.

٢- م . ن : ١٠٦.

٣- م . ن : ٩١.

الفصل الثاني

وعرضي^(١) وهو قابل للتغيير مما يعني أنه لا يتسم بالثبوت والانسجام، وهذا ما جعله مقابلاً ضدياً للغة بوصفها نظاماً، وأهم سمات هذا النظام أنه "لا يتغير ابداً بصورة مباشرة فالنظام بحد ذاته غير قابل للتغيير"^(٢).

ينتج مما سبق أن سوسير يبحث عن (الثابت) الذي لا يقبل التغيير، أي البحث عن اليقين الدائم، وهذا ما تمثل في اللغة، ويقابله ما يتسم بالتغيير المستمر وهو (الكلام). ومن امتيازات هذا النظام الثابت أنه منسجم، فلا إمكانية لوجود خلل فيه، وكل تغيير يمكن أن يطرأ على مستوى التمثيل الفردي ويقبله المجتمع، لا يمكن إلا بخضوعه أو إلا باعتراف النظام فيه فلا وجود لشيء خارج النظام، بل لا يوجد شيء إن لم تقبله اللغة. وهذا ما استلهمته الشكلانية والبنوية والسيمائية في درسها النقدي وأصل القول فيه البحث عن النظام أو البنية أو القانون الذي يحكم الظاهرة، وهو تحول مهم إذ بإقصاء الواقع والفرد سوف تسقط الأحكام التقييمية في النقد الأدبي، وهذا ما سنشرع في بحثه للوقوف على النموذج الأكمل للنظرية النقدية التي استلهمت الخطاب العلمي.

٤- أثر (النظام) السوسيري في النظرية النقدية

تاريخياً، ولدت الشكلانية من تظافر جهود مجموعة كبيرة من (الباحثين) في الشأن الأدبي- النقدي، ضمن امتداد زمني يبدأ بما قدمته حلقة موسكو اللغوية ١٩١٥ ومن ثم الأبويان ١٩١٧ وصولاً إلى حلقة براغ ١٩٢٦ والتي أكدت البعد

^١ - علم اللغة: ٣٢.

^٢ - م . ن : ١٠٣.

الفصل الثاني

الحتمي في مآل الشكلائية البنيوي^(١)، ولقد كان المؤثر الأبرز في هذا المآل هو (رومان ياكبسون).

كان الهم الأول لهذه المجموعة هو معالجة النقد، وذلك بالتأسيس لمقولتين معرفيتين: الأولى العمل على تجريد الاشتغال النقدي مما لا يرتبط بموضوع الأدب، أو لنقل التخلص مما يفسر الأدب بوصف الأدب حقل تجارب يبين صدق نظريات لا أدبية، فلم يكن من شأنهم البحث عن جوهر الأدب ولا البحث في أغراضه ولا السعي بحثاً عن أهدافه^(٢) وهذه الخطوة هي تكرار للممارسة العقلية لديكارت، في تعليق كل ما هو موجود، فالنقد لديهم يجب أن يخلص من كل طروحات سابقة على الإجراء النقدي وذلك بـ"التنصل من كل المسبقات الفلسفية فيما يتعلق بطبيعة الخلق الفني، كما لم يهتموا بالتأمل في الجمال والمطلق"^(٣)، ومن هنا سقطت الأحكام التقويمية، مما يعني تحول النقد إلى إجراء (وصفي)، وهذا يقودنا إلى تصور مهم في تعميم التجربة الأدبية - الفنية، وهذا ما يقودنا إلى مقولتهم المعرفية الثانية وهي تحديد (موضوع) الدرس النقدي، فما يجب أن نركز عليه هو (الأدب) بذاته وهو ما فتح الباب للتعامل مع البناء اللغوي، فكل ما يتعلق بالبعد الاجتماعي والنفسي والظرف الخارجي الذي يولد فيه (العمل الأدبي) هو خارج (الأدب) وهذا ما أفرز لنا مقولة (الأدبية) فليس الأدب في عمومها يمثل موضوع (علم الأدب)، إن موضوعه هو (الأدبية)، أي ما يجعل من أثرٍ ما أثراً أدبياً^(٤) وبذلك يكون محور الدرس النقدي

^١ - ينظر: نظرية الأدب: ١٦٠.

^٢ - ينظر: م . ن : ١٣.

^٣ - م . ن : ١٣.

^٤ - م . ن : ١٥.

الفصل الثاني

اجرائياً الاهتمام بالعمل الأدبي وأجزائه المكونة، وكذلك التأكيد على استقلال علم الأدب.

وهنا تحديداً علينا مراجعة هذا السؤال وهو ما المقصود ب (علم) الأدب؟ وما هي الوسائل التي يتحقق بها هذا (العلم)؟ يقدم مايكل روس تعريفاً للعلم، وهو تعريف مؤسس بحسب قواعد الخطاب العلمي إذ "يتعامل العلم فقط مع الأمر الطبيعي والقابل للتكرار وما يحكمه القانون"^(١) فيحدد شروطاً ثلاثة (طبيعة المادة، قابلية للتكرار، وجود قانون يحكم المادة) والأدب بوصفه موضوعاً قائم على اللغة، لا بطابعها التمثيلي، بل بالارتداد إلى المادة نفسها مقطوعة عن الواقع. وعلى هذا الأساس فرق بين الخطاب الشعري والانفعالي والمعرفي، والأصل هو في إدراك نمط العلاقة بين ركني العلامة، فالمعرفي يهتم بقدرة العلامة على تمثيل الواقع وهو ما يدعو للبحث في مطابقة الخطاب للواقع، والبعد الانفعالي قائم على تضخيم البعد الصوتي للعلامة مع الاهتمام بالحمولة التواصلية، وعلى العكس منهما يؤكد الخطاب الشعري على اختزال الوظيفة التواصلية^(٢)، وهذا الجانب يخضع للتكرار مما يعني أنه حاضر في كل عمل أدبي، فما يتم التوصل إليه بوصفه قاعدة كما في التفريق السابق لا بد من تكراره في سلسلة من النصوص، والتكرار هو السمة الكاشفة للقانون "إن الكلمات ... مادة الأثر الأدبي نفسها، الأدب يتكون من الكلمات وهو محكوم بالقوانين المتحكمة في اللغة"^(٣) ويؤكد ياكبسون "إن الشعرية والاتجاهات الأدبية

^١ - أقوى براهين د. جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري الدين: جمع وترتيب م. أحمد حسن، مركز دلائل، الرياض-المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٨هـ: ٤٨.

^٢ - ينظر: الشكلانية الروسية: فيكتور إيرليخ، ترجمة الولي محمد، الناشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط١، ٢٠٠٠: ٢٦.

^٣ - م. ن. ٣٤.

الفصل الثاني

المجاورة تؤكد بطريقة ملموسة أن الكلمة توفر لنفسها قانونها الخاص^(١) والبحث عن القانون هو الهدف الأسمى للشكلانية، القانون هو مقولة النظام، ومن تحقق هذه الشروط الثلاثة تتحقق علمية الأدب وذلك بالكشف عن الأدبية، فالأدبية هي القانون الذي يجعل من هذا النص أدباً، كما أنه يفرق عن غيره، فللخطاب الآخر قانونه ونظامه، فإذا كان فوضوياً يخرج عن هذا النص وهذا ما جعل اللسانيات المتكأ العلمي للشعرية عن ياكسون.

إن التصور العلمي للاشتغال النقدي هو من فرض استبدال ثنائية (الشكل-المحتوى) ب(الأداة- المادة)، فاللغة - الكلمة هي (المادة) الأساسية للخطاب الشعري وهذه الثنائية ليست تقابلية، إنما هي من نمط الاستعمال والتوظيف لهذه المادة مما يعني اسقاط مبدأ المحاكاة أو التمثيل ف"لقد حدد عمل الشاعر بوصفه استعمالاً للغة أكثر مما هو محاكاة للواقع"^(٢) فليست مهمة الشاعر نقل الواقع، ويترتب عليه عمل الناقد بإقصاء الواقع بوصفه معياراً لتفسير الأدب. وهذا التوجه أفضى إلى مفهوم (الأداة) التي يتمكن من خلالها الشاعر من التعامل مع المادة، وهذه الأداة تأخذ دور الوسيط في مشروعية (أدبية) النص المنتج، يؤكد شكولوفسكي على الأداة (التغريب) الذي يخلق الأدب والذي ينتج (عدم الألفة) أو إعادة الإدراك للشيء فنياً، ف"غرض الفن هو جعل الأشياء تبدو (غير مألوفة) جعل الأشكال صعبة، كي يزيد من صعوبة وطول عملية الإدراك... الفن طريقة لتخبر فنية الشيء، أما الشيء نفسه

^١ - قضايا الشعرية: رومان ياكسون، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر،

الدار البيضاء-المغرب، ط١، ١٩٨٨: ١٩.

^٢ - الشكلانية الروسية: ٣٤.

الفصل الثاني

فليس مهماً^(١) وفي تحليله لنص تولستوي يقول "تولستوي يجعل المؤلف يبدو غريباً... تولستوي يستخدم تكنيك التغريب هذا باستمرار"^(٢) لذلك كانت الأداة هي هدف الشكلانية "الفن باعتباره أداة، وأداة التغريب، والكشف عن الأداة، والأثر الأدبي عبارة عن مجموع الأدوات المستخدمة فيه، يبدو في كل هذه الصيغ الأساسية مفهوم (الأداة) بوصفه مفتاحاً، وهو الوحدة الأساسية للشكل الشعري أو هو وسيط الأدبية"^(٣). إن الأدب هو صناعة توفرها (تقنيات) أدوات تخلق الامتياز الجمالي، فكل شيء مرهون بالمادة المستعملة بحسب صيغة محددة، فجعل الأدب نصاً بؤرة الاهتمام، وهذا التحديد هو من أكسبهم الطابع العلمي، أو الكيفية التي تتحقق بها عملية المنجز ككل "إن الانتقال الذي أنجزته النظرية الشكلانية من الطليعة الفنية (الرمزيون) إلى الطليعة العلمية (الشكلانية) لم يكن انتقالاً عرضياً ولا غير قابل للتفسير"^(٤)، ولكن ما الذي يفرضه العلم بعد تحديده للشروط وكيفية تحققه؟ حتى يكتمل المشروع الشكلاني علمياً، كان الاهتمام ينحصر في تحديد موضوع العلم وليس الهدف تحقيق منهج كلي، أي أنه عمل استقرائي، يشتق ويعمم مبادئه بحسب ما يفرزه الموضوع (الأدب) بنفسه، فما يقدمه الأدب هو الأصل "أن نتحدث فقط عن بعض المبادئ التي توصلنا إليها بواسطة دراسة ملموسة، دراسة خصائصها النوعية، وليس بواسطة نظام جاهز منهجي أو جمالي"^(٥) فكان مبدأ نوعية وعينية العلم هو

^١ - الفن باعتباره تكنيكياً: فيكتور شكوفسكي، ترجمة عباس التونسي وحسن البنا، مجلة ألف،

١٩٨٢: ٧٨.

^٢ - م . ن : ٧٩.

^٣ - الشكلانية الروسية : ٣٥.

^٤ - نظرية المنهج الشكلي نصوص الشكلانيين الروس: ترجمة إبراهيم الخطيب، الناشران مؤسسة

الأبحاث العربية بيروت - لبنان، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ط١، ١٩٨٢: ٢١.

^٥ - م . ن : ٣٠.

الفصل الثاني

المبدأ المنظم للمنهج الشكلاني^(١)، النوعية هي مجموعة الخصائص المميزة للأدب، خصائص تؤخذ من الأدب نفسه لا من خارجه فهيا قوانينه التي تجعله خطاباً مغايراً، أما العينية فهي المادة التي تتشكل بحسب التقنيات، وهذا الطابع (النوعي) هو سمة للخطاب العلمي، وهذا ما دفع فراي للبحث عن (مبادئ وقوانين) وجعل ريتشاردز يفرد كتاباً أسماه (مبادئ النقد الأدبي). فالعلم يفرض دراسة الوقائع تجريبياً للوصول إلى قوانينها، وإذا ما صادف أن تكون النتائج (غير علمية) أي على أقل تقدير غير قابله للتكرار فلا تعمم بوصفها قوانين، فيتم تغييرها حتى الوصول إلى الجوهر النوعي. وهذا تأكيد لفكرة الموضوعية، يقول ايخنباوم "لم يكن لدينا وليس لدينا حتى الآن مذهب أو نظام جاهزين لقد كنا في عملنا العلمي نقدر النظرية كفرضية للعمل، فقط، نستطيع بمساعدتها أن نشير إلى - وأن نفهم - الوقائع: تكشف صفتها النظامية التي بفضلها تغدو تلك الوقائع مادة للدراسة"^(٢)، ويضيف "كنا نضع مبادئ ملموسة ثم نتمسك بها في حدود إمكانية تطبيقها على مادة ما، فإذا اقتضت المادة تعقيداً أو تغييراً لمبادئنا فعلنا ذلك مباشرة"^(٣) والسبب في ذلك "أن العلم يعيش متخطياً الأخطاء وليس وهو يضع الحقائق"^(٤). إن تخطي الأخطاء لا يعني الاعتراف بأن الخطأ جزء من الظاهرة أو الواقعة المدروسة، حاضر قدر حضور، الصواب، إن فكرة الكمال التي تحرك البعد المعرفي هي من تؤسس لهذا الخطاب العلمي، الذي يسعى للحقائق الكلية، فالحقيقة هي ما لا خطأ فيه، إنه النموذج المعرفي الذي يعتقد بوجود حقائق ثابتة ذات أصل واحد، والوصول إليها ليس عملاً يسيراً، فهو مرهون بالعوائق، وقيمة العلم هي بالوصول إلى المبدأ الحقيقي الذي لا خطأ فيه، لأن المبدأ متصف

^١ - نظرية المنهج الشكلي نصوص الشكلانيين الروس: ٣٥.

^٢ - م . ن : ٣٠-٣١.

^٣ - م . ن : ٣١.

^٤ - م . ن : ٣١.

الفصل الثاني

بالكمال، وهذا ما يتعارض ونظرية الفوضى، والتي ترفض تجريبياً، وجود هذا الأصل الثابت، لأنها تنطلق من (النقص) لا من (الكمال) فالخطأ شريك فاعل وحقيقي، فالحقيقة نسبية أصالة، والأصل الثابت وهم 'كان الشكلايون يتميزون بصلتهم الوثيقة بالأدب المعاصر، وتقريبهم للنقد من العلم"^(١)، إذا كان الاشتغال الشكلاي علمياً، وذلك باستثمار الطريقة العلمية في دراسة الواقعة الأدبية، وهدف العلم والشكلاية كذلك الكشف عن القانون الذي يحكم الواقعة أو الظاهرة موضع الدرس، وهذا الهدف لم يتحقق بشكل تام في الدرس الشكلاي، إلا عند تحولهم إلى البنيوية وهي الممثل الحقيقي للخطاب العلمي، يقول ياكيسون "إن علينا أن نحدد الفكرة التي تقود العلم الحالي بتجلياته الأشد تنوعاً فمن الصعب أن تقع على خيار أنسب من البنيوية، فالعلم المعاصر لا يعالج أية مجموعة من الظواهر التي يتفحصها بوصفها كتلة ميكانيكية وإنما باعتبارها كلاً بنيوياً، أو نظاماً تتمثل المهمة الأساسية فيه بالكشف عن قوانينه الداخلية سواء كانت سكونية أو تطويرية"^(٢) وهو ما حاول ياكيسون في انجازه في بحث الشعرية، وهو نموذج تم استثماره من قبل ليفي شتراوس ورولان بارت و بروب.

أخذ ياكيسون على عاتقه الكشف عن قانون الأدب أو البنية النظامية الرئيسة التي تنتج الأدب وذلك بما قدمه في (الشعرية). وكما بينا فيما سبق أن مدار الاهتمام هو اللغة نفسها وعليه كانت نظرية الشعرية تستند معرفياً إلى مقولات علم اللغة فـ"الشعرية تهتم بقضايا البنية اللسانية...وبما أن اللسانيات هي العلم الشامل

^١ - نظرية المنهج الشكلي نصوص الشكلايين الروس: ٦٦.

^٢ - الاتجاهات الأساسية في علم اللغة: رومان ياكوبسون، ترجمة علي حاكم صالح د. حسن ناظم، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، الدار البيضاء - المغرب، ط ١، ٢٠٠٢: ١٣.

الفصل الثاني

للبنيات اللسانية فإنه يمكن اعتبار الشعرية جزءاً لا يتجزأ من اللسانيات^(١) ومن هذا النسب العلمي لحقل الشعرية طَوَّر ياكبسون مقولاته اللسانية باستثمار ما قدمه سوسير، سعياً منه للكشف عن النظام الذي يميز ويجعل من عمل لغوي منتجاً أدبياً. كانت نظرية الفونيم هي الخطوة الأولى في تطوير لسانيات سوسير، وفيها عمل ياكبسون على استكشاف الفونيم لا بوصفه كتلة مادية لا يمكن انحلالها إلى أجزاء مكونة، بل عمد إلى استقراء الحدث الكلامي مبيناً أن لكل فونيم سماته الاختلافية السلبية، لا مضمون يرتبط به، فقيمته الوحيدة هي اختلافه الذي يضمن وجوده "إن التقابل بين فونيمين ليس له مضمون إيجابي مطلقاً"^(٢) وهذا الفونيم في الحدث الكلامي يتحلل إلى مجموعة من السمات التمييزية، وبسببها يتم تحديد وظيفة الفونيم بوصفه أداة لتحديد المعنى وتمييزه، ف"الفونيمات...تساعد على تمييز معاني الكلمات"^(٣) وأهم سمة لهذا الفونيم هو صفته التقابلية والتي تفرض عليه في لحظة تحققه واقعياً في الحدث الكلامي أن يكون له حضور ولدينا كسامعين وعي بحضور الطرف المقابل، وذلك بسبب السمات التمييزية للفونيمات، فكل دال تتحقق فيه لحظة نطقه هذه التقابلية (حضور/غياب) وعلى المحورين التعاقبي والاختياري^(٤) مما يعني إمكانية "إصدار بضع سمات تمييزيه في الوقت نفسه"^(٥) وهذا أول نقض لما قدمه سوسير حول خطية الدال.

^١ - قضايا الشعرية: ٢٤.

^٢ - ست محاضرات في الصوت والمعنى: ترجمة علي حاكم صالح وحسن ناظم، دار الرافدين، بيروت لبنان، بغداد العراق، ط٢، ٢٠١٩: ٩٦.

^٣ - م . ن: ٦٣.

^٤ - ينظر: م . ن: ١٣٧-١٣٨.

^٥ - م . ن: ١٣٢.

الفصل الثاني

إذا علمنا أن الدال مكون من أصوات متعددة لها سمات تمييزية قادرة على تحديد معاني الكلمات فهل تبقى الاعتبارية حاضرة في نظرية ياكبسون؟، إن ياكبسون يلحظ الفجوة المنطقية التي تؤسس للاعتباطية، فينظر إلى نمطين من العلاقة في العلامة، فهناك العلاقة الداخلية وهي بين (الدال-مدلول) والعلاقة الخارجية بين (الدال-مدلول- والشيء الخارجي)^(١) وعلية فإن ارتباطاً لا اعتبارياً ينشأ بين السمات التمييزية والمعنى الذي تميزه، وهو ما أسماه (العلاقة الضرورية) التي تنتجها العلاقة التقابلية للسمات التمييزية للفونيم، مما يدل على وجود ارتباط حسي يستدعي هذه العلاقة الضرورية، وعليه تتحقق رمزية العلامة اللغوية في الشعر^(٢)، ما الذي تعنيه العلاقة الضرورية؟ إن الضرورة تعني الاستلزام، أي أن الاختيار الخاص بالدال عند سوسير لمدلول ما ليس تصادفياً أو اعتبارياً إنما هو ضروري، والضروري تعني "أمراً دائماً الوجود"^(٣) فالعلاقة طبيعية وكل ارتباط بين علة ومعلول هو ارتباط حتمي وضروري والفونيم وسماته التمييزية هي علة وجود وتمييز المعنى، فالعلاقة حتمية ضرورية أصالة. فإذا كانت العلامة بحسب سوسير تمثل وحدة أولية قائمة على علاقة غير منطقية، فإن ياكبسون يؤكد على وجود هذه البعد المنطقي والمعقول في العلامة، وهي علاقة ناتجة عن البعد التجريبي الذي أنجزه ياكبسون في تنظيره للشعرية. إذاً نحن على مستوى الخطاب الشعري ملزمون بالبحث عن رمزية البعد الصوتي في النسيج اللغوي للنص، والبحث عن تقنية يوظفها منتج النص في خلق خطابه. كما ميّز ياكبسون ذلك في شعر ملارميه^(٤). ولكن حتى الآن لا خطية العلامة ولا اعتباريتها، يوجدان في كل تواصل لغوي، ولذلك نسأل كيف يمكن أن

^١ - ينظر: ست محاضرات في الصوت والمعنى: ١٤٦.

^٢ - ينظر: م . ن : ١٤٨.

^٣ - المعجم الفلسفي: ٧٥٩/١.

^٤ - ينظر: ست محاضرات في الصوت والمعنى: ١٤٨.

الفصل الثاني

تخلق السمات النوعية للأدب؟، وهذا يوجب تحديد الحدث التواصلية بكلية ومن ثم بيان وظائف عناصره، يحدد ياكبسون ستة عناصر للتواصل (مرسل - سياق - رسالة - قناة اتصال - سنن - مرسل إليه)^(١) ترتبط بها وظائف (انفعالية - مرجعية - شعرية - انتباهية - ميتالسانية - إفهامية)^(٢) ويتميز النص الشعري عن غيره بأن تكون الوظيفة المهيمنة على اللغة هي (الشعرية) يقول ياكبسون "إذا ظهرت الشاعرية أي الوظيفة الشعرية بلغت في أهميتها درجة الهيمنة في أثر أدبي فإننا سنتحدث حينئذٍ عن شعر"^(٣) وهذا لا يعني اختفاء الوظائف الأخرى إنما حضورها يختزل عند هيمنة الوظيفة الشعرية.

وهذه الوظيفة الشعرية ذات الامتياز النوعي للخطاب الشعري تتحقق من خلال تغيير في محوري الانتاج اللغوي، فإذا كان محور التأليف يعتمد قانون المجاورة، ومحور الاختيار يعتمد قانون المشابهة^(٤) في الحدث التواصلية غير الشعري، فإن الخطاب الشعري يحور هذه القوانين على المحورين فتسقط الوظيفة الشعرية (مبدأ التماثل) لمحور الاختيار على محور (التأليف)^(٥) إي أن الخطاب الشعري يمتنع بنيوياً عن تمثيل الواقع بحسب محور التأليف وقانون المجاورة يرتكز على إبراز السمات الشكلية للغة باستعمال مبدأ التماثل بديلاً عن المجاورة.

ولذلك نبدأ البحث مع ياكبسون عن الوظيفة الشعرية التي تتجهها هذه البنية، ومدى تحققها تقنياً على مستوى النص "ويوضع كل مقطع في الشعر في علاقة

^١ - ينظر: قضايا الشعرية : ٢٤.

^٢ - ينظر: م . ن : ٣٣.

^٣ - م . ن : ١٩.

^٤ - ينظر: م . ن : ٣٣.

^٥ - م . ن : ٣٣.

الفصل الثاني

تماثل مع كل المقاطع الأخرى لنفس المتوالية ومن المفروض أن يكون نبر الكلمة مساوياً لنبر كلمة آخر، وعلى نفس المنوال تساوي الكلمة غير المنبورة، الكلمة غير المنبورة^(١).

إن تحديد الآلية التي ينتج بها الخطاب الشعري هي تحقيق لنظام الشعر، أو الفن الأدبي، فعملية إسقاط قانون المشابهة على محور التأليف هو القانون المنتج والمميز لنص لغوي، فيكسبه هويته بوصفه (أدباً). إن اكتشاف النظام السوسيري مثله ياكبسون في الشعرية، ولم يقتصر على ياكبسون فقط، فقد قدم بروب أيضاً نموذجاً بنيوياً مهماً في اكتشاف نظام القصص العجيب، وفيها حدد بروب منهجه بشكل واضح في استظهار (نظام) القصص بقوله "إن دراسة القصة لا بد أن تتم، وهذا ما كان عليه الأمر في بحثنا، وفق منهجية استنتاجية deductive صارمة، أعني أن ننتقل من الجسمان إلى النتائج"^(٢) أي المنهج الاستقرائي الذي ينتقل من الجزئيات إلى الكليات وهو السمة التي يمتاز بها الخطاب العلمي الحديث كما بين ذلك فرانسيس بيكون.

والهدف الذي يسعى إليه بروب كان مستندا إلى قاعدة علمية وهي الكشف عن (الثابت) في هذه القصص ومن خلال استعراض مجموعة من الأمثلة يحدد بروب "قيماً ثابتة وأخرى متغيرة"^(٣) هذه القيم الثابتة التي لا تتغير هي مجموعة من الوظائف المحددة التي تبنى بحسبها القصص وهي محدودة بعد استقرائها بـ "إحدى

^١ - قضايا الشعرية: ٣٣.

^٢ - مورفولوجيا القصة: فلاديمير بروب، ترجمة د. عبد الكريم حسن ود. سميرة بن عمو، شرع للدراسات للنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م : ٤٠.

^٣ - م . ن : ٣٧.

الفصل الثاني

وثلاثين وظيفة^(١) ولا يشترط حضورها في القصة الواحدة بل تتحقق بحسب نسق محدد، وتراتبها ضروري، لأنها مرتبطة بمجموعة من العناصر، وعددها سبعة عناصر^(٢)، هذه العناصر وحدات ثابتة أو هياكل فارغة تمارس أفعالاً محددة هي وظائفها، وبحسب النسق القصصي تتشكل القصة العجيبة، فالنظام في القصص العجيب له مادة أولية هي العناصر السبعة، تنتج هذه العناصر (٣٢) وظيفة، وهذا يقابله الاستعمال الفردي الذي يوظف مجموعة من العناصر والوظائف. وقد طور غريماس هذا الاتجاه فأكسبه بعداً بنيوياً أكثر صرامة، فوقف على الثوابت التي تحكم أي فعل أو حدث، هذه الثوابت هي ما اصطلح عليه (النموذج العملي)، فههدف غريماس هو الكشف عن "آليات ثابتة تحكم التحولات المتنوعة المتجلية في أنماط السرد المعروفة"^(٣) وعليه نحن نتحدث عن نظام السرد مهما كان نوعه، والنموذج العملي هو "نظام خاضع لعلاقات قارة بين العوامل"^(٤) وهذه العوامل هي (مرسل - مرسل إليه) و (فاعل - موضوع) و (مساعد - معارض)^(٥) وتترتب بحسب قدرة هذه الأزواج الثنائية ووظائف محددة وهي على التوالي (الاتصال - الرغبة - القدرة)^(٦) والعناصر ونمط الوظيفة التي تستلزمها، يُبنى النص السردي، سواء كان حدثاً واقعياً أو نصاً فنياً خرافياً أو واقعياً، فالنظام السردى ثابت.

^١ - مورفولوجيا القصة: ٨١.

^٢ - ينظر: م . ن : ٩٧-٩٨.

^٣ - في الخطاب السردى نظرية قريماس: محمد ناصر العجمي، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٩١: ٣٦.

^٤ - م . ن : ٣٨.

^٥ - ينظر: م . ن : ٤٠.

^٦ - ينظر: م . ن : ٤١-٤٢.

الفصل الثاني

والنظام الثابت لم يقتصر على السرد والشعر، فقد امتد ليشمل مظاهر الحياة كلها وهذا ما تكفل به رولان بارت ليؤكد أن نظاماً للألبسة والطعام وحتى السيارات والآثاث، والأساس فيها كلها سوسير بوجود نظام ثابت ويقابله الاستعمال المتغير. يقول بارت "سنسلم إذن بوجود مقولة عامة اسمها (اللسان/الكلام) مطردة تمتد لتسع كل أنظمة الدلالة"^(١) والتسليم بهذه المقولة العامة يعني أن ثنائية (اللسان/الكلام) قضية بدئية لا تحتاج لبرهان يثبت وجودها، وعليه فما نعمل عليه هو استكشاف مصاديقها الواقعية فاللباس "مجموعة منظمة من الأدلة والقواعد إنه لسان صرف"^(٢) ويفصل بالاستعانة بما قدمه تروبتسكوي هذا اللسان "يتكون اللسان اللباسي من (١) تعارض الأثواب أو القطع أو (التفاصيل) التي يؤدي التنويع فيها إلى تغيير في المعنى... (٢) القواعد المتحكمة في الجمع بين الأثواب سواء على طول الجسم أم بحسب الكثافة"^(٣). أما الكلام فهو ميدان الاستعمال الواقعي للباس أي الارتداء الشخصي تحديداً، وهذا ما تجده أيضاً في الطعام، فلسان الطعام هو: (١) ماحدد بوصفه محرماً، (٢) التعارض الدلالي بين الوحدات (مالح/حلو)، (٣) التأليف بين مجموعة مأكولات، (٤) طريقة الأكل (طقوسه) والتي يسميها بلاغة غذائية^(٤).

^١ - مبادئ في علم الأدلة: رولان بارت، ترجمة وتقديم محمد البكري، دار الحوار للنشر والتوزيع،

سورية-اللاذقية، ط٢، ١٩٨٧: ٤٩.

^٢ - م . ن : ٥٠.

^٣ - م . ن : ٥١-٥٢.

^٤ - ينظر: م . ن : ٥٢-٥٣.

الفصل الثاني

إن ما تقدم هو "تكييف استعاري لمبادئ سوسير"^(١) فهناك نظام لغوي أدبي، لباسي، طعامي... الخ، يتعارض مع البعد الفردي في الاستعمال فيكون الكلام والأعمال الأدبية والزي والوجبة الغذائية.

المؤسس	النظام	الممكن من النظام
سوسير	اللغة	الكلام
ياكسون	الأدبية	الاعمال الادبية مناظره للجمل
بروب	عناصر + وظائف	أنماط وأنساق
غريماس	عناصر + علاقات	الخطاب السردى
بارت	لسان اللباس لسان الطعام	الزي الضرورى الوجبة الغذائية

٥- الأسس المعرفية للنظرية النقدية

١- تحديد موضوع النقد

تقدم في البحث نماذج، تمثل اشتغالاتهم تحولا تطويريا لـ(النظرية النقدية) بشكل متزامن لمقولات الخطاب العلمي، وهذا التزامن هو من دفع رواد النظرية النقدية إلى تحديد (موضوع) النقد، وهو ما يحقق استقلالية النقد، فيتخلص النقد والأدب مما هو غير نقدي. وهذا التحديد استلزم فعلين، الأول: معاملة الأدب بوصفه تجربة من تجارب الإنسان، وهذا ما أكد عليه رتشاردز، فجعل الأدب تجربة مساوية لتجربة ارتداء الملابس، وكذلك فعل فراي بجعل العمل الأدبي امتدادا لنماذجه العليا، والتي تتحكم بالسلوك الإنساني، وكذلك

^١ - بؤس البنيوية الأدب والنظرية البنيوية دراسة فكرية: ليونارد جاكسون، ترجمة ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق-سوريا، سلسلة دراسات فكرية عدد ٦٨، ٢٠٠١ : ١٠٩.

الفصل الثاني

فعلت الشكلائية بجعلها الأدب في الأصل تجربة تواصلية، وهذا ما أسس للفعل الثاني: وهو العمل على بيان جوهر التجربة الأدبية، بمعنى البحث عن الخصوصية النوعية لهذا المنتج، وفيه أكد رتشاردز على قدرة التجربة الأدبية على تنظيم الانفعال العاطفي، أما فراي فقد جعل من العمل الأدبي متجاوزا لتمثيل الواقع، فهو ميدان لاستظهار النماذج العليا في كون مغلق أسطوريا، أما الشكلائية ومآلها البنيوي فقد أكدت على المغايرة النوعية للأدب بجعل الرسالة ووظيفتها هو جوهر العمل الأدبي.

إنّ الخصوصية النوعية المبحوث عنها جعلت من الأدب موضوعا (مادياً) كما نجده في العلوم الطبيعية، مما ولد (الموضوعية) في النقد، مما يجعل من المبادئ النقدية بدهيات ثابتة يجب الكشف عنها، بلحاظ الانفصال التام بين الذات والموضوع، مما جعل النقد فعلا كشفيا فقط.

٢- القوانين الثابتة ومقولة النظام

استنسخت النظرية النقدية توجهات الخطاب العلمي، أي البحث عن القانون الكلي الذي يمكن لنا بوساطته من التنبؤ، بمعنى أن يكون القانون الكلي خارج الزمن، لأنه مطلق، وهذا ما نجده في اشتغال رتشاردز الباحث عن (المبادئ) وفراي عن (القوانين) الكونية، فضلا عن (النظام) البنيوي. ولهذه المقولات المعرفية سندها العلمي كما في الفيزياء عند نيوتن وديكارت، ولذلك كان لابد من تحديد هذه الثوابت المطلقة. والكشف عن الثابت يمكننا من تفسير التجربة الأدبية، وكذلك تعميمها فلا تجربة تشذ عن النظام، إنه الثابت اليقيني الذي لا يزول، وهو جوهريا متوازن لا يقبل التغيير، فالتوازن مقولة النظام، والتغيير مقولة الفوضى. وهذا ما أسست له البنيوية، بإغلاق الباب بوجه الواقع وتأثيره، يجعل الذات في مواجهة العقل^(١)، وهو المقولة الكبرى للنظرية النقدية والخطاب العلمي.

١ - ينظر: نظرية الأدب: ١٧٨.

الفصل الثاني

إذاً وجود المعنى مرتبط بمدى إقرار النظام لوجوده، لذلك توجد الأشياء مع اللغة ضمن النظام، مما جعل سوسير يبعد الواقع من طرفي العلامة، وذلك بالتأسيس لمبدأ الثبات، فدخل الواقع يعني دخول المتغير.

٣- المنهج طريق العقل للوصول إلى المبادئ الكلية

اعتمد الخطاب العلمي على المنهج التجريبي الاستقرائي، بالانتقال من الجزئي إلى الكلي ومن ثم العمل على تعميم المبادئ والقوانين، وهذا ما صرح به رواد النظرية النقدية سالف الذكر، كما أنه الأداة الناجعة التي استخدمها الشكلاونيون فيؤكد ايخنباوم على النشاط الاستقرائي بأنه الأساس الذي تكشف بوساطته على المبادئ.

إنّ المنهج الاستقرائي يتعامل مع الظواهر المادية تجريبياً، مما جعل سوسير ينظر إلى العلامة بوصفها مادة أولية، على الرغم من وجود طرفيها، فهما كتلة مادية لا فاصل بينهما، ومعرفة شروط تكوين العلامة يمكننا من معرفة القانون، وهو ما يحقق أمرين الأول: تعميم القانون المؤسس للنظام بغض النظر عن البعد الاستعمالي للغة، ثانياً: أن الواقع إذا دخل في هذه العلامة سيفرض التغيير صفة رئيسة فيها مما يجعل النظام في حالة من عدم الاستقرار.

٤ - العقل بوصفه أداة

قدّم الخطاب العلمي العقل معياراً لقبول القوانين، عن طريق التجربة، مما جعل النقد يتخلص مما هو قبلي في قراءة الأدب. فالمعاني ليست وليدة العقل البشري فطرياً، إنما هي مكتسبة تجريبياً، وهذا ما يتواءم وفكرة النظام فالمعنى ليس معطى قبلي، إنما ينتجه النظام نفسه، فالمعاني والحقائق تتكشف في العقل. وهذا ما يجعل من طروحات سوسير تنتمي إلى الفلسفة المثالية، إذ صور العقل بوصفه أداة، أو آلة، فالعقول كلها متشابهة، ولا أثر للبعد الذاتي في تشكيل المعاني.

الفصل الثاني

وهذا كله ساهم في تصوير النقد بوصفه (نشاطا إنسانيا عقليا، هدفه البحث عن القوانين والمبادئ التي تحكم التجربة الأدبية، فتجعل من النص اللغوي نصا أدبيا بشكل موضوعي).

ثانيا - نظرية الفوضى في الخطاب النقدي

أولا-اللاشعور: أصالة الفوضى عند فرويد وجاك لاكان

١- اكتشاف أصالة اللاشعور-الفوضى

يُعدّ تأثير سيجموند فرويد في تحويل مسار البحث النفسي من الاتجاه المعتمد على تسيّد الشعور، إلى بيان أثر اللاشعور في تشكل الإنسان أصالة، أمرا لا يمكن للباحث في نظرية الفوضى تجاوزه، بل ويرى الباحث أنّ ثمة ترابطاً حقيقياً بين اللاشعور والفوضى عند فرويد وجاك لاكان.

وهذا - وإن كان حكماً مسبقاً نسعى إلى إثباته- يفرض علينا أن نفرض لفرض أولي، مؤدى الفرض أنّ لحظة الانقسام الأولى، الأسطورية، أو لحظة الفصل والعزل بين النظام والفوضى ضمن التصور الأسطوري، يشكل المقولة المرجعية لعمل فرويد في تشكل اللاشعور وما تبعه من عقدي أوديب والخضاء.

والاستثمار الفرويدي لهذا الفصل فيه تحويل لأصل هذا الفصل، فإذا كانت الأسطورة قد بيّنت فعل الإقصاء لما هو فوضوي ومن ثم نسبت إليه أولية الشر، ففرويد حاول أن يكشف أثر هذا المقصي في تشكل السيرورة النفسية، ومدى أثره في الإنسان، بل وكشف لنا عن مدى اندماج إنسان العصر الحديث مع هذا الفصل، على الرغم من الادعاء المسلم به باستقلالية العقل الحديث والعلمي عن العقل الأسطوري.

الفصل الثاني

تبدأ - بحسب فرويد - الحياة النفسية للفرد من تشكل نمط من العلاقات، أطرافها (الطفل والأم والأب والأخ)، ومن ثم يتشكل البعد الوجداني بين هذه العناصر الأولية، فتأخذ طابعاً ضدّياً، وعلى هذه الوجدانيات تتبني النفس الإنسانية.

وفي بؤرة الحراك النفسي للفرد تتمركز عقدة أوديب، بوصفها لحظة الصراع بين (الفوضى / النظام)، (الشر/الخير)، وانحلال العقدة ينتج الإنسان السوي، أي الإنسان الذي يتمثل النظام والخير، ويقصى منه عالم الفوضى والشر، ومركزية العقدة الأوديبية في أن هذا المركز " يمثل نقطة تحول ما بين الطبيعة والحضارة"^(١)، فهي مرجعية الإنسان الحديث النفسية، وبحسبها يشكل إدراكه، وصحته النفسية وكذلك أمراضه.

فالإنسان بعد عقدة أوديب يتضح أمامه خياران، مسلكان، فإمّا أن يكون سويًا، وهي حالة النظام التي يخضع فيها الفرد لحاكمية الأخلاق وسياقات المجتمع، وإمّا أن يكون مريضًا، وهذه الحالة هي لمن يتخلف أو يتجاوز أخلاقيات النظام، ووصفنا لهذه الحالة بالمرض لأنها تمثّل لحالة الفوضى من وجهة نظر النظام، فوصفها هو حكم النظام نفسه، وهو قديم قدم النظام الأخلاقي ولحظة تشكّله الأسطورية. وفرويد في إجراءاته التجريبي على مرضاه، يعمل على تجسير وعي وشعور المريض بين فوضاه الأصلية فيه والنظام المتشكل عنها، فإذا تعرّف المريض على حكايته المخفية في أعماق فوضاه والتي تسبب له مرضًا من منظور النظام، استطاع أن يتجاوز مرضه، فعمل فرويد العلاجي هو مصاحبة المريض إلى عالمه الفوضوي إلى لاشعوره العميق ليتعرف على حكايته.

^١ - التحليل النفسي من فرويد إلى لاكان: عدنان حب الله، مركز الإنماء القومي، لبنان-بيروت

الفصل الثاني

فالفرد السوي - ضمن النظام - نتاج لعملية توازن أو تكييف لطاقته الجنسية (الليبدو) والذي يعني "الدوافع الغريزية المرتبطة بما نلخصه بكلمة الحب ... الحب الجنسي الذي حده الجماع"^(١) وهذا هو الأصل في تشكل الأنا، ومقدرة الفرد على تنظيم هذه الطاقة قائم على مجموعة من الآليات النفسية التي تتحكم بنوع العلاقة الوجدانية بين الأنا وموضوعها الجنسي الذي ترتبط به هذا الطاقة، فكان الكبت والتحويل والإسماء تمثيلاً لخضوع الأنا للنظام، وعلى طرفها المقابل نجد العصاب والحصر والذهان وغيرها، أمراض تكشف عن اختلال في حالة التوازن، أو فشل الآليات في ضبط العلاقة بين الأنا وموضوعها.

إن هذا التوازن بحسب فرويد، يتحكم فيه مبدآن: مبدأ اللذة ومبدأ الواقع، وكلاهما يدخلان في حالة صراع، نتائج الصراع هو التوازن، إذا ما خضعت الأنا لمقولة النظام، وانعدام التوازن يصفه النظام بأنه شنود، وفي هذا الأخير يتسبب مبدأ اللذة الذي يجعل الأنا في مواجهة النظام الأخلاقي للمجتمع وقيمه العليا، أما الخضوع لمبدأ الواقع فيتأسس بفعل الإرجاء لمبدأ اللذة، و الإرجاء هو ما يفعل الكبت الذي تُقصى بواسطته آثار المبدأ المضاد، فتحدث إزاحة إبدالية يتحقق من خلالها التوازن، وهذا يؤشر قضية مهمة وهي أن تحقق التوازن يتشكل من حالة نقص أصيل في تحقيق متطلبات مبدأ اللذة، وهو ما يصفه فرويد " تتم الاستعاضة عن مبدأ اللذة بمبدأ الواقع ... إن هذا الأخير ... يتطلب إرجاء الإشباع والعزوف عن جميع احتمالات الفوز به والقبول المؤقت بالكدر خلال كل المسار الملتوي الطويل الذي

^١ - علم نفس الجماهير وتحليل الأنا: سيغ蒙德 فرويد، ترجمة جورج طرابيشي، المؤلفات شبه الكاملة، دار مدارك للنشر، الإمارات العربية المتحدة، ط ١، ٢٠١٥ : ٢٤٦/٧.

الفصل الثاني

يقود في نهاية المطاف إلى اللذة"^(١) هذه اللذة الأخيرة هي ما يفرضه النظام لا ما ترغب به الأنا.

ونسأل عن مراحل السيرورة النفسية للفرد عند فرويد، وما هي الطرق التي تسلكها الأنا للالتحاق بالنظام من خلال التوازن والاستقرار؟ فضلا عن بيان حالة الضد من النظام كيف تكون؟.

يقدم فرويد مراحل ثلاث تمثل تطور الأنا في اندماجها ضمن منظومة متوازنة تبدأ مع أيام الطفل الأولى، المرحلة الأولى يكون فيها الطفل متكافئاً على الأم بوصفها مصدراً للغذاء، ويترافق مع هذا الاتكاء تشكل لذة أولى تقترب به، فيكون النشاط الجنسي مرتبط بالفم، ومنها سميت هذه المرحلة بـ(الفموية)، وفيها "لا يكون النشاط الجنسي منفصلاً عن تناول الطعام"^(٢)، فيكون مصدر الغذاء واللذة الأم، ولهذه المرحلة آثار مستقبلية تتمظهر من سلوكيات الفرد، ومنها فعل (المص) والذي يعدّ "رسابة من هذا الطور التنظيمي"^(٣)، أمّا المرحلة الثانية وتسمى (الشرجية)، يكون الشرح هو مصدر اللذة، إذ تمتلك الطفل إرادة على الاحتفاظ/الإخراج لما يمتلكه^(٤)، وتتسم هذه المرحلة بالسادية لأن الطفل "يستمد لذة إيروسية من الإخراج والتخريب؛ لكنها متصلة أيضاً بالرغبة في الاحتباس والسيطرة التملكية"^(٥)، ولهذه المرحلة أيضاً

^١ - ما وراء مبدأ اللذة: سيغموند فرويد، ترجمة جورج طرابيشي، المؤلفات شبه الكاملة، دار مدارك للنشر، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠١٥ : ١٦/٦.

^٢ - ثلاثة مباحث في نظرية الجنس: سيغموند فرويد، ترجمة جورج طرابيشي، المؤلفات شبه الكاملة، دار مدارك للنشر، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠١٥ : ٧٢/٤.

^٣ - م . ن : ٧٢/٤.

^٤ - ينظر : م . ن : ٧٢/٤.

^٥ - نظرية الأدب : ٤٦.

الفصل الثاني

تظهرات سلوكية مستقبلية منها الكرم والبخل. ثم تأتي المرحلة الثالثة (القضيبيية) وفيها تتسيّد الأعضاء التناسلية، وتتمركز على القضيب والبظر^(١).

هذه المراحل الثلاث تكون اللذة هي الجوهر فيها، ولا تميز هذه اللذة الطابع الأخلاقي للحدود الجنسية، فهي لحظة انفتاح الطاقة اللبديية على موضوع جنسي محدد هو (الأم)، إلا أنّ هذا الفيض الغرائزي يجابه بعقدة أوديب، التي يبنني بحسبها الجهاز النفسي للإنسان الحديث، إذ يتشكّل اللاشعور بوصفه مكانا لكل ما هو غرائزي بحث، فتكبت فيه الرغبات المحرمة- بحسب وصف النظام- وعقدة أوديب هي لحظة التمهصل الرئيس.

يكشف فرويد عن تشكّل عقدة أوديب في كتابه (تفسير الأحلام) من تكوّن نمط من المشاعر المتضادة التي يبديها الإنسان في مواجهة موت من يُحب، إذ تتمظهر لديه حالة من الانفعال الشديد المسبوق برضا يرتبط بحافز نفسي عميق، لتحقيق رغبة قديمة مكبوتة في اللاشعور. يكشف فرويد ذلك تحليله لمسرحية (أوديب ملكا) لسيفوكليس، إذ يرصد هذا النمط المضاد، فأوديب الذي يقتل أباه ومن ثم يتزوج أمه دون علم منه بنسبه، وعندما يكتشف نسبه وما فعله، يعمل على معاقبة نفسه بفقء عينيه^(٢)، والمشاهد والقارئ للمسرحية يجد نفسه بين حالتين : الأولى شعوره بالرضا لتحقيق رغبة مكبوتة وهي قتل الأب والظفر بالأم، والثانية اعتقاده بأنه أسعد حقا من أوديب، لأن القارئ لم يخرق النظام الاخلاقي لنجاحه في "أن نتحول بنوازعنا الجنسية عن امهاتنا وفي أن ننسى غيرتنا من آبائنا"^(٣).

^١ - ينظر: ثلاثة مباحث في نظرية الجنس : ٤ / ٧٣.

^٢ - ينظر: تفسير الأحلام: سيجموند فرويد، ترجمة د. مصطفى صفوان، مراجعة د. مصطفى زيور، نشر دار المعارف، القاهرة : ٢٧٨.

^٣ - م . ن : ٢٧٨.

الفصل الثاني

إنّ عقدة أوديب نمط من العلاقات الوجدانية (حب/كره) أطرافها (الابن - الأب - الأم)، فالأم تمثل الموضوع الجنسي الأول للابن، فهي من تلبي رغباته وتشبع غرائزه، إلا أنه يصطدم بسلطة الأب حامل القضيب الذي يشكل جدارا يحول دون تحقيق الابن لرغباته، فيمثل حالة الفصل بين الابن والأم موضوعه الجنسي، فتتشكل حالة الازدواج العاطفي تجاه الأب، الرغبة في التخلص منه لأنه الطرف المكروه، وولأنه أيضا الطرف المحبوب، إذ تبدأ رحلة التماهي معه؛ لأنه أنموذجه. هذا الازدواج ينتج حالة الصراع المرير، إذ يستشعر الابن حالتي "الشعور بالغيرة والقصر"^(١) فيستولي الأب على موضوعه من جهة، ويتبين عجزه في دفع الأب عنه، ومن هنا تبدأ الرغبة في زوال الأب وهي لحظة قتل أوديب لأبيه.

ويستحضر فرويد مسرحية (هاملت) لشكسبير، الذي يواجه صوتا داخليا يُعجزه عن تحقيق رغبة الأب في الانتقام من قاتله، يصف فرويد ذلك متسائلا "ما الذي يوقفه على هذا النحو في إنفاذ المهمة التي كلّفه شبح أبيه إياها؟... إنّ هاملت يستطيع أن يأتي كل شيء إلا أن يثأر من الرجل الذي أزاح أباه واحتل مكانته عند أمّه، الرجل الذي يريه - إذن - رغباته الطفلية وقد تحققت"^(٢)، ويعمم فرويد هذه العقدة على الإنسان الحديث.

إذا نحن مع العقدة نكون في لبّ الصراع بين الطرفين المتضادين، والآن نتساءل عن كيفية حلّ العقدة؟ وإلى ماذا تقضي؟ ترافق عقدة أوديب عقدة ثانية لها أهميّة في تطور الإنسان تجاه النظام وفيه، وهي عقدة (الخصاء)، وظهور هذه العقدة متعلق بالمرحلة القضيبية، وأصلها اعتقاد الطفل امتلاك البشر القضيب، ومع التقدم الزمني وكثرة مكتشفات الطفل، يتأكد من انعدامه لدى الإناث، مما يشعره بإمكانية فقد

^١ - التحليل النفسي من فرويد إلى لاكان: ٧٧.

^٢ - تفسير الأحلام: ٢٨١.

الفصل الثاني

القضيب، ويترافق مع هذا الإحساس "تعرض للتهديد من قبل الأهل... والتهديد قد يكون مباشراً موجهاً إلى ذكره، أو غير مباشر موجهاً إلى يده"^(١) وهذا التهديد يصدر من الأب تجاه النشاط الجنسي للابن^(٢)، إن فاعلية هذه العقدة هي الضامن لحدوث التغيير في النمط العاطفي للابن، فتتحول (الأم) من موضوع حبه الجنسي إلى حالة من الحب العفيف، وتُصنف حالة الحب الأولى ضمن المحرمات، وما هو محرم يُكبت في اللاشعور، ونحن هنا في حالة من الازدواج بين الإقصاء/الحفظ، فاللاشعور يحفظ لأننا رغبنا المحرمة، فكأنها رغبة مشطوبة، والتي تكبت تحت قوة الردع لعقدة الخفاء، وإذا لم يحدث هذا التحول في نمط الانشغال بالأم، ينتج عنه انحراف جنسي، وهو ما يسمه النظام بالشذوذ.

ويتهياً للابن في خضوعه لسلطة عقدة الخفاء، حالة جديدة من تكيف الأنا لوضعها القلق، وهي تغيير نمط التعاطي مع الأب، حيث يتحول الأب إلى أنموذج مثالي يسعى الابن للتخلص من عقابه، وإلى التماهي معه، وهو ما يشكل انحلال العقدة بنجاح^(٣).

وعلى أعقاب تمظهر الأنا والشعور بصورة يتقبلها النظام، يتشكل في الطرف المقابل المظلم والمخفي، وهو اللاشعور، وتشكله مرتبط بآلية نفسية هي الكبت، بوصفه نمطاً دفاعياً تمارسه الأنا في دفع كل ما يمثل انتهاكاً للنظام، لذلك يمثل المكبوت اللاشعور، فوجود تمثيلات نفسية ذات طابع غرائزي لا تمتلك القدرة على

١ - التحليل النفسي من فرويد إلى لاكان: ٨٥.

٢ - ينظر: معجم مصطلحات التحليل النفسي: جان لابلاش و ج.ب. بونتاليس، ترجمة الدكتور مصطفى حجازي، مجد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط ٣، ١٩٧٤ هـ - ١٩٩٧ م: ٣٦١.

٣ - ينظر: التحليل النفسي من فرويد إلى لاكان: ٨٦.

الفصل الثاني

الحضور أو النفاذ إلى الشعور بشكل مباشر وصريح، والسبب في ذلك "قوة معينة تمنع"^(١) هذا الحضور، وتفرض حالة الغياب، وهذا مماثل لفعل الفصل والإقصاء الأسطوري، فالإنسان السوي هو من استطاع أن يكبت غرائزه المحرمة من جهة، واستطاع أن يتماهى مع النظام من جهة أخرى، أي أن يكون الإنسان كما يرغب النظام الذي ولد (نفسياً) فيه.

إنّ وجود العقدة الأوديبية هي الفيصل في تشكل الأنا السويّة بحسب النظام، وهذا تحديداً هو حالة تشكّل الكون، أي لحظة الفصل بين الأم (الفوضى)، والابن (الإنسان)، بقوة الأب (الإله)، وهذا ما يشكل النظام، وانفصال أنا الإنسان عن موضوعه الأول مما يجعل الفوضى مساوية للاشعور، محل الرغبات المحرمة، حرمتها وامتاعها عن التحقق فرض من النظام، وإذا ما وازنا بين كل الصفات التي يمكن أن نحصيها عن الفوضى وبين ما يوجد في اللاشعور سنجدهما متماثلين، لأنهما خارج النظام والوعي، بل وهما مصدر كل قلق لهما. وعمل الفرويد وأهميته هو الكشف عن فاعلية اللاشعور في حياتنا، وكيف يكون لهذا اللاشعور أثر بالغ وحاضر في كل سلوك من سلوكيات الفرد، فكأنما هو استدعاء لحضور الفوضى وبيان أثرها في ما هو موجود.

إنّ لحظة الفصل الأسطورية كما مرّ بنا في الفصل الأول، تُظهر حالة الإقصاء لـ(الفوضى) بوصفها منطقة لا ضابط فيها، فهي ميدان محرم والإنسان الذي ينتمي لهذا الميدان يكون مدنساً، وعليه فهو يكتسب القداسة من امتثاله لصوت النظام-الإله، صوت الأب، وهذه القضية تشكل فرقا مهماً في وضع حدّ بين (الطبيعة/الحضارة) و(الفوضى /النظام).

^١ - الأنا والهدا: سيغموند فرويد، ترجمة جورج طرابيشي، المؤلفات شبه الكاملة، دار مدارك للنشر، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠١٥: ٩٥/٦.

الفصل الثاني

يعمل فرويد على استثمار آخر للفصل الأسطوري، فيقدم لنا تقسيما ثلاثيا للإنسان فهو يكتنز في سيرورته النفسية : (الأنا، والأنا الأعلى، والهذا)، والعلاقة بينها تتسم بالتراتب، ويأخذ الأنا مستوى أدنى عن الآخرين، فهو الأضع الذي يقع تحت وطأة قوتين متضادتين هما هذا والأنا الأعلى، فالأول يسلط على الأنا كل رغباته الممنوعة ومن الثاني صاحب السلطة والنظام. هذا التقسيم الطوبوغرافي محاولة لبيان حدود القوى النفسيّة ضمن تراتبها الدينامي (شعور، وما قبل الشعور، واللاشعور)، ويحدد فرويد مساحة الأنا بارتباطه بالشعور، والذي يمثل "سطح الجهاز النفسي"^(١)، والمتصل وبشكل مباشر بالعالم الخارجي، وما يرسله هذا العالم من إدراكات حسية، ومن هذا الارتباط يتمظهر (مبدأ الواقع)، وبه يكون الإدراك الحسي نواة تشكل (الأنا)، وبذلك الارتباط مع العالم الخارجي تُعتمد العلاقة السببية في وجوده، فتبرز أهم سمات الأنا فهو "ما نستطيع أن نسميه العقل وسلامة المنطق"^(٢).

وهذا الأنا بسبب تأثير الواقع الخارجي وفاعلية الإدراك الحسي، جعلنا من الأنا "في المقام الأول (أنا) جسماني"^(٣) وعليه فهو مرتبط بكل محيطه، مع تمثل لما في هذا المحيط من نُظم، وكلما كان الأنا خاضعا لمبدأ الواقع كلما وصف بالعقلاني وسلامة المنطق، والعقلانية من وظائفها تحييد مبدأ اللذة وإرجائه، فينتج الأنا السوي، وهذا ما يؤشر على لحظة غياب مبدأ اللذة الذي يشكل هوية الأنا.

وفي الطرف المضاد للأنا نجد (الهذا)، الذي يغطي مساحة طوبوغرافية أوسع بل تحيط بالأنا، فيكون الأخير جزءا منه، إلا أنه يفترق عنه بالمبدأ الحاكم فيه،

١ - الأنا والهذا : ٦ / ١٠١ .

٢ - م . ن : ١٠٨ .

٣ - م . ن : ٦ / ١٠٩ .

الفصل الثاني

فالهذا يخضع لسلطة (مبدأ اللذة)^(١)، فالهذا "نفسى مجهول لاشعوري"^(٢)، وما هو لاشعوري عند فرويد يمثل " الأساس العام للحياة النفسية ... فكل ما هو شعوري له مرحلة لا شعورية... فاللاشعور هو الواقع النفسى الحقيقى وهو فى طبيعته الباطنة مجهول منا، نجهله قدر جعلنا بحقيقة العالم الخارجى، كما أنه لا يمثل لنا بواسطة معطيات الشعور إلا مثولا ناقصا على نحو ما يمثل الالم الخارجى بواسطة رسائل أعضائنا الحسيّة"^(٣)، فمحتوى هذا لا يمثل إلا ناقصا، تحت تأثى مبدأ الواقع وفعله الإرجائى، مما يعنى أن المكبوت حاضر فى هذا وهو فى انفصال حاد عن الأنا، والسبب فى الانفصال هو الكبت. وبين المبدأين اللذة / الواقع، أى بين هذا / الأنا صراع مستمر يتخلق منه حفظ النظام، فالانا يصارع لتمكين فاعلية الكبت، لأن هذا من صفاته الرئيسية أنه "غير أخلاقى على الإطلاق يصارعه والأنا يجاهد ليكون أخلاقيا"^(٤)، وأسس العلاقة الضدية بينهما قائم فى هذا الصراع. فالهذا خالٍ تماما من العلاقات المنطقية، وغير عقلانى، لا يعترف بعلاقة السبب والنتيجة، فهو كتلة مختلطة لها تأثير على الأنا، إذ يحتوى على نمط داخلى من الصراع بين غرائز الموت / الحياة، والأنا يدعم الحياة، والهذا يدعم الموت^(٥)، هذا الوصف يطلق على هذا من قبل نظام الوعى نفسه.

ولذلك يجد الباحث أن تماثلا يحضر بين الفوضى واللاشعور، فإذا كانت الفوضى تقدم المادة الأولية لتشكّل الكون والنظام، فكذلك نجد اللاشعور يتأسس

١ - الأنا والهذا: ١٠٧/٦.

٢ - م . ن : ١٠٧ / ٦.

٣ - تفسير الأحلام ٥٩٤-٥٩٥.

٤ - الأنا والهذا: ١٣٩ / ٦.

٥ - م . ن : ١٤٤ / ٦.

الفصل الثاني

بحسبه الشعور، وإذا كان اللاشعور غير منطقي وغير أخلاقي وليس عقلانيا، فإن صفات الفوضى في الفصل الأول قد كشفت عن هذا التماثل.

الأنثا - النظام	الهدا - الفوضى
مبدأ الواقع	مبدأ اللذة
الحضور	الغياب والكبت
التمثيل التام	التمثيل الناقص
عقلاني	لا عقلاني
منطقي	لا منطقي
حياة	موت
أخلاقي	لا أخلاقي

يجد الباحث تماثلا بين النظام النفسي وتشكله، وحالة خلق الكون الأسطورية، فالعلاقة بين (الهدا / الأنثا) هي نفسها العلاقة بين (الكايوس / الكوزموس)، وقد بينا في الفصل الأول صفات الفوضى، وهي صفات يقررنا لنا النظام نفسه بوصفه طرفا مضادا، مما يجعل الفوضى تتمظهر خاضعة لسلطة الـ(لا) : نظام / لا نظام، أخلاقي / لا أخلاقي، كما نجد تماثلا بين إقصاء الفوضى وكبت اللاشعور، إذا على الإنسان السويّ نفسيا والمنظم وجوديا أن يحافظ على معطيات النظام الكوني.

والسؤال الذي يلح علينا هو هل يمكن أن تنتقل العناصر النفسية من الهدا والفوضى إلى الأنثا بشكل يسير؟، كيف يُتعامَل مع الأنثا إذا حدث هذا الانتقال؟.

يقدم فرويد عنصرا ثالثا هو الـ(أنا الأعلى) والذي يُعدّ " وريث عقدة أوديب"⁽¹⁾، إذ يتشكل من السيرورة النفسية للطفل الذي يبدي اهتمامه بأبيه بوصفه أنموذجه

¹ - الأنثا والهدا: ٦/ ١٣٣.

الفصل الثاني

المثالي، فيسعى الطفل ليكون تابعا له، وأن يحلّ محله، يترافق مع هذه الحالة توجهه الحبي نحو الأم، مصدرا للغذاء واللذة، وعند الاصطدام بالأب، وإحساسه بعجزه تجاه قوة الأب، يجد أن المنفذ الوحيد هو أن يتماهى مع أنموذجه، وتحت تهديد الخصاء يكبت حبه ويزداد في فعل التماهي، وهذا ما ينتج الإنسان السويّ نفسيا^(١) وآلية الكبت هي من تنبذ نمط التعلق المحرم بالأم في اللاشعور بوصفه رغبة محرمة، ويزترافق معه كبت لرغبة الطفل في التخلص من الأب في اللاشعور أيضا.

إنّ التماهي مع الأب هو جذر تشكل الأنا الأعلى، والذي يضطلع بمهام الأمر والنهي، فهو تمثيل لصوت الأب، صوت الإله، ففي الأمر " عليك أن تكون كذا وكذا (مثل أبيك)... [وكذلك] النهي: لا يحقّ لك أن تكون كذا وكذا (مثل أبيك)"^(٢)، فتتجسد بوصفها قوانين مقدسة، يزرع تحتها ما هو محرم لتأسيس ما هو محلل للأنا، وصيغة الأمر والنهي تستحضر مخالفتها حالة العقاب الناشئة عن عقدة الخصاء، فالأنا الأعلى " لم يرَ النور أصلا إلا بفضل الثورة عليها [عقدة أوديب]"^(٣)، وبذلك الأثر العقابي يأخذ الأنا الأعلى على عاتقه القيام بوظيفته، بوصف حاميا ومراقبا ومعاقبا، فيتمظهر بوصفه قانونا وصورته المتحققة هي (الضمير).

فسلطة الأب على الطفل مساوية لسلطة الأنا الأعلى على الأنا، وسلطة الإله على العبد، وكلما اضطربت العلاقة بينهما تحقق الشعور بالذنب لدى الفرد^(٤) مما يجعل للأنا الأعلى وظيفة جوهرية في حفظ الفرد من ترسبات اللاشعور، وينظم ويحدد العلاقة الجنسية مما يضمن سلامة النوع الإنساني.

^١ - علم نفس الجماهير وتحليل الأنا: ٧/ ٢٦٥.

^٢ - الأنا والهذا: ٦/ ١١٧.

^٣ - م. ن. : ٦/ ١١٧.

^٤ - م. ن. : ٦/ ١٢٠.

الفصل الثاني

إذاً يتمثل النظام الأخلاقي في الأنا الأعلى، وكل تجاوز يحدثه الأنا، أو كل إزاحة لمبدأ الوقع وتسيّد لمبدأ اللذة، هذا يدفع الأنا الأعلى إلى إيقاع العقوبة في الأنا، مما يخضعه للنقد الجارح، بل ويصل إلى تعذيب الأنا، وهذا كله من مرتبط بـ"الرقابة الأخلاقية"^(١).

ومن هنا نجد أن الترابط - سابق الذكر - تحقق بالكشف عن العنصر الثالث (الأنا الأعلى) وله ما يناظره في التمثيل الأسطوري عن تشكل الكون وهو (الإله المنظم) الذي يحمي الكون من انسلالات الفوضى، ويراقب سيرورة النظام ومدى خضوع الأفراد له.

التحليل النفسي				
مبدأ الخير	الأنا	الأنا الأعلى	هذا	مبدأ الشر
	النظام	الإله المنظم	الفوضى	
الأسطورة				

فيكون الأنا الأعلى متمثلاً في (إنكي، زيوس، ومردوخ) ممن أسسوا أسطوريا النظام الكوني، وكل التزام بالنظام وقواعده يُعدّ فعلاً أخلاقياً منتمياً إلى مبدأ الخير، وهو ما يضمن الصحة النفسية للفرد والمجتمع، وبالضرورة يكون الخروج تمثيلاً لمبدأ الشر ذي الانتماء الفوضوي.

لقد حقق فرويد كشفاً مهماً يساهم في تأكيد مقولات نظرية الفوضى، إذ كشف لنا عن أثر اللاشعور في تشكل هوية الشعور، فضلاً عن تأكيده على أن الشعور لا يمكن له أن يكون من دون طرف (مضاد)، وعليه يكون حضوره ناقصاً أبداً، وهذا ما تؤكدته نظرية الفوضى من أن ظاهرة الفوضى حاضرة في كل مناحي الوجود، وأن

^١ - الأنا والهذا : ١٢٠/٦.

الفصل الثاني

منطق الاحتمال والتعدد والحركة هو الأصل في البناء المعرفي، مخالفا ما تدعوه مقولات الخطاب العلمي، المؤكد على أولية الشعور، والثبات ومنطق اليقين.

إنّ النظرية النقدية بكل تمثلاتها، الابن الشرعي لمقولات الخطاب العلمي، النظام، والشعور، فما يحكم الإجراء النقدي هو المنهج، بوصفه أداة قياسية، تمتلك الحق في تحديد المعنى والحقيقة، إذ تستند إلى منطق السبب والنتيجة، ضمن سيرورة خطية، فدوما هناك إجراء أولي يتمثل بحلّ المسائل البسيطة ومنها تحل الإشكاليات الأكثر تعقيدا، بحسب قاعدة القياس، هذا الإجراء النقدي المشبع بالروح الديكارتية، أسس لحالة العزل البنيوي بين الموضوع والذات، فالذات (الناقد - المؤلف) كلاهما خارج العمل النقدي، وبالتالي يحقق هذا الإجراء الموضوعية العلمية.

إنّ هذه الموضوعية هي من وضعها فرويد موضع الشك، فإذا كانت النظرية النقدية تركز على الوعي والشعور بوصفه الأقدر على الكشف - بحسب فرانسيس بيكون - فإن فرويد قد وضعه موضع المساءلة، إذ لا يوجد أنا أو وعي أو شعور أو عقل برئ من تدخلات (اللاشعور - الفوضى) بل هما الأساس الذي يشكل هوية الأنا.

وعلى هذا يصبح إدراك الشعور موضع شك، ومنهجه لا يضمن الحقيقة والمعنى، فإدراك الوقائع شعوريا لا يُعدّ فعلا خالصا وموضوعيا، بل هو متأثر وجوديا بما يقدمه اللاشعور، فأثر اللاشعور ينسلّ من خلف الأنا ليتحكم بلحظة الإدراك نفسها، مما يجعل من إدراك المعنى والحقيقة ناقصا، ولن يكتمل بفعل الإجراء الذي تمارسه الأنا تجاه مبدأ اللذة وهو إرجاء سنجد صده عند جاك دريدا.

الفصل الثاني

٢- الذات تفكر حيث لا توجد

عمل جاك لاكان على مقارنة فريدة أتت بنتائج نظن أنها نافعة في بحث نظرية الفوضى والأثر الناجز في النظرية النقدية، فلاكان وبوساطة إعادة قراءة فرويد، وهي قراءة لاكانية، أو نسخة لاكانية عن فرويد، ومن معطيات الدرس الألسني الحديث، ممثلاً بدي سوسير وجاكسون، استطاع جاك لاكان أن يؤكد فرضاً هو أن يجعل من "اللاوعي مبنياً مثل اللغة"^(١)، وعلينا أن نؤكد أن فرويد، الذي نراه قد ماثل بين الفوضى واللاشعور، صرح أن اللاشعور لا يمتلك القدرة على الكلام، فهو كتلة صماء، لا يمتلك إرادة تؤهله للحديث عن نفسه، ومن هنا كانت نسخة لاكان الفرويدية منمازة عن الأصل، وعليه فإن جاك لاكان يطور المماثلة بين الفوضى واللاشعور بإكسابها القدرة على الكلام والحضور.

فإذا كان اللاشعور مبنياً كما اللغة فهو لا بدّ من أنه يمتلك حقّ الكلام، أي أنه يسعى للتعبير والحضور، وهو سعي للتمظهر، مما يعني أن الرغبات ذات الطابع المحرم، مكونات اللاشعور المكبوتة لا تخرج عن حيز سلطة اللغة من حيث الكبت والتحرر والانسلال من اللاشعور مما يجعلها ذات إمكان ترميزي، أي أنّ وجودها المكبوت هو إنجاز لغوي بالأصل.

يستثمر لاكان مقولات الدرس الألسني، وبحسب المعطيات الأولية للغة فإنها نظام من العلامات (دال-مدلول) يُحقق الدلالة أو فعل التدليل ضمن شرطية الاختلاف، فالعلامة إشارية لأنها تشير دائماً ضمن دائرة الكلام إلى مفهوم، وإدراك المفهوم (المدلول) من الآخر يشكل حقلاً تواصلياً، مما يفترض إثبات وجود المتكلم

^١ - جاك لاكان اللغة الخيالي والرمزي: إشراف مصطفى المنساوي، سلسلة بيت الحكمة،

منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة-الجزائر، ط١، ٢٠٠٦م-١٤٢٧هـ : ١٦.

الفصل الثاني

تعبيراً عن رغبة وطلباً في الاعتراف بوجوده ذاتاً، إلا أن لاكان لا يركن لهذا التبسيط الإشاري، لأنه يقع ضمن إمكان الشعور والوعي، فهو يؤكد على حضور اللاشعور في كل فعل إشاري للعلامة اللغوية، فالحمولة الإيحائية للعلامة تجعل الإشارية جزءاً ضمن وظيفة العلامة، فيكون الشعور مرتبطاً بالإشارية، إما الطابع الإيحائي فهو لاشعوري، فالعلامة تشير إلى مدلول محدد، ولكنها لا تنفصل عن ارتباطات أخرى، هذه الارتباطات الإيحائية المجاورة مصدرها اللاشعور، وهذا الأخير يوصف بأنه مجهول وغائب، إلا أنه يلقي بظلاله على كل (دال) إذ "الدال بالنسبة للتحليل النفسي قابل لحمل بعض الأصداء اللاواعية خصوصاً لدى ظهوره ضمن بعض الظواهر الأقل (عقلنة) مثل الحلم وزلة اللسان والنكتة"^(١)، وهذا لا يعني خلوص الدال في الخطاب العقلاني الصرف من هذه الأصداء اللاشعورية إنما الفارق في البعد الكمي، فالخطاب العقلاني له هامش ولغته هي من تقضي إلى تشخيص هذه الحمولة الإيحائية، وهو ما عوّل عليه جاك دريدا.

تستند هذه الرؤية المفارقة إلى أن الشعور يمثل الأنا المنظم، و قد حدده فرويد أنه عقلاني يعتكز على العلاقات المنطقية السببية، وهو ما يفتقر إليه اللاشعور ذو المنزع المغاير فهو لاشعوري ولا أخلاقي.

إنّ فرويد ومن بعده لاكان ينسبان الحقيقة إلى اللاشعور، فالأنا المنظم في خطابه مخادع ليجرؤ على ذكر الحقيقة؛ لأنه لا يلتفت إلى اللاشعور، والأنا في سيرورة تشكله يمرّ بسلسلة من التماهيات، التي يتكامل بها، ولكنها في الوقت نفسه تشكل مواطن نقص فيه، فيكون الأنا المنظم في الأصل مركب نقص، وهذا ما يجعل من خطاب الأنا العقلاني مضللاً دائماً، وإذا كانت اللغة هي الفاعل في كل خطاب سواء كان عقلاني أو غير عقلاني، فإن هذا ما يكسبها أهمية وجودية، فبقدر ما

^١ - جاك لاكان اللغة الخيالي والرمزي : ١١.

الفصل الثاني

يمكنها من ترميز مكنونات اللاشعور لتُكتب، فإنها قادرة على تمظهرها، فالأنا محكوم باللغة في كل سلوك، فالمرض والاحاسيس البدنية وتعبير الأنا عن أناه، بل ووجوده مرهون باللغة^(١).

هذه الراهنية هي من أسست لـ"الإنسان نتاج لغوي"^(٢)، على مستوى الشعور واللاشعور، وليس العكس، مما يجعل اللغة "موجودة هنا قبلاً"^(٣)، فهي شرط تحقق الإنسان، وما مبدأ انشطار الأنا بين الشعور واللاشعور، إلا نتاج للحظة الكلام التي تعبّر فيها الأنا عمّا تريد ضمن نظام علاماتي، أي امتلاك فعل التلفظ^(٤)، وعلى هذه النتيجة يتأسس مبدأ الانشطار إلى شعور ولا شعور بوصفه حدثاً لغوياً في الأصل.

إن جاك لاكان يكسب الفوضى - اللاشعور طابعا لغوياً، إي أنّ الفوضى تمتلك لغة تؤسس بحسبها خطابها، وعلى هذا الفرض يتأسس فرض آخر، وهو أن المغايرة في الخصائص بين الفوضى وبين النظام، تفرض علينا مغايرة الآليات للتعامل مع هذا الخطاب، فالشعور والعقل والنظام تركز إلى المنهجية ذات البعد الموضوعي والاختزالي، وبالضرورة هذه الخصائص المنهجية غير ملائمة لخطاب الفوضى، وهو ما دفع الكثير من المشتغلين في هذا الميدان إلى موضعة الخيال بوصفه مصدراً للمعرفة مقابلاً للمنهج العقلاني.

وإذا كانت النظرية النقدية تتخذ من الخطاب العقلاني والعلمي مرجعاً معرفياً تنتمي إليه، فلا بد من أن نظرية الفوضى تفرض عليها مغايرة من حيث الأسس المعرفية، إذ تضمن نظرية الفوضى إمكانية تعدد النتائج ضمن الإجراء النقدي، في

^١ - ينظر : التحليل النفسي من فرويد إلى لاكان : ٧٧.

^٢ - جاك لاكان اللغة الخيالي والرمزي : ١١.

^٣ - م . ن : ١١.

^٤ - ينظر : التحليل النفسي من فرويد إلى لاكان : ١١٨.

الفصل الثاني

حدود أثر الزمن، على العكس من النظرية النقدية التي تتخذ من نتائجها طابعا متعاليا على الزمن، ضمن مقولة البنية والقانون، والتي أسس لها الخطاب العلمي ضمن حتميته الخطية.

الخيالي نواة الفوضى في الأنا

يؤكد جاك لاكان على نمط من الترابطات التي تدخل فيها (الأنا) فتتشكل بحسبها الذات، هذه الترابطات هي (الخيالي، والرمزي، والواقعي) وهي مراحل تشكّل السيرورة النفسية.

تمثل هذه التحولات النفسية المرحلة ما قبل الأوديبية، فالخيالي تكون فيه (الأنا) في حالة اندماج مع العالم، فلا وجود لتمايز، أو حدّ فاصل بين (الذات - الواقع)، وهذه المرحلة هي مرحلة الاتكال على الأم مصدا للغذاء واللذة، وبذلك توسم مرحلة الخيالي بـ"اختلاط بين وجوده والآخر، فهو لا يميز نفسه، ولا يعرف حدودها، يعيش في حالة اندماجية مع الأم"^(١)، وتشير الخيالية إلى انعدام المركزية فيها، في حالة من النقاء والوضوح من دو شرط أو قاعدة، تتدخل لوضع حدود فاصلة، أو لوضع قانون، وهذه المرحلة متماثلة مع حالة الفوضى قبل خلق الكون المنظم، فالخيالي لا نظام فيه، كما الفوضى، فالخيالي فوضى الأنا التي تتشكل منها الذات.

إلا أن حدثا نوعيا يحضر إنه (المرأة)، فمشاهدة صورة منعكسة في المرآة لحظة حاسمة في تحديد وجود للذات في الانعكاس، مما يجعل الأنا المختلط ضمن الخيالي يستشعر حدود المكان والزمان، فضلا عن وجود هذا المنعكس بوصفه آخر فيدرك الطفل "نفسه باعتبارها ذاتا مستقلة ويكتسب صورته"^(٢) ومن ثم يأتي أثر

^١ - التحليل النفسي من فرويد إلى لاكان: ٩٠/٩١.

^٢ - جاك لاكان اللغة الخيالي والرمزي : ٢١.

الفصل الثاني

الاعتراف من الآخرين بتحديد انتماء هذا المنعكس في المرأة، هذا الاعتراف ينقل الطفل إلى "التماهي الأولي"^(١) للذات مع صورتها، فالذات تدرك أولاً أن صورتها ليست هي هي، فالمنعكس ذات أخرى، وهو ما يبرر لحظة التماهي ثانياً، وهذا كله يحدث ضمن الخيالي، فحالة الاتصال هي المتسيدة فيه، بوصفه "مكان التخيل مكان التنوع والتغير وملحقات الذاتية المتحركة والهشة"^(٢) مما يعني تعدد الموضوعات التي تنتقل بينها الذات لانعدام الحدود والمركز، إذ لا نظام يفرض على الذات حالة المنع. ومع التوجه نحو العقدة الأوديبية تخل الذات في مرحلة (الرمزية) والتي ترسم ملامحها في لحظة حضور الأب، والذي يتدخل علاقة الذات بالأم طارحاً عقدة الخشاء في سلوكه تجاه الذات، بفرض حاجز بين رغبة الأنا وموضوعها الجنسي مما يشكل القانون، فتبدأ عملية التصنيف من خلال الكبت والإقصاء لما هو خارج حدود القانون، فتتلبس رغبة الأنا بالأم صفة التحريم، وعليه لابد من تحولها إلى اللاشعور^(٣) فتبدأ السيرورة المأساوية في لحظة إدراك الذات لـ(القضيب) بوصفه دالاً تتمفصل بحسبه ذاته، من خلال إدراك القدرة على الامتلاك / الفقد، فمن يمتلك القضيب هو الأب وهو القانون والنظام، والأم فاقدة له، ومن عجز الذات تجاه هذا الامتلاك / الفقد تبدأ رحلة الذات في التماهي مع القانون، كيما يتمكن من الامتلاك.

وعلى المستوى السيميائي، فإن العلامة تتمظهر في المرحلة الخيالية متطابقة، وفي حالة من الثبات بين ركنيها (دال - مدلول) كما عند سوسير، فالطفل باكتشافه

١ - التحليل النفسي من فرويد إلى لاكان: ٩٢.

٢ - جاك لاكان اللغة الخيالي والرمزي: ٢٢.

٣ - التحليل النفسي من فرويد إلى لاكان: ١٠٠/٩٩.

الفصل الثاني

الصورة المنعكسة في المرآة يحدد ذاته بوصفها دالا، وتتخذ الصورة مجال المدلول، والقانون الذي يحكمها هو المشابهة، فتتشكل الوحدة العلامية^(١).

وبفعل هذه المشابهة يظهر البشر المحيطين بالذات ضمن فعل المشابهة، وهذا ما يحقق سمة الاتصال، فكل شيء هو امتداد لهذه الذات " ففي هذه الصيغة من الكينونة تعكس الموضوعات ذاتها في بعضها بعضا ضمن دائرة مغلقة لا انقطاع فيها فلا تظهر أي اختلافات أو تقسيمات فعلية إنه عالم كمال ووفرة دون افتقارات أو إقصاءات من أي نوع ... فلا يكون هنالك أي ثغرة مفتوحة بين الدال والمدلول بين الذات والعالم"^(٢).

وهذا يشير إلى حالة الفوضى في التصور الأسطوري، وفي الحقيقة انعدام وجود دال ومدلول في هذه المرحلة، إنما نعتقد أن الأشياء تحضر بذاتها من دون وساطة العلامة، فالتفكير يكون بالشيء لا من خلال أداة تقرض (حضوره/غيابه).

إلا أن هذا العالم الكمالي يهدمه دال الأدب، أو مجاز الأب، والذي يفرض لحظة التمييز بفعل القضيب، بينه وبين الآخرين، ومنه يتشكل اللاشعور حاملا معه رغبات محرمة، فتبدأ لعبة الحضور والغياب وتتشكل الأنا الشعورية بوصفها نقصا ثقافيا يفرض على الأنا، فنتحقق عملية الانتقال من مرحلة الخيالي إلى الرمزي أي إدراك الطفل لـ"الأدوار والعلاقات الاجتماعية والجنسية المتعينة مسبقا والتي تشكل العائلة والمجتمع"^(٣) مما يخرق قانون المشابهة في الخيالي، ويمهد لصيرورة الاختلاف الذي تتمفصل بحسبه الأنا إلى (ذات / آخر). فظهور الأب بوصفه قانونا

١ - نظرية الأدب : ٢٦٥.

٢ - م . ن : ٢٦٦.

٣ - م . ن : ٢٦٧.

الفصل الثاني

"يحول دون (الانصهار) الهوامي لهذا الأخير [الطفل] ضمن الجسد"^(١)، إن منع الانصهار هو من يشكل الذات ضمن قالب المجتمعية والنظام، إلا أنه قائم على انشطار في الأنا (اللاشعور/الشعور)، وهو فاعلية لغوية، إذ "اللغة كما يقول لاكان شرط اللاشعور فاللاشعور هو الحصيلة المنطقية للغة"^(٢)، وعليه تكون العلاقة بين (الدال/المدلول) قد وسمت بالجدار الضدي (/) فإذا كان الدال يتطابق ومدلوله في الخيالي، فإنه في الرمزي مرهون بحالة الاختلاف والمغايرة، فيأخذ المدلول صفة الغياب أو الشطب، فالفاعلية للدال، وهنا ننتقل من عالم الكمال والوفرة إلى عالم النقص، فالكلام فارغ^(٣)، وسلسلة من الإحالات التي يمارسها الدال، وكلما اقترب الانسان من المطابقة كلما كشف لنا عن عالم الرغبات المكبوتة؛ "لأن الكلام المعبر والمليء ... إذا ما تمكن [الإنسان] من إفضائه... أعطى تعبيراً صادقاً عن رغبة كانت إلى الآن في حكم المكبوت"^(٤)، فالرغبة المحظورة توفر الامتلاء في العلامة اللغوية، أي حضور المدلول المكتفي بداله الأصل، إلا أن انشطار الأنا يجعل الدال متسيدا ضمن العلاقة الإحالية اللانهائية، وبذلك تكون الرغبة واللغة متوحدتين في حالة النقص "أي من خلال غياب لموضوعات الحقيقية التي تدل عليها الدواليل وواقعة أن الكلمات ليس لها معنى إلا بفضل غياب غيرها"^(٥)، ومن تدخل اللغة واحتوائها الرغبة تتحدد ملامح (الواقعي) عند جاك لاكان، فهو يشكل "ماهو موجود

١ - جاك لاكان اللغة الخيالي الرمزي: ٧٢.

٢ - التحليل النفسي من فرويد إلى جاك لاكان: ١١٩.

٣ - م . ن : ٩٠ .

٤ - م . ن : ٩٠ .

٥ - نظرية الأدب : ٢٦٨ .

الفصل الثاني

فعلا ولا تستطيع الذات التوصل إليه"^(١)، إذ يتشكل بوصفه ميدانا تعذر بلوغه واحتواءه.

إنّ مركزية الدال وأهميته تنبع من تعارضه السرمدى مع المدلول، فكل دال لا يحدد مدلولاً معيناً، بقدر ما يحيل إلى سلاسل من الدوال الأخرى، فيتعذر الإمساك بمدلول مباشر يمثله الدال، وهو ما يجعل المدلول ينسل تحت الدال، ثم يتبخر تحت سلطته دالاً، مما يؤسس لضياح الحقيقة في كل كلام يقيد ضمن حدود الشعور والوعى، وما يكشفها هو الكلام الذي يتنازل عن عقلانيته، فتتسرب مقولات اللاشعور ورغباته بين الكلمات، ومن هنا نسبت الحقيقة إلى اللاشعور ليصدر لآكان حكمه "أنّ خطابنا كله هو زلة لسان"^(٢).

إنّ الانشطار الذي أصاب الأنا هو امتداد لحالة الانشطار التي فرضها النظام على الفوضى، فحدثت المماثلة التي نعتقد بها بين اللاشعور والفوضى، والشعور والنظام، فالانشطار يؤسس لصورتين للذات الإنسانية، فالذات التي تتشكل ضمن سيرورة القانون والنظام هي ذات فرضت على الإنسان، هي قالب أقره المجتمع، بكل ما فيه من حمولة ثقافية، وعلى الذات أن تتكيف معه خضوعاً، أما الصورة الثانية للذات فهي ما كان ضمن حدود الخيالي اللاكاني، ما قبل الأوديبى، إنها صورة المعارض للقانون والمصنف بحسب، الأخير بأنه محرّم.

ولذلك يشكل حضور الخيالي الفوضوي خرقاً للنظام الذي يسعى للاستقرار، مما يجعل من النفس تقع تحت مسمى (المرض)، والمرض هو تصنيف اعتباري يخضع لمقولة النظام عن الخير / الشر، فكل ما هو خارج النظام فهو شر ومرض.

١ - جاك لآكان اللغة الخيالي الرمزي: ٢٦.

٢ - نظرية الأدب : ٢٧٠.

الفصل الثاني

وهذا ما يجعل العلاقة بين الصورتين علاقة جدلية لا تقبل الحل أو الانفكاك ضمن البعد الثالث الصيرورة الهيجلية، إذ الآخر الشعوري "مكان القانون والنظام الثقافي، الذي يعطي لها القانون صورته الخاصة إنه مكان الأب... [أما الذات اللاشعورية] فهو مكان الرغبة المستحيلة غير المشبعة ومكان جسد الأم العملاق قبل الفطام وبعد ذلك مكان جسدها الذي يمنعه القانون عنه"^(١)، هكذا تصف كاترين ب كليمان العلاقة بينهما وهو ما يعطي معنى لعبارة لاكان " أنا أفكر حيث لا أوجد، إذن أوجد حيث لا أفكر"^(٢)، فحضور الذات ضمن النظام يعني حضور آخرها الذي تشكل بحسب النظام نفسه، وعليه فإن التفكير هو فعل النظام لا فعل الذات، وإذا كان التفكير علامة وجود الذات بحسب المعطى الديكارتي، والذي أسس الخطاب العلمي بحسبه، فإن لاكان يقلب هذا التصور المثالي إذ لا وجود لذات مستقلة مفكرة قادرة على إنتاج المعنى، إنما هو آخر الذات إنه النظام.

استطاع جاك لاكان أن يؤكد فاعلية (اللاشعور) حيث كمال ووفرة في مرحلة الخيالي وهو ما تجده مناظرا للفوضى بوصفها مرحلة وجودية، إذ لا وساطة بين الفكر والموضوع، حالة الاندماج الطبيعي، والتي يحضر فيها المعنى لأجل حضوره، أما النظام فهو لحظة فطام لغوي، فتتفصم العلاقة بين ركني العلامة وهو قلب جوهرى للعلامة السوسيرية الخاضعة لتراتبية (المعقول/المحسوس) وهو ما يتخذه جاك دريدا مدخلا لبيان انتماء دي سوسير للفلسفة المثالية.

١ - جاك لاكان اللغة الخيالي الرمزي: ٢٦.

٢ - م . ن : ٢٣.

الفصل الثاني

ثانيا-جاك دريدا :الفوضى والمنطق الاختلاف

كان رهان الخطاب العلمي في تأسيس مقولاته مجموعة من الظواهر التي تمتلك وجودا قارا قابلا للتنبؤ، وبحسب هذا الفرض تشكلت العلوم الإنسانية باستيراد هذه الرؤية من العلوم الطبيعية، مما شكل الفيزياء علما نموذجيا تسعى العلوم إلى مقارنته.

أن تكون الظاهرة قارة قابلة للتنبؤ يعني أنها تتبني بحسب صياغة قانونية محددة تحكم حدود الظاهرة، ويتخذ الطابع القانوني تعالیه على الزمن، فلا يجري على مكوناته التغيير الذي يمكن ان يحدثه الزمن في سريانه.

وتستلزم القانونية المستقرة وجود مادة أولية تتسم بالثبات، يعني أن تتحقق هويتها بحسب المنطق بالركون إلى أنها هي وليست غيرها.

إن علم اللغة الذي قدمه سوسير، بوصفه نموذجا للعلوم الإنسانية قائم على هذا الأساس، أي أنه جرد اللغة من امتدادها الزمني، وهو امتداد يكشف عن البعد الثابت في اللغة، ومن ثم حدد المادة الأولية التي يكتسب القانون بحسبها فاعليته اللازمية، فتولدت لنا مقولة النظام، ومادته العلامة، ضمن وجودها الذهني، بوصفها مفهوما لا زمنيا أيضا.

من هنا وجد دريدا أن ثمة تقاربا يمكن أن يلحظ بين ما قدمه سوسير عن النظام وما قُدم في الخطاب الميتافيزيقي، معتمدا -جاك دريدا- على بيان أن النظام مقولة غير قارة، إذ لا حدود له من جهة، وأن المادة الأولية وهي العلامة تغاير قانون الهوية المتسم بالثبات.

وبحسب هذا المعطى نجد أن دريدا استثمر مقولات نظرية الفوضى، وذلك بالكشف عن اللاتنبؤية في اللغة، مما يعني قابلية القانون على التغيير والتغير، وأن

الفصل الثاني

النظام منفتح على اللانهائية، التي يولدها منطق الاختلاف، الذي يفرض حضور المضاة في أصل المادة الأولية، مما يجعلها في دينامية متصلة غير قابلة للانقطاع. وبحسب ذلك قدم دريدا قراءة للخطاب الميتافيزيقي من افلاطون إلى سوسير وذلك بالكشف عن الوحدة الرئيسة التي يأسسها الخطاب الميتافيزيقي وهي التراتبية بين (المعقول / المحسوس).

يقدم افلاطون في جمهوريته في الفصل السابع^(١)، أسطورة الكهف، وفيها يجذر نسب الحقيقة والعقل، في انتمائها إلى المبدأ الأول، بوصفه أبا، ومن هذا الأب - المبدأ الأول وهو ما ترسم ملامحه الأساطير، أنشئت مقولة النظام، مقابلا لـ(الفوضى)، وما بين النظام والفوضى يوجد عالما، بوصفه محل صراع، وعلى الإنسان أن يتخذ موقفه في السمو والارتقاء في التماهي مع النظام، أو في التدني والتسافل والسقوط في الفوضى.

وإنسان كهف افلاطون تمثيل لعالم الفوضى فهو أعمى لا يبصر الحقيقة، وما يدركه هو الوهم، أي ما يعتقدوه هو حقيقة زائفة. وهذا الحكم صادر عن النظام في الأصل، وبحسبه تنقسم سلوكيات الفرد ضمن ثنائية (الخير / الشر)، وتصنف الحقيقة خير بالضرورة، أما الشر فهو بالضرورة أيضا وهم. ومن الخير بوصفه نتاج المبدأ الأول، تولد الحقيقة والمعنى، ويولد الجميل والمعقول، يولد الكمال، فـ"مثال الخير ... إنه في العالم المنظور هو خالق النور وموزعه، وفي عالم المعقول هو مصدر الحقيقة والعقل"^(٢)، ومن هنا تنشأ المقابلة التي تقسم الوجود إلى (عالم

^١ - جمهورية افلاطون : دراسة وترجمة د.فؤاد زكريا، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية،

٢٠٠٤م، بلاط: ٤٠٣.

^٢ - م . ن : ٤٠٦.

الفصل الثاني

المعقولات / عالم الفوضى) وما بينهما عالم الوجود الواقعي والذي يصنف بحسب انتمائه، فما ينكشف من الواقع بنور العقل يحدد تماهيه مع النظام، وما يتخذ من الظلام مسلكا ينتمي للفوضى.

إذا تأسس الأسطورة فلسفيا المبدأ الضدي (المعقول/المحسوس) فيمثل المعقول حضور الوجود والماهية في المبدأ الأول (اللوعوس)، حضورا يعد امتدادا للفصل الأسطوري بين النظام والفوضى، بحضور صوت الإله المنظم (زيوس - إنكي - مردوخ)، ومنها تتولد الضدية التراتبية (الخير/الشر).

ويترتب على ذلك أن الحقيقة بنت النظام، يحصل عليها العقل بإدراك نفسه، فلا حاجة به لإدراك الحقائق بوساطة خارجية، فتكون الحقيقة مُدركة بوصفها هي، مع استحالة أن تكون إلا هي، وهذا الإدراك تحت وصاية النظام المعقول.

وأدراكنا للحقيقة المعقولة، في إقصاء لطرف مضاد، فالشر والمحسوس يؤشران بوصفهما حالة غياب، إنه الكهف الذي يخلو من النظام، فلا يوجد فيه إلا الظلام والزيف، إنه الفوضى.

إن هذا التوجه الميتافيزيقي حاكم على التاريخ الفلسفي، وهو ما سلط دريدا عليه استراتيجيته التكيكية، متخذا افلاطون عتبة البداية نحو هيجل وهوسرل، محاولا دريدا وضع الحضور موضع المساءلة، إذ كيف يكون الحضور من دون غياب؟، وعمل دريدا على زرع الاختلاف - الإرجاء في قلب المنظومة الميتافيزيقية، محاولة منه لبيان أثر الفوضى في تشكيل الهوية عبر منطق الاختلاف.

وهو لم يكتفِ بذلك الخطاب الفلسفي، فوسع من حقل اشتغاله محاولا الكشف عن تمثيلات المعقول / المحسوس في الخطاب العلمي، وذلك بفضح منطقته في تأسيس الحقائق، فيدخل المعطى التجريبي تحت مساءلته، بوصف الأخير رافضا

الفصل الثاني

لمقولات الخطاب الميتافيزيقي، ومن هنا تحديدا يكشف دريدا مفارقة العلم الحديث - علم اللغة السويسري- في (رفض/ قبول) منطق الميتافيزيقا.

واتخذ دريدا من ثيمة (الحضور) القطب التراتبي الذي تستند إليه الفلسفة والعلم، فعمل على استكشافه فضا، لبيان ما ينطوي عليه من مفارقة معرفية يتأسس بحسبها، ولذلك اتخذ من هوسرل عتبة، إذ يعدّ مرجعا معرفيا تشكلت مقولاته الفلسفية ضمن ثيمة الحضور، وطبقت هذه المقولات على النظرية النقدية في اشتغالها على المعنى والصوت والكتابة، بلحاظ الثنائية الترتيبية الأصل (معقول/ محسوس).

تفكيك اليقين الهوسرلي

تعدّ الفينومولوجيا اتجاها فلسفيا أراد إعادة ترميم الروح الغربية بعد فضاة ما قدمته الحرب العالمية الأولى من دمار كشف عن سلطوية الخطاب العلمي، فكان إيمان هوسرل بالعقل الإنساني وقدرته على إعادة امتلاك اليقين المطلق هي الملجأ، ومن هذه اللحظة المعرفية تحديدا اكتسبت الفينومولوجيا طابعها العالمي-الإنساني، إذ صوّرت على أنها "علم للوعي البشري"^(١)، وتبعا لهذا الأس المعرفي عُزل الواقع، بفعل آلية التعليق، فمارست نوعا من (الاختزال)، وهو صورة من الشك الديكارتي، محاولة لإقصاء كل مصدر يحمل طابع التغيّر، فقصرت الواقع بالارتداد إلى الوعي، ووعي الذات العاقلة، وما يحضر في الوعي من محتوى يمثل نقطة الشروع في تحقيق اليقين المطلق.

إلا أن هذا الارتداد لا يخلو من، ولا يرفع عن الوعي، النمط العشوائي والفوضوي^(٢)، وبانعدام الضابط لهذا الحضور داخل الوعي، تقع الذات في حالة

^١ - نظرية الأدب : ٩٦.

^٢ - م . ن : ٩٥.

الفصل الثاني

التشتت وضياح المعنى، وهذا ما دفع هوسرل إلى الارتكاز في بحثه الفلسفي على (فعل الوعي) نفسه، وقدرته في الوصول إلى حالة الوعي الخالص بواسطة الحدس، وذلك بتفعيل آلية ضابطة لمحتوى الوعي، وذلك بضبط وتصنيف وعزل كل ما هو متغير ومتحرك في المحتوى، للوقوف على ما هو ثابت وجوهري تتفعل محتويات الوعي بثباته، وترتد إليه كل المتغيرات، وبحسب هذا التوجه عُرفت الفينومولوجيا بأنها "نظام من الجواهر أو الماهيات الشاملة"^(١)، فالجواهر الثابتة حتمية يقينية مطلقا، لا يتسرب إليها الشك لحدسياتها أصالة، إذ يصل الفكر إلى محتواه من دون وساطة عنصر خارجي عليه، إذاً نحن في حالة اختزال لما هو مادي، والركون إلى ماهو معقول، على أساس أن الأول مصدر لكل متغير لا ينتج يقينا، والثاني - المعقول - قائم على الثابت الذي يتأسس بحسبه اليقين الفينومولوجي، يراجع دريدا هذا الاختزال والبحث عن الماهيات في بحثه الصوت والظاهرة مستكشفا العلامة وأثرها في هذا الخطاب الفلسفي المبني على المعقول الافلاطوني.

يقسم هوسرل العلامة إلى صنفين، الأول: العبارة، وهي مساوية للعلامة عموما، فهي "علامة لسانية صرفة وهو ما يميزها قطعا عن الإشارة"^(٢)، الثاني: الإشارة وهي الصنف الذي لا يمتلك حمولة معنوية، أما تكتفي بأن (تشير)، فهي إشارة "منزوعة الدلالة أو المعنى"^(٣)، فالفعل التواصل الواقعي مبني على هاتين العلامتين (العبارة والإشارة) إلا أن خصوصية العبارة ماهويا، احتوائها على حمولة معنوية دائما وأبدا، فهي تمتلك جانبا حضوريا في الوعي، أما الإشارة، مفتقرة لهذا

١ - نظرية الأدب: ٩٥.

٢ - الصوت والظاهرة مدخل إلى مسألة العلامة في فينومينولوجيا هوسرل: جاك دريدا، ترجمة، فتحي إنقرزو، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط ١ ٢٠٠٥ : ٤٧.

٣ - م . ن : ٤٥.

الفصل الثاني

الامتياز، مما يجعلها ثانوية، فهي متلوثة بالتغيير، مما يجعلها تخضع لفعل الاختزال الفينومولوجي، أي يجب أن يتخلص منها الخطاب الفلسفي والعلمي، وبالضرورة تتخلص منها النظرية النقدية. وعليه ارتبطت العبارة بفعل القول وإرادة القول (القصدية)، وذلك للحصول على التواصل الخالص والنقي، على مستوى الوعي، وما يخرق هذا التواصل الخالص وجود إشارة غير مكتملة، موضع نقص، فهي من تسبب حالة التشتت في محتوى الوعي.

إلا أن هذا التفريق يبقى غير مكتمل وغير ناجز بحسب دريدا، لأن "العلامة القولية، وتبعاً لذلك اعتزام القول، إنما هي، فعلاً ودوماً على حال من الاشتباك، رهن لنظام إشاري"^(١).

إن اختزال الإشارة بوصفها بعداً مادياً وظيفته أن يشير فقط، يمكّن هوسرل من الوصول إلى (العبارة الخالصة)، وفعل التعبير الخالص، يعني أن يكون التواصل ممتلئاً بالمعنى، ف"الوظيفة المحضة للعبارة وللدلالة ليست التواصل ولا الإخبار ولا هي البيان، إلا أن (الحياة المتوحدة للنفس) تدل على مثل هذه العبارة التي هي بغير إشارة، أمر ممكن"^(٢)، فالتواصل نوعان، منه ما هو واقعي له اشتباك مع الاستعمال الإشاري، ومنه ما هو متجرد من الإشارة (الحياة المتوحدة في النفس) والذي يمثل التواصل الباطني للنفس، حديث النفس لنفسها، وفيه لا يكون للتواصل غاية، إذ لا يوجد تبليغ أو حركة انتقال تحاوري بين متكلم وسماع، إنما يوجد (حضور) للمعنى في وعي الذات بشكل آني.

^١ - الصوت والظاهرة: ٥٠.

^٢ - م . ن : ٨٧.

الفصل الثاني

فيظهر معيار التصنيف بشكل جلي بين العبارة والإشارة، ففي "الحياة الباطنية لن تكون ثمة إشارة؛ لأنه ليس ثمة تواصل، وليس ثمة تواصل لأنه لا وجود لغير الذات"^(١)، إنها لحظة تعالی العقل على الواقع، بوصفه مصدرا للماهيات والجواهر، فحضورها التام وعيا، يفرض التخلص من المادي المحسوس، لأنه مصدر الاضطراب والفوضى.

ف للعبارة وظيفة مزدوجة، فهي تحقق إدراك الوعي للمعنى الممتلئ والقيني بواسطتها، ومن جهة ثانية لها قدرة على إظهار المعنى، وتمظهره خارج الوعي أو التواصل النفسي، فالتواصل الواقعي التحاوري يعتمد في وجوده أصالة على تحقق التواصل النفسي، فإمكانية العبارة على إخراج المعنى - المدلول العقلي إلى حيز الوجود هي الأصل^(٢)، وعليه تتشكل طبقتان طبقة المعنى وطبقة العبارة، التي تُخرجه، وبوساطة الإجراء الفينومولوجي للإقصار والتعليق لما هو واقعي مادي، في لحظة الارتداد إلى العقل يخضع الدال - العبارة إلى نوع من التنقية، لتُخلص العبارة من متعلقات التغيير الواقعي، فتكون لحظة (حضور) المدلول أو طبقة المعنى من دون وساطة في العقل، فهي لحظة شطب، "إن لحظة أمحاء الدال هي لحظة حضور المدلول نفسه في الوعي"^(٣)، فكل ما هو متاح لإمكانات الحسي لدى الوعي قابل للمحو، مع فرض رئيس هو التخلص من كل فرض سابق على هذا الحضور، مما يجعلنا نقف ذهنيا على "يقين قاطع أو حتمي منطقي"^(٤) فإننا نقف على المعقولات الصرفة بوصفها جواهر ثابتة، حضورها حضور هوياتي غير قابل للتغيير

^١ - الصوت والظاهرة: ١١٧.

^٢ - م . ن : ٤٥ وما بعدها.

^٣ - م . ن : ١٢٧.

^٤ - بؤس البنيوية : ٢٦٣.

الفصل الثاني

مما يكسبها طابعها المثالي وما يمثلها هو حديث النفس للفرد، وهو ما نلمح فيه تواصلًا إذ الذات تقف منفردة^(١)، في هذا الحضور، الذي يمثل صوت الإله في الإنسان، وهو حضور سابق للاختلاف السوسيري، إذ به تتحقق المعاني، فالمعاني الذهنية التي تكتسب اللغة وجودها منها سابقة تشكل النظام ذي الشرط التمايزي السلبي.

إنّ منطق الهوية الذي يتعالى على الاختلاف، منطق يستند إلى فاعلية (الحضور)، حضور المعاني الكلية، ذات النزعة المثالية فـ"عملية الإنصات إلى حديث النفس هي انفعال بالنفس من نمط متميز إطلاقًا من ناحية تجري ضمن وسط الكلية فالمدلولات التي تظهر عندها يتوجب عليها أن تكون متألّيات ويتوجب علينا أن نقدر على تكريرها مثاليًا، أو تبليغها بلا نهاية بوصفها هي هي"^(٢)، إن ما يضمن تعالي المدلولات هو حضورها بلا نهاية هي هي، فهي الجوهر الثابت الذي يتجاوز مقولة الزمن، إنها معان لا زمانية.

ودريداً يلحظ ما تمارسه العبارة من وظيفة، وبواسطة إجراءاته التفكيكي يحاول استكشاف قيمة الصوت المكتسبة من المعنى المثالي.

فالعبارة التي تُخرج المعنى التأسيسي، تكون عاكسة، لها وظيفة المرآة، بمعنى أنها غير منتجة، مما يجعلها تتصف بالعقم^(٣)، وهذه السمة -عقم العبارة- تجعل من العبارة أمينة في إخراج المعنى المثالي وتمظهره، فالن تفعل العبارة شيئاً

١ - ينظر : الصوت والظاهرة: ١١٧.

٢ - م . ن : ١٢٩.

٣ - م . ن : ١٢٣.

الفصل الثاني

سوى إعادة نشر المعنى"^(١)، فالمعنى التأسيسي صامت بحاجة إلى صوت، وبحسب هذا التسلسل المنطقي لوظيفة العبارة وعلاقتها بالمعنى يؤشر دريدا عدم مثالية المعنى أصالة، فحاجة المعنى لأداة تُخرجه من حيزه الذهني إلى الوجود الواقعي، تؤشر لحظة نقص فيما هو جوهري، فهذا المعنى المثالي يستدعي امتيازاً لعلامة استخراجيه وإظهاره فـ"شرف الوعي ... إمكان الصوت الحي"^(٢)، ومن هنا يؤشر نقص المعنى المثالي، وفي الوقت نفسه يؤشر امتياز الصوت الميتافيزيقي الكلام الممتلئ بصوت اللوغوس.

يتساءل دريدا عن السمة المميزة في الصوت والتي تؤهله للارتباط بما هو مثالي؟ ليجد، وبلغة فينومنولوجية، أن نمط العلاقة بين فعل الحضور والصوت، تتبع من قرب الصوت من الذات المتكلمة لحظة وعيها بعملية إخراج المعنى، مما يبيث الحياة في الصوت، فيكون الكلام مكتنزاً بالمعنى المثالي المؤسس، ولأن العبارة عقيمة، فهو يخرج من دون أن يؤثر فيه، إذ لا تغيير يطال المنى، إن الصوت الدال يكتسب امتيازه من قربه من المدلول، فيكتسب بذلك حياته بوصفه القادر على حمل المعنى، وكذلك لأنه قابل للانمحاء، مما يجعل المعنى قابلاً للتكرار مع الحفاظ على طابعه الجوهري، فعلى الصوت أن يحمي المعنى إذ " يضطر وسط العبارة أن يحمي حضور المعنى ويرعاه ويعيد بناءه في الآن نفسه بوصفه الوجود - القائم الذي في الموضوع المائل للرؤية، وبوصفه قربي الذات من باطن ذاتها"^(٣).

^١ - هومش الفلسفة: جاك دريدا، ترجمة منى طلبية، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت-لبنان،

ط ١٩٠١: ٢٢٤.

^٢ - الصوت والظاهرة: ٤١.

^٣ - م . ن : ١٢٤.

الفصل الثاني

وعليه نلاحظ أن اليقين الذي يتأسس بحسب المعاني المتعالية على الزمن، بوصفها جواهر وماهيات لها حضورها البدهي، وهو تطوير لتصور ديكرت، هذا اليقين لا يمكن له أن يتغيّر، كما أنه يمثل لحظة الكمال، فكلما اقتربنا منه كلما تخلصنا من النقص فينا، مما ينتج الذات المتعالية. وهذا ما يفرضه النظام المقابل للفوضى، فبما أن الحقائق اليقينية هي ما يقره النظام نفسه، فإن امتلاك الحقائق يفرض علينا التخلص من المتغيرات، وهو ما نقرب به من الكمال المثالي.

متى تنقطع الصلة بين المعنى والصوت؟ عندما يفقد الدال الصوتي عقمه، فيكون فاعلا، وعلى ذلك يترتب أن الدال يرفع حمايته عن المدلول، فيكون الثابت والمثالي قابلا للتغيير، فيكون النظام وحقائقه في حالة خلخلة، إذ تتعرض شروطه التأسيسية للعطب المعرفي، وبذلك يكون المدلول الكلي والمثالي ذو الطابع اليقيني، خاضعا لاحتمالية التأويل، فتجرح الهوية المنطقية إذ يدخل في تشكلها الطرف المضاد وربما النقيض أيضا، فيسقط الطابع التصديقي لليقين، وهذا ما تحققه الإشارة، والكتابة التي يجدها دريدا منفا يترشح عنه ما يحاول النظام كبتة.

إنّ التأسيس لمعنى حاضر في الذهن ينماز بوجوده المؤسس قبل وجود اللغة المعبرة عنه، وتسرب هذا التميّز للصوت بأنه الوسيط الأمين العاكس لهذه المعاني، إنّ هذا التأسيس هو امتداد للفصل الذي وضع من قبل الإله المنظّم، والحضور هو حضور لصوت الإله، وهو ما يضمن ديمومة اليقين والحقيقة، بوصفهما حضورا للإله نفسه، مما يجعل من الفوضى بوصفها مقابلا مصدرا للحقيقة، والتغيّر، فضلا عن هدمها لمبدأ اليقين، ولذلك يجب أن تقصى، وفعل إقصائها يضمن الاستقرار في النظام وحدوث التوازن والانسجام، وبذلك يسري مبدأ الخير الافلاطوني، حاميا لتراتبية إقصائية، ضمن منطق (إما/أو)، فإما أن تكون مع النظام، أو تسقط في الفوضى، بما فيها من صفات تتمتع بالمؤشر (لا).

الفصل الثاني

ولكن هل يمكن أن نركن إلى شفافية الصوت الناتجة عن قربه من المدلول؟ هل حقًا أنّ اللغة المعبرة عن المعاني الكلية الثابتة لا تؤثر فيها؟.

هذا ما يحاول دريدا تفكيكه في مقارنته للعلامة السوسيرية، بوصفها امتدادا للتصور الهوسرلي، محاولا دريدا قلب التراتيبات المتعارضة، زارعا الفضح في بنية النظام الميتافيزيقي نفسه، متخذا من قياس الخلف* أداة ناجزة تبين لنا أن هوية الحضور قائمة على فاعلية الغياب، وأن مدلولية المدلول تكتسب هويتها من لحظة انفصالها عن الدال، فلا تكون العلامة وحدة كلية. وهو بذلك يجعلنا نقف على فاعلية الفوضى بوصفها أصلا تأسيسيا في الوجود.

العلامة والاختلاف وسلطة المعقول

إنّ النظرية النقدية الحديثة مبنية على مرجع فلسفي هو الفينومولوجيا، إذ حقق لها استقلالية الذات عن الموضوع في لحظة الفصل التي علّق الاختزال الفينومولوجي فيها كل ما هو واقعي بالارتداد إلى الوعي، وسار على ذات الفصل سوسير في مقولاته التأسيسية، وعلى ذلك يكون اشتغال دريدا على سويسر امتداد لتفكيكه لمقولات هوسرل.

يرى دريدا أن منجز سوسير في علم اللغة لحظة قراءته الأولى يظهر بمظهر ينقض فيه الخطاب الميتافيزيقي، وذلك باعتماده على مقولة تأسيسية هي الاختلاف، إذ يشكل الاختلاف عند سوسير وجودا شرطيا، تتحقق بفعل وجوده الدلالة، ووجوده لا يؤخذ بوصفه قالباً بدهيا يمتلك حضورا ذهنيا، إنما هو من قبيل النشاط والفاعلية الحركية الدائمة، فالعلامة كيما تكتسب حقّ التدليل في الفعل التواصلية كان عليها أن تخضع لكلية العلامة ووحدتها، أي وحدة ركني العلامة (الدال-المدلول)، وكل

* إثبات صدق أو كذب القضية المطلوب إثباتها.

الفصل الثاني

علامة قيمتها تتحقق بأنها غيرها، فاختلافها عن غيرها يكسبها وجودها الدلالي، وهذا يقصي فكرة الثنائية (جسد/روح) الميتافيزيقية.

ويتأسس على هذا الاختلاف السلبي بين العلامات، عدم وجود هوية أولية تنتقل تواصلها، فالمعنى لا يمتلك حضوراً ذهنياً قبل اختلافه، وما يوجد هو الاختلافات فقط، وهذا وبشكل مبدئي يخالف مركزية اللوغوس، والذي يُكسب الوجود حضوره، أي "أنه لم يكن شيئاً قبل اللوغوس أو خارجه"^(١).

ودريداً كما كشف بطريقة الخلف، أي إثبات أن المعنى الكلي والمثالي عند هوسرل قد صدق نقيضه، فإنه يعمل تفكيكياً على كشف انتماء سوسير إلى الخطاب الميتافيزيقي ذي الأصول الأفلاطونية، بمعنى أنه بنية عميقة تحكم الخطاب العلمي فرضت حضورها في منطق علم اللغة العام، وعليه فرضت حضورها على النظرية النقدية الحديثة ضرورة.

إذ يرصد دريدا حالة من التقابل الضدي بين المقدمات والنتائج عند سوسير، وهو يصل إلى رتبة التناقض التي تختفي تحت غطاء الخطاب العلمي.

قد بيّنا فيما سبق حالة التقابل بين النظام / الفوضى، تقابل تراتبي يجعل من الطرف الأول مركزاً والثاني هامشاً، بل ويصدر الثاني بوصفه حالة مرضية يجب علاجها إقصائياً، وهذا التراتب يؤسس له القيمة الأخلاقية (خير / شر)، والتي تستند في وجودها على ثنائية (المعقول / المحسوس)، ومنها تتناسل الثنائيات ذات الطابع التراتبي، (صوت / كتابة)، (لسان / كلام)، (مدلول / دال) ودائماً ما "يعزى الطرف الأعلى إلى اللوغوس ويحتل وضع حضور أعلى، في حين يؤشر الطرف الأدنى

^١ - علم الكتابة: جاك دريدا، ترجمة وتقديم أنور مغيث ومنى طلبة، المركز القومي للترجمة،

الفصل الثاني

على سقوط ما، ومن ثم تقتض نزعاً مركزية اللوغوس أسبقية الطرف الأول، ولا نفهم الطرف الثاني إلا بالرجوع إلى الطرف الأول على اعتبار أنه حالة ثانوية أو نفي أو مظهر أو تمزق للطرف الأول^(١)، فالعلاقة بينهما علاقة صراع يتخذ الطرف الأول فيه سلطة النظام، وكل خرق للنظام ينتج عن الطرف المضاد.

اللوغوس	
المعقول	المحسوس
الخير	الشر
النظام	الفوضى
المدلول	الدال
الثابت	المتغير
الاستقرار	الخلخلة
الكلام	الكتابة
المفهوم	المادة

يرى دريدا أن العلامة مبنية على التصور الميتافيزيقي فهي لاهوتية البناء^(٢)، وليثبت هذا الانتماء بحاجة إلى نص يظهر لنا انتماء العلامة وخضوعها لتراتبية المعقول / المحسوس، أي إثبات وجودها ضمن اللوغوس.

^١ - مدخل إلى التفكيك: ميشل رايان، جوناثان كلر، ريتشارد رورتي، كريستوفر نوريس، تحرير وترجمة حسام نايل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، سلسلة آفاق عالمية ٦٩، ط١، ٢٠٠٨: ١١٨.

^٢ - ينظر: علم الكتابة : ٧٥.

الفصل الثاني

فإذا كان مدعى سوسير في الاختلاف أن لا وجود للمعنى قبل الاختلاف، فلا بد أن يكون نقيض ذلك المدعى كاذب، ومحاولة دريدا تحديدا هي إثبات صدق النقيض، مما يؤهله لهدم مقولات علم اللغة السوسيري.

ويتخذ دريدا من مقولات رومان ياكبسون منطلقا لتفكيكه العلامة السويسرية، إذ يجعل ياكبسون أصل الفارق بين الدال والمدلول هو التمايز الضدي بين المعقول والمحسوس، "فالسمة المكونة لكل علامة بوجه عام، وللعلامة اللغوية بوجه خاص، تكمن في خاصيتها المزدوجة: فكل وحدة لغوية تتكون من جزأين وتتضمن جانبين: الأول محسوس، والآخر معقول، فمن جانب هناك الدال، ومن جانب هناك المدلول، هذان العنصران اللذان يكونان العلامة اللغوية (والعلامة بوجه عام) يفترض كل منهما الآخر ويستدعيه"^(١)، ودريدا يحذرنا من أن ننخدع بفكرة الاستدعاء، فالمعقول هو الأصل، واستدعاؤه للجانب المحسوس يكون تحت الاشتراط الفينومولوجي، على الجانب المحسوس أن يكون عقيما في تواصله مع المعقول.

إنّ العلامة اللغوية ضمن ظروفات دي سوسير نتاج للتراتبية (معقول / محسوس)، وسوسير نفسه يذكر أنه يميل "إلى استخدامها لأنني لا أعرف كلمة أخرى يمكن أن تحل محلها، واللغة الاعتيادية لا توحى لي بغيرها"^(٢)، أي العلامة لم يجد مصطلحا يلائم تصوره عنها ضمن اللغة الاعتيادية، بمعنى أنه يرتضي لغة الخطاب العلمي السائد، وهو إقرار بخضوعه لسلطة هذا الخطاب، والخضوع له يفرض عليه حالة من الانسجام مع الحمولة الميتافيزيقية التي أسست لهذا التعبير اللغوي، وهذا ما يقف عنده دريدا مبينا أن لغة الخطاب العلمي "ليست بريئة أو محايدة إذ هي لغة الميتافيزيقيا الغربية التي تحمل ليس فقط عددا مهما من فرضياتها المختلفة وإنما

^١ - علم الكتابة : ٧٥.

^٢ - علم اللغة العام : ٨٦.

الفصل الثاني

فرضيات مترابطة ومكثفة بشكل نسقي"^(١)، والميل لهذا الاستخدام دليل على عدم المعارضة بين تصورات سوسير وبين لغة الخطاب التي يصفها دريدا بأنها لغة الميتافيزيقيا الغربية.

وعلى ذلك فإن تصور سوسير لا يبتعد عن تصور هوسرل في سلطة المدلول المتعالي والمثالي، ذي الطابع الكلي، فهو يمتلك وجودا سابقا للنظام والنسق، وما على المحسوس سوى ممارسة فعل النقل في كل فعل تواصل، فالمدلول "لا يقبل الرجوع إلا لذاته، مزدريا وجود الكلمات في حقيقتها الحسيّة والمادية"^(٢).

إن هذه التراتبية الداعمة لأفضلية المدلول - المعقول تجعل من الدال - المحسوس وسيط نقل، فهو أداة يمر من وسطها المدلول، وعليه فالدال أدنى رتبة من المدلول، فالدال لا يمتلك وجودا من دونه، أما المدلول فوجوده لا يتعلق على وجود الدال.

وعلى هذا يضطلع اللغوي بوظيفة محددة، وهي وظيفة تكريس مقولات الخطاب بحمولته الميتافيزيقية في المنظومة اللغوية، ليمظهر المدلول أصلا تنبني اللغة على وجوده، وهذا ما دفع جوناثان كلر إلى رصد هذا التكريس: "بذلك يشتبك مفهوم العلامة مع المفاهيم الأساسية في نزعة مركزية اللوغوس، وهي مفاهيم من الصعب على سوسير أن يغيّرها حتى لو أراد ذلك"^(٣)، فإذا كانت المفاهيم المؤسسة، أو نظرية

^١ - مواقع حوارات مع جاك دريدا: هنري رونس، جوليا كرستيفيفا، جيني سكاربيتا، جان لوي هودبين، ترجمة وتقديم فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء-المغرب، ط١، ١٩٩٢ : ٢٣.

^٢ - مدخل إلى قراءة دريدا: كاظم جهاد، مجلة فصول، زمن الرواية، الجزء الأول، مج ١١، عدد ٤، شتاء ١٩٩٣ : ٢٠١.

^٣ - مدخل إلى التفكيك : ١٢٩.

الفصل الثاني

المعرفة حاکمة في الخطابين العلمي واللغوي، مما دفع سوسير لاختيار العلامة، فإن دريدا يصدر (الأثر) بديلاً يلائم توجهاته المعرفية التي تفكك مقولات الخطاب الميتافيزيقي.

وبحسب هذا الاشتباك المفاهيمي يتوحد الخطاب الفينومولوجي مع الخطاب اللغوي للسانيات، وكلاهما يؤكدان على وحدة المدلول وأسبقيته، مما يعني أن قضية يقينية، يقينا لا يمكن أن يكون إلا بهذا الوضع، هو من تتبني عليه المنظومة، ومنه تتنازل القضايا، مكتسبة يقينها منه، وعلى هذا التوجه المعرفي انبنت النظرية النقدية الحديثة، وعلى الطرف المقابل لها تتموضع نظرية الفوضى، فافرضة أن هذا اليقين الأولي غير مبرهن عليه، كما في مبدأ عدم اليقين عند هايزنبرغ، وهذا هو أصل الفارق المعرفي بين النظرية النقدية ونظرية الفوضى، فالأولى تتطلق من عتبة الثابت اليقيني، والثانية تفترض الاختلاف أصلاً، ومن عدم اليقين مبدأً.

إذاً فالاختلاف السوسيري لا يعد خلواً من هذا الاشتباك المفاهيمي، فهو وليد مقولة اللوغوس، فأصله الاختلاف بين المعقول / المحسوس، فيتخذ المدلول فيه " واجهة للمعقولة الخالصة، فإنه يحيل إلى لوغوس مطلق ومرتبطة به مباشرة... إن عصر العلامة هو أساساً لاهوتي وقد لا ينتهي أبداً"^(١)، وبذلك يصل دريدا إلى معيارية الاختلاف السوسيري، فالأخير أراد لاختلافه أن يكون سلبيًا، وبحسب الانتماء المفاهيمي يجد دريدا أن اختلاف سوسير إيجابي يؤسسه المدلول، وهذا ما يتعارض مع طرح سوسير في الاختلاف المتأسس بحسب الفوارق السلبية بين مكوناته^(٢)، وهذا ما يمكن أن يسمى بالفضح الدريدي، ولكن ما الأثر الذي ينتج عن هذه التراتبية؟ يؤكد دريدا أنها تولد سلسلة من التراتبيات، والتي تظهر صراحة في

^١ - علم الكتابة : ٧٥-٧٦.

^٢ - علم اللغة العام : ١٣٧-١٣٨.

الفصل الثاني

كتاب علم اللغة العام لسوسير، وهي تمعن في بيان الطابع الميتافيزيقي، ومنها تراتبية (الكلام / الكتابة).

عندما فرّق سوسير بين (اللسان والكلام) جعل الكلام في رتبة ثانوية، مع بيان مجموع صفاته، بوصفه فرديا متغيرا^(١)، وهو مقابل للسان الذي يتسم بالثبوت، والجماعية، وما كان ثابتا يعدّ أصلا، وما كان متغيرا يعد ثانويا، والثانوي بحاجة إلى الأصل وليس العكس.

وما يلحظه دريدا أن سوسير يقع في تناقض صارخ، إذ يجعل من المادة الصوتية ذات ارتباط طبيعي باللغة، وعليه فإن امتياز ما قد اكتسبه الصوت، وهو تصور مشابه لتصور هوسرل الفينومولوجي، يقول سوسير "إن أصرة الصوت هي الأصرة الحقيقية الوحيدة"^(٢)، أي ارتباط الصوت بالمدلول، فاللغة ما هي إلا علامات تنتقل الفكر^(٣)، نقل الفكر يثبت الطابع الأداتي للصوت، فهو يعمل على إخراج المدلول من حيزه الذهني، إلى الحيز المادي، وامتنياز الصوت هو قربه من المدلول وأولية ارتباطه به، إذ الصوت يتعلمه الإنسان أولا.

ومن هذه الأصرة تتحقق الوحدة العلمية بين (الفكر / الصوت) وحدة داخلية تأسس اللغة نظاما، ويقع على الطرف الآخر نظام يعدّ من أمراض اللغة، وهو الكتابة، والتي تأخذ على عاتقها تمثيل الجانب الخارجي لهذه الوحدة الداخلية، وذلك انطلاقا من تعريف سوسير "اللغة والكتابة نظامان متغايران من الإشارات والهدف الوحيد الذي يسوغ وجود الكتابة هو التعبير عن اللغة"^(٤)، أي أنها وسيط يبتعد رتبة

١ - علم اللغة العام: ٩٠ .

٢ - م . ن : ٤٤ .

٣ - م . ن : ٤٥ .

٤ - م . ن : ٤٢ .

الفصل الثاني

عن الأصل الكامل، مما يجعلها نسخة مادية مشوهة عن الأصل، فهي "لا تمت بصلة إلى النظام الداخلي للغة"^(١)، بمعنى أن الكتابة ليست جزءا من اللغة، فالأصرة الحقيقية هي الصوت والفكر، والكتابة هي تعبير عن هذه الأصرة وليست داخلة في ماهيتها، فهي ممثل خارجي فقط، أي دال على الدال - مدلول، وعليه فهي مسبوقه وجودا بالنظام اللغوي مما يجعلها ضمن المحسوس الخاضع لتراتبية المعقول وأصالته.

وسوسير يطلق في كتابه مجموعة من صفات الكتابة : "تخلق وحدة وهمية... الكتابة تتأخر دائما عن اللفظ... الكتابة تتسم بعدم الاستقرار ... الكتابة تطمس المعالم الحقيقية للغة"^(٢) وهذه الصفات أوصلت سوسير لنتيجة " من المفضل أن يحل ما هو طبيعي في محل ما هو مصطنع"^(٣)، وإذا أخذنا الصفات (وهمية- متأخرة-عدم الاستقرار-تطمس الحقيقة) نجدها بالضد من (يقيني-أقرب-مستقر- يظهر الحقيقة)، وهذا التضاد هو نفسه التضاد الأسطوري بين (الفوضى / النظام)، وترتب على ذلك أن تكون الكتابة شرّ، لأنه ببساطة يطمس الحقيقة وتؤكد مبدأ عدم اليقين، ومن هذا المدخل يجد دريدا أن الكتابة ولحظة إبعادها بوصفها شرا، كونها تهدد النظام الداخلي والطبيعي للغة، ولذلك ف"إن الأمر لا يتعلق بتحديد ملامح النظام الداخلي للغة، وإنما بالأحرى بحمايته واستعادة نقاء مفهومه من العدوى الخطيرة والمخادعة والمستمرة التي لا تكف عن تهديده بل وتشويهه"^(٤)، والفارق بين أصرة الصوت والفكر وبين الكتابة هو اليقين، فالصوت يستمد يقينه من قرينه من

١ - علم اللغة العام: ٤٢.

٢ - م . ن : ٤٦-٥١.

٣ - م . ن : ٥١.

٤ - علم الكتابة: ١٠٧.

الفصل الثاني

المدلول، والكتابة تتأخر مما يجعلها أبعد عن مصدر الحقيقة، فلذلك تكون مصدرا للتشويه، فتتخذ الكتابة بحسب سوسير نموذجها من الفوضى، بوصفها منظومة تقدم عدم اليقين وعدم الاستقرار، لأنها تقوم على عدم الانسجام مما يولد الاختلاط والعشوائية، ولذلك يجب إقصاؤها، وعلى اللوغوس أن يحمي منظومته من كل ما يمكن أن يحدث طابعا عشوائيا في نظامه، مما يدفعه لإجراء "محاكمة للهرة" (١)، فنحن أمام ثنائية افلاطون الأولى والتي استمد محتواها عن الأساطير، ثنائية حاكمة للخطاب العلمي على الرغم من مقولاته الداعية إلى التخلص من الطابع الأسطوري بوصفه نمودجا غير مبرهن عليه تجريبيا، ويستدعي دريدا ثنائية الروح / الجسد، فالكتابة جسد منبع كل شهوة، وكل الشهوات تتجاوز النظام، مما يجعلها مصدرا للخطر، وتظهر جسدية اللغة عند سوسير بوصفها "رداء للغة" (٢)، وبحسب تصورات سوسير يصف دريدا الكتابة بأنها "رداء فسق وانحراف، لباس إفساد وتتكسر" (٣)، ودريدا يجد أن هذا التوجه عند سوسير ما هو إلا امتداد لتصوير افلاطون عن الكتابة (٤)، ويتساءل دريدا عن السبب الذي يجعل من الكتابة بهذا الوصف؟ ولماذا كانت مصدرا للفوضى؟، ليجد أنها ببساطة تنفلت من رقابة اللوغوس، فهي تنقل المعنى دون حمايته، مما يجعل الحقيقة ضبابية، فهي مؤشر على غياب النظام، وغيابه يفتح الباب واسعا لتعدد المعنى وتنوعه، بل وتشتته، فالكتابة هي إخفاء للحضور الطبيعي والأولي والمباشر للمعنى أمام نفس اللوغوس وعنفها يطرأ على النفس كلاوعي (٥)،

١ - علم اللغة العام: ١٠٨.

٢ - م. ن: ٤٨.

٣ - علم الكتابة: ١٠٨.

٤ - م. ن: ١٠٦.

٥ - م. ن: ١١١.

الفصل الثاني

ودريدا يدرك تماما أن الخطاب العلمي يقصي اللاوعي بوصفه فوضى، لا يجب أن تكون مصدرا للحقيقة.

وما يقدمه افلاطون في محاوره فايدروس عن الكتابة يبين المفاهيم عند سوسير، فهي تتصف بضعف التذكر، وعدم قدرتها على نقل الحقيقة، وأصحابها- أي الكتابة- من أشباه الحكماء، الكتابة تتسم بالصمت عكس الكلام الذي ينقل الفكر مما يفرض وجود متكلم يصحح ما انحرف الكلام فيه، أما الكتابة فهي مقطوعة النسب^(١)، هذا هو الجذر المفاهيمي لعلم اللغة في تصوره عن النظام اللغوي، تتمظهر فيه الكتابة مبتورة، إنها الابن الضال، أو أداة التعبير غير الشرعية، فهي دالة على " البعد والضباب وإساءة الفهم وعدم الإخلاص والالتباس"^(٢).

إلا أن دريدا لا يقف على تحديد النسب المفاهيمي لمقولات سوسير، إنما يبين أثر الكتابة، على رغم من كل صفاتها السلبية، على صناعة علم اللغة عند سوسير، فيضع يده على عدم انسجام منظومة علم اللغة كله.

يضع سوسير الكتابة معيارا للقياس عليه، مما يجعلها كاشفة عن غموض، أين نجد الغموض؟ نجده في الكلام، فمفاهيم سوسير ومصطلحاته، تتخذ من الكتابة سندا توضيحيا لغموضها، فمنذ اللحظة التي يضع فيها سوسير العلامة ومكوناتها، إلى بيانه عن الاختلاف ومدى مشروعيتها وطابعه السلبي، يتسند إلى الكتابة في بيان حدود هذه المفاهيم، وهو تناقض بين، وعلى أساسه يرتب دريدا نتيجته التي ينقلها جوناثان كلر "نفهم أن الكلام شكل من الكتابة، وشاهد على آلية لغوية أساسية تظهر

^١ - ينظر: محاوره فايدروس لأفلاطون أو عن الجمال: أفلاطون، ترجمة وتقديم الدكتورة أميرة حلمي مطر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، بلاط، ٢٠٠٠ : ١١٠-١١١.

^٢ - مدخل إلى التفكير : ١٣١.

الفصل الثاني

في الكتابة^(١)، مما يجعل الكتابة هي الأصل^(٢)، فما هو فوضوي هو أصل لوجود النظام.

يلحظ دريدا أن السمات الجوهرية للكلام والصوت والتي تشكل هويتها، نجدها راسخة في الكتابة، بل أن أصل هذه السمات هو الوجود الكتابي، فالتكرار والإعادة للعلامة الذي يحقق هوية العلامة وقدرتها على أداء وظيفتها التواصلية، مستمدان من الكتابة، فالتكرار الذي يحفظ المعنى وإن غاب المتكلم هو عينه ما نجده في الكتابة^(٣).

وبذلك يقلب دريدا التعارض بين المعقول / المحسوس، قلبا وظائفا، وقيما، ليتخذ المحسوس موضعه بوصف أصلا، لا بوصفه وجودا ثانويا.

وهذا القلب هو ما تسعى نظرية الفوضى إلى تأسيسه على المستوى المعرفي، فاليقين ليس هو الأصل، إنما عدم اليقين، والتعدد هو الأصل وليس الوحدة، والاختلاط وعدم الانسجام هما الأصل وليس النظام والاستقرار.

يعمل دريدا على التأسيس لهذا التعدد والتنوع بوصفه أصلا، وذلك بتوسعة حدود الاختلاف إلى أقصى حدّ ممكن، فإذا كان الاختلاف هو التمايز السلبي بين علامة و أخرى، وإذا كانت اللغة نظاما من الاختلاف فقط، لا غير، فلزاما سيكون الاختلاف هو شرط تحقق المعنى.

وللاختلاف وجوده غير المحسوس، مع اشتراطه لتحقيق ما يدرك بالحس، فالاختلاف "بين وحدتين غير مسموع وهذا هو الأمر الوحيد الذي يسمح لهذه الوحدات

١ - مدخل إلى التفكيك: ١٣٢.

٢ - علم الكتابة ١٠٧.

٣ - ينظر: مدخل إلى التفكيك: ١٣٣.

الفصل الثاني

بالوجود والعمل"^(١)، هذا يعني حضور الاختلاف لتحقيق وجود المعنى، إلا أن حضوره هو نفسه غيابه، إذ لحظة إدراك العلامة هي لحظة الغياب، وهذا ما يسمح لدريدا أن يكتشف صفة أخرى غير التمايز السلبي في الاختلاف، وهي الإرجاء والتأجيل، فكلمة "differer" تعني التأخير أي اللجوء بشكل واع أو غير واع إلى الوساطة الزمنية والتزمنية المتمثلة في التفاف من نوع ما يجعل اكتمال أو امتلاء (الرغبة) أو (الإرادة) أمرا معلقا"^(٢).

فالتمايز يجعل من عناصر العلامة في حالة تعارض مع كل عناصر اللغة، ويحدث التمايز في كل لحظة زمنية يعمل العنصر فيها على تعزيز اختلافه مع كامل المعجم اللغوي، حتى يحقق حضوره بوصفها دالا، ومن جهة أخرى، تفعل خاصية الإرجاء في العلامة، إذ لوجودها الرمزي طابعه الإبدالي، فهي بديل عن شيء، وحضور العلامة هو لحظة غياب الشيء، وبذلك تكون العلامة في كل لحظة إرجاء للحضور، وحضور مرجئ، "إنها بنية تفترض العلامة المرجئة للحضور غير قابلة للتفكير فيها بمنأى عن الحضور الذي ترجئه، وغير قابلة للتفكير فيها إلا انطلاقا من الحضور الذي ترجئه"^(٣) فلا يمكن أن نفكر في النظام من دون اختلافه عن غيره (الفوضى)، ومن دون فعل الإرجاء الذي يشكل حضوره، وهذا ما يجعل أثر الفوضى في كل نظام أمرا ناجزا، وعلى هذا الأثر تنسج نتيجة مهمة وهي أن كل فعل دلالي يعد فعلا غير مكتمل، إذ يخضع دائما وأبدا لحركة الاختلاف - الإرجاء، مما يجعل أولية المدلول وهم محض، إذ للمدلول قابلية التحول إلى دال، مما يجعل العلامة (هي ولا هي)، فيتناسل المعنى وتتفتح الدلالة على اللانهائي.

١ - هومش الفلسفة : ٣٥.

٢ - م . ن : ٣٩-٤٠.

٣ - م . ن : ٤١.

الفصل الثاني

وبحسب هذا التصور علينا أن نعيد قراءة التعارضات السابقة " لا من أجل أن نرى محوا للتعارض وإنما إعلانا لضرورة أن يظهر أحد الطرفين بوصفه إرجاء للآخر... المعقول بوصفه تأجيلا للمحسوس أو بوصفه محسوسا مرجأ للمفهوم بوصفه حدسا مؤجلا - المفهوم مرجأ ومُرجى، والطبيعة بوصفها ثقافة مُرجأة ومرجئة"^(١) وكذلك الفوضى بوصفها مُرجئة ومُرجأة.

إن ما يحققه التفكير الديردي هو تقديم نموذج معرفي قادر، تأسيسا معرفيا، على تجاوز مقولات النظرية النقدية وخطابها العلمي ومقولاتها المعرفية، وذلك بكسر حدود النظام، بجعله لا متناهيا، مما يفقد النظام وقانونه الحاكم فيه قانونيته وحاكميته، وبذلك ننتقل من إلى التعدد والتنوع في المعنى، هذا التنوع غير التراتبي يضعنا في قلب خطاب الفوضى، فننتقل من حالة الاختزال إلى الثراء. فديدا كشف لنا أن الأصل ليس شيئا واحدا هويةً، إذ أسقط المدلول من تعاليه، فلا معقول أول يمثل المبدأ الأول لكل خير، إنما الجوهر متعدد كما الجاذب العجيب، فرهان وجوده قائم على (الحضور/ الغياب)، إن الأصل هو التعارض نفسه لا أحد طرفيه، مما يعني أن الاختلاف هو الأصل وليس مبدأ عدم التناقض.

١ - هومش الفلسفة: ٥١.

الفصل الثاني

ثالثا- التأويلية وكسر خطية المنهج في النظرية النقدية

١- هايدغر وسؤال الحقيقة واللغة

أثر إدموند هوسرل بفلسفة الفينومينولوجيا في تشكيل التأويلية، إذ كان لحضور الواقع المعيش ورصد تأثيره البذرة الأولى في بيان أثر الحياة والتجربة الإنسانية المباشرة في تحصيل المعرفة، وهو ما استلهمه هايدغر مع تبصّر بما يشوب فلسفة هورسل من قصور، فالفينومينولوجيا ركنت إلى تعالي (المعنى) بوصفه ماهية على الزمن والتاريخ، بوصفه حقيقة كلية مجردة تتسم بالثبات، إذ تختزل عناصرها المتغيرة في التعليق الفينومينولوجي، وتبصّر هايدغر جاء لبيان حضور المعنى ضمن الزمن بوصفه فاعلا في تشكيلها، فقد أدرك هايدغر "أن المعنى يكون تاريخيا"^(١)، فالمعنى مرتبط بالزمن وحركية التاريخ، لأنه يخضع لمؤثرات متعددة تساهم في تشكيله، وهي متغيرة ضمن هذه الحركية.

والمقابلة بين المعنى الهوسرلي والمعنى الهايدغري، مقابلة بين الثابت والمتغير، فتعالي المعنى والحقيقة أو الماهية وجواهر الأشياء على التاريخ تجعلها من صنف المقولات اليقينية المطلقة التي تتصف بالسرمدية، وما أدركه هايدغر هو تغييرها ومنبع هذا التغير هو تاريخية هذا الحقائق والمعاني.

وتصور هايدغر يتجاوز به وفيه ثنائية (الذات / الموضوع)، إذ تعالي المعاني يرفع من الذات على الموضوع ضمن رؤية تراتبية، وما يراه هايدغر أن لا تعاليا للذات، فلا ذات لها القدرة على اختزال الظواهر وتجريدها، مسقطه منها ما هو متغير، بدعوى عدم تأثيره، لتنفرد الذات بالماهيات، إن ما هو موجود هو الكينونة،

^١ - نظرية الأدب : ١٠٤.

الفصل الثاني

الوجود في العالم بكل ما فيه من علاقات، إذ "الوجود الإنساني حوار مع العالم"^(١)، والحوار لا تسلط فيه لذات على آخر أو موضوع، إنما حضور الذات تتخذ فيه جانب الصمت والإصغاء للآخر، أكثر من فاعلية الكلام، حوار نستكشف من خلاله ذواتنا، ولا نسعى إلى نقض الآخر فيه جدليا.

والإشكال الذي يقاربه هايدغر متعلق بتحصيل المعرفة، ومن ثم مساءلة المعرفة نفسها ضمن مقولة اليقين، فهل يوجد يقين مطلق؟ وهل للمعرفة طريق واحد للحصول عليها؟، لذلك يتخذ هايدغر من الحقيقة ميدانا يكشف بوساطته أن الخطاب العلمي والفلسفي السائد لا يُعدّ المسلك الوحيد لفهم الوجود وتحصيل الحقيقة، فما حاولت العقلانية على تجذيره والتأسيس له بوصفه من منتجات البدهة، التي لا تستوجب البرهنة عليه لعدم حاجته المتعلقة بالوضوح، وهو ما يصدره ديكرت بعد رحلة شكّه، فما حاولته هو التأسيس لمطابقة أصيلة تفرضها الذات المتعالية، فتكون الحقيقة مرهونة بهذه المطابقة، أي مطابقة ما هو واقعي لما هو متصور ذهنيا، ومن هذه المطابقة يؤسس المنطق لقاعدة معرفية (الصواب / الخطأ) أو الحقيقة والكذب في التعامل مع القضايا، فما هو صائب وما هو حقيقي يجب أن يكون مطابقا، فيكتسب الواقعي صفة الحقيقة من تطابقه مع التصور الذهني^(٢)، ويقع في الطرف الآخر الخطأ والصواب بوصفهما (لا حقيقة)، فهذا التصور للحقيقة يجعل الخطاب العلمي والفلسفي قائما على فعل إقصائي ل(لا حقيقة) وهو نوع من التتميط النظامي لمقولة العقل، فما كان غير مطابق، خطأ كان أو كذبا، يجعل اللاحقيقة تسقط خارج

١ - نظرية الأدب : ١٠٦.

٢ - ينظر: نداء الحقيقة مع ثلاثة نصوص عن الحقيقة لهايدغر: د. عبد الغفار مكاي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠ : ١٧٦-١٧٨.

الفصل الثاني

الحقيقة^(١)، والخلل يكمن في الواقعي لا في التصور الذهني، إن هذا التصور لفعل المطابقة هو ما ينقضه هايدغر، بل ويؤكد على أنه ليس الطريق الوحيد للمعرفة، فهو يرى أن هذا الطريق يشوبه النقص، فصفة الكمال المطلق وهم ينتج عن تعالي الحقيقة، وعليه لابد من طريق آخر للفهم، يستوعب حالة النقص والخطأ أو اللا حقيقة.

ولتحقيق طريق الفهم المغاير يستدعي هايدغر الـ(لا حقيقة) ليجعلها شرطاً توجد الحقيقة بفعله، وإدراك اللا حقيقة بوصفها شرطاً " ليس مجرد ملء ثغرة ثانوية، بل هو الخطوة الحاسمة نحو وضع السؤال عن ماهية الحقيقة وضعا مناسباً"^(٢)، إنه يجعل من عدم اليقين عتبة لفهم اليقين، فضلا عن محاولته الكشف عن حالة التفاعل بحضورهما اللاترابطي، فيضع هايدغر الـ(لا) حقيقة في قلب ماهية الحقيقة، بالتأصيل للحقيقة بوصفها مرتبطة بالظهور والانكشاف، واللاحقيقة مرتبطة بالتحجب، وما بين (التحجب / الظهور) تبرز الحقيقة بوصفها ما يُضاء، انطلاقاً من تصور الحرية بأنها "ترك الموجود يوجد"^(٣)، أن ينقذف إلى الأمام فيسقط من حالة التحجب في المجال المفتوح الذي تضاء فيه، وتتموضع الحرية مقابلاً لفعل الإقصاء، و الحرية هي التي تعمل " على تحقيق ماهية الحقيقة"^(٤)، فالحقيقة واليقين في لحظة التحجب هما المزودان بالـ(لا)، وحالة الانكشاف والظهور تسقط هذه الأداة، وما يترتب عليه أن الحقيقة واليقين هما اللاحقيقة واللايقين ولكن في وجودين مختلفين، وهذا ما يهدم فكرة المطابقة.

^١ - ينظر: نداء الحقيقة: ١٧٨.

^٢ - م . ن : ١٨٥.

^٣ - م . ن : ١٨٧.

^٤ - م . ن : ١٨٤.

الفصل الثاني

وما يجب أن نلتفت إليه هو أن هايدغر يعطي قيمة إيجابية للخطأ، إذ يلحظ تأثيره في تشكل الصائب، ونظرية الفوضى تعمل على إبراز هذه الخصيصة، فالأخطاء مهما بدت بسيطة لها أثر في تشكيل نتائج غير متوقعة.

إن هذا النمط من التفسير فعّله هايدغر في النظر إلى اللغة وفي البحث عن ماهيتها، إذ حدد حالة الازدواج الذي تتبني بحسبه ماهيتها، فإذا كانت الحقيقة حاملة للملاحة في أصل تحقق ماهيتها، فإننا سنجد هذا الازدواج في أصل ماهية اللغة.

يتعامل هايدغر مع اللغة من منظار مغاير لما تقدمه الدراسات اللسانية، فهو أولاً يرفض التجريد الذي تخضع له اللغة على مستوى وحدتها المؤسسة (العلامة)، وذلك يعزل العالم وما فيه عن اللغة، وثانياً يرفض التعامل مع اللغة على أساس بعدها الأدوات لتحقيق التواصل^(١)، والسبب في ذلك أن هذا الاشتغال اللغوي قائم على التحليل المنطقي، فضلاً عن التمثيل الإحصائي لجمع المعلومات فهذه الدراسات تقف عند " سطح اللغة"^(٢) فهي نتاج التفكير الذاتي المقيد بالتجربة المؤسسة لليقين المطلق، وعلى الطرف الآخر يدفعنا هايدغر إلى مواجهة اللغة بـ"أن يجلبنا إلى اللغة وجهاً لوجه على نحو يمكن لنا فيه أن نعاني خبرة اللغة"^(٣)، فتنزل اللغة من مستوى التصورات اللازمية إلى حالة الارتباط بين اللغة والعالم، بما نحياه، إذ تأخذ اللغة على عاتقها مهمة رئيسة "أن تجعل من الموجود وجوداً منكشفاً في

^١ - ينظر: نداء الحقيقة : ١٥٥.

^٢ - في ماهية اللغة وفلسفة التأويل: د. سعيد توفيق، مجد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م : ٣٦.

^٣ - نقلاً عن : في ماهية اللغة وفلسفة التأويل : ٢٤.

الفصل الثاني

حالة فعل، وأن تضمنه بوصفه كذلك^(١)، فيكون العالم بما فيه مشروطا باللغة التي تكشفه، وكشفها له يضمن إنجاده، في حالة فعل، فيرتبط زمن الوجود بالحركة، فهو حدث يفعل الانكشاف والظهور، ولذلك لا يمكن أن نبحت اللغة وماهيتها وفق التصورات الأداتية للغة، أي بوصفها أداة للتعبير لا تؤثر فيما تنقل، أو تتأثر به، فاللغة عند هايدغر "بوجه عام وقبل كل شيء ما يضمن إمكان الوجود، وسط موجود ينبغي أن يكون موجودا منكشفًا، وهناك فحسب حيث توجد لغة يوجد عالم"^(٢)، فوجود العالم وما يؤثته مشروط باللغة التي تكسب الموجودات فعل انكشافها، فما كان ضمن فاعلية الكشف اللغوي يعد موجودًا، بل وتتأسس ماهيته، فهو بين الحجب والكشف، ما بين هذين الجذرين يتحقق وجود الموجود، مما يجعل اللغة تغطي مساحة ما يوصف بالـ(لا) كونه محتجبا، وهذه الـ(لا) ينسب إليها النظام الأسطوري والخطاب العلمي والنظرية النقدية العدم والشر والظلمة، فهايدغر يعطي لعلامة النفي (لا) وجودها الفوضوي ضمن النظام بوصفه مصدرا للحقيقة، وبدلا من الاقصاء يعطي هايدغر الحرية للموصوف بالنفي أن يعرض نفسه، بأن ينكشف، مما يعطي إمكانية لما هو فوضوي أن يوجد بواسطة اللغة، وهو بالضد من فعل المقايسة المنطقية، وتحرر اللغة تأخذ فيه آلية المجاز فاعليتها بخرق السور المنطقي للغة، ومن هنا يحدد الدكتور سعيد توفيق عدم فاعلية إخضاع لغة هايدغر الفلسفية للقياس المنطقي والعلمي^(٣) إذ يفقد الموضوع - لغة هايدغر - القدرة على البيان عن نفسه.

^١ - ما الفلسفة؟: مارتن هايدجر، ترجمة فؤاد كامل ومحمود رجب، مراجعة وتقديم عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة، سلسلة نصوص فلسفية ٢، ط٢، ١٩٧٤ : ١٤٥.

^٢ - م . ن : ١٤٦.

^٣ - ينظر: في ماهية اللغة وفلسفة التأويل : ٢٨.

الفصل الثاني

واللغة تمارس فعلي الحجب والكشف، جذران فعليان تستند إليهما اللغة في ماهيتها، وهما متضادان ويتمثالان مع الفعلين الضديين اللذين يحويهما الجاذب العجيب (الجذب/النفرة)، وتضادهما ليس تراتبيا إنما تفاعلي.

وهذان الفعلان يؤسسان فعل القول، فالكلام مظهر صوتي حمولته القول، والقول يكشف ويظهر لحظة حضوره وتحققه، إلا أنه يمارس فعل الحجب أيضا، فهو يحجب ما لا يقال أو المسكوت عنه، وهذا المحتجب والمسكوت عنه هو شرط تحقق الظهور في فعل القول، وهو ما يصفه هايدغر " إن كل شيء يقال ينبثق على أنحاء عديدة مما لا يقال، سواء كان هذا اللامقول أو المسكوت عنه the unspoken شيئا ما، لم يقل بعد، أو كان من اللازم أن يبقى لا مقولا، بمعنى أنه مما يضيق عنه نطاق الكلام، وهكذا فإن ما يقال على أنحاء عديدة يبدأ في الظهور كما لو كان منعزلا عن الحديث والمتحدثين ولا ينتمي إليهم، في حين أنه في الحقيقة هو وحده الذي يقدم للحديث والمتحدثين ما يكون موضع انتباههم"^(١) فما يدفع ما يقال للكشف هو ما لم يقل، ومن جهة أخرى هذا اللامقول هو ما يستوعبه الكلام المقال فيحدث حجب مضاعف لعدم قدرته على الظهور، وهايدغر هنا يعلن صلحا بين المقابلات (مقول/ لا مقول - كلام/سكوت) ثم يأخذ الطرف المحتجب (اللامقول - السكوت) بعدا شرطيا في تشكل (المقول - الكلام) فتتحول العارضة الضدية (/) إلى أداة اتصال لا انفصال، فلا تراتبية بين المتقابلات.

إن تداخل اللاحقية مع الحقيقة بحسب اللغة وفاعلية الكشف والحجب مثلت الأرضية المرجعية لتأويلية غادامير، والتي يأخذ فيها هذا التداخل منحى تطوريا في رسم حدود الفهم.

^١ - نقلا عن : في ماهية اللغة وفلسفة التأويل : ٣١.

الفصل الثاني

التأويلية وسلطة الخطاب العلمي

ارتبطت التأويلية اصطلاحيا بالنص الديني، إذ يعدّ محور الدراسات التأويلية في بادئ الأمر، فهي مجموعة من القواعد القياسية التي يجب على المفسّر اتباعها في مقارنة النص المقدس فمن حيث النشأة " مصطلح قديم بدأ استخدامه في دوائر الدراسات اللاهوتية، يشر إلى مجموعة القواعد والمعايير التي يجب أن يتبعها المفسر لفهم النص الديني"^(١)، فالتأويلية منهج له حدود استعمال ضمن دائرة محددة، كما أنه مرتبط بالقواعد المنهجية، إلا أن الأهم أنها تفترض وجود معنى مرموز في النص الديني، تعمل هذه القواعد على إظهاره، فالمعنى بمثابة سرّ الإله في النص، وهذا السر المعنوي يفترض وسيطا يعمل على كشفه وبيانه، وهو ما يفترض الحاجة إلى مفسّر للنص، والوظيفة التي يقوم بها المفسّر هو رفع الاغتراب عن القارئ للنص الديني، عن طريق فهمه، وحاجة النص للتأويلية "بسبب غموض معناه الذي نشعر إزاءه بالاغتراب"^(٢)، هذا التصور المشوب بالبعد الأسطوري يجعل من النص كلام الإله الذي ارتفع عن عالمنا، وكما يتواصل مع البشر كان لزاما عليه أن يضع الوسيط الكاشف عن معاني كلماته، فيكتسب الوسيط قداسته من كلمات الإله، إنها حالة النظام الذي يجب أن يفرض مما يشكل الأنا الأعلى الفرويدي.

إن غموض الحقيقة واحتجابها هو العامل المؤثر في نشأة التأويلية، وبقاء المعنى غامضا ينقطع معه التواصل مع الإله، ولذلك أرادت التأويلية بقواعدها المنهجية ضبط عملية الفهم، وتجنب الفهم الخاطئ، يصف غادامير هذا التوجه "حالما تجري محاولة فهم شيء ما (الكتاب المقدس أو عمل كلاسيكي) تتعقد على

^١ - إشكاليات القراءة وآليات التأويل: نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء -المغرب، ط١، ٢٠١٤ : ١٣.

^٢ - في ماهية اللغة وفلسفة التأويل : ٨٦.

الفصل الثاني

نحو غير مباشر إشارة إلى الحقيقة المخفية في النص، التي يجب أن يسَلط الضوء عليها، وفي الحقيقة أن ما يفهم ليس فكرا يعد جزءا من حياة أخرى، إنما هو يعد حقيقة^(١)، إن افتراض وجود حقيقية مخفية أو معنى، تدل على وجود عنصر ثابت يبحث عنه، أو معنى يقيني مطلقا قد أودع هذا النص، والنص بوصفه لغة يدور بحسب هذا المعنى، وهذا المعنى المخفي غير قابل للتغير أو التبديل، ومن هنا يأخذ صفة الحقيقة المطلقة.

هذه الرؤية هي من دفعت شليرماخر إلى بلورة تصوره عن التأويلية بوصفها نزوعا نحو الفهم^(٢)، بوساطة مجموعة من الاشتراطات تهدف إلى الكشف عن الحقيقة، أو بمعنى أدق أن يكون الفهم مطابقا لهذه الحقيقة المخفية، فهي محاولة مطابقة الفهم البشري مع الحقيقة المركزة في النص المقدس، ولذلك افترض أن في النص جانبان (موضوعي - ذاتي) أو (لغوي - نفسي)، والموضوعي واللغوي يمثلان الكلية اللغوية التي تمد المؤلف وكذلك القارئ بالوسيلة التي يعبر بها عن الفكر، أما الذاتي والنفسي فيرتبطان بمقدار التصرف الفردي بهذه الوسيلة مما يحقق الخصوصية لهما، وكلاهما يمثلان إمكانية شرطية للتأويل والفهم^(٣)، وعلي ذلك يتحدد دور المؤول، فهو يسعى إلى اكتشاف تجربة المؤلف نفسه، فيعمل على إعادة إنتاج التجربة بـ"أن يضع المرء نفسه على مستوى المؤلف نفسه، وبذلك يكشف النص عن تجلٍ فريد لحياة المؤلف"^(٤)، إن هذا الوضع يمكن المؤول من استحصال مخبوء

١ - الحقيقة والمنهج: هانز جورج غادامير، ترجمة د. حسن ناظم وعلي حاكم صالح، راجعه عن الألمانية د. جورج كتورة، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية، ط ٢٠٠٧، ١: ٢٧١.

٢ - ينظر: في ماهية اللغة وفلسفة التأويل : ٨٧-٨٨.

٣ - ينظر: إشكاليات القراءة و آليات التأويل : ٢٠-٢٢.

٤ - الحقيقة والمنهج: ٢٧١.

الفصل الثاني

النص، فهو نوع من التماهي مع المؤلف، وهو الضامن للمطابقة بين الفهم وحقيقة النص، والهدف الذي يسعى إليه شليرماخر هو "تجنب سوء الفهم"^(١) وهو تعريف التأويلية لديه بوصفها فناً، وسوء الفهم هو الخطأ الناتج عن عدم المطابقة، أي أن يكون الفهم غير الحقيقة أو المعنى المخبوء في النص، فهو يميز بين "ممارسة تأويلية مهلهلة ينتج فيها الفهم ألياً، وممارسة دقيقة تنطلق من مقدمة تفيد أن ما ينتج ألياً هو سوء فهم"^(٢) وبذلك تضمن التأويلية بوصفها فناً أي مجموعة من القواعد أن تجانب هذا السوء وتحقق المطابقة، وبذلك تضمن رفع حالة الاغتراب التي يعيشها القارئ تجاه النص الديني.

كان شليرماخر يسعى لوضع قواعد معيارية للعلوم الإنسانية رافضاً ما تقدمه العلوم الطبيعية، وغادامير يقيم حركة شليرماخر التأويلية بالفشل إذا بقيت رهينة النص الديني، فضلاً عن أن المنطق الحاكم لها هو منطق المطابقة الذي يؤكد وجود حقيقة متعالية غير قابلة للتبدل^(٣)، بل إن غادامير يؤكد على " أن وجهة نظره [شليرماخر] حول الهيرمينوطيقا قد قيدها وحصرتها من آفاقها -بالأخص- الفكرة الحديثة للعلم"^(٤).

ومن هذا الفشل انطلق فلهيلم دلتاي في التأسيس لمشروعه التأويلي، والذي يصرح فيه بضرورة التخلص من سلطة الخطاب العلمي المؤسس بحسب الفلسفة الوضعية، الداعمة لسيادة العلوم الطبيعية، ورفع ضرورة تعميم نموذجهم التجريبي في

١ - الحقيقة والمنهج: ٢٧١.

٢ - م . ن : ٢٧١.

٣ - ينظر : م . ن : ٢٨٦.

٤ - فلسفة التأويل الأصول المبادئ الأهداف: هانس غيروغ غادامير، ترجمة محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط٢، ٢٠٠٦م-١٤٢٧هـ : ١٠٤.

الفصل الثاني

العلوم الإنسانية. ولذلك يعد مشروع دلتاي محاولة في التأسيس لقواعد معيارية تخص العلوم الإنسانية.

ولبيان خصوصية العلوم الإنسانية يحدد دلتاي الفارق بين موضوع العلمين، فالعلوم الطبيعية موضوعها الطبيعة المادية، وهو موضوع خارجي، وكان محور اشتغالها هو الكشف عن قوانين ومعان تتسم بالثبات، تتحرك بحسبها الظواهر الطبيعية^(١).

أما العلوم الإنسانية فموضوعها مغاير، فمادتها الرئيسة (العقل البشري)، وهو في الإنسان لا خارجه^(٢)، ولهذا تصنف على أنها ذاتية.

وبسبب الذاتية في العلوم الإنسانية وجدت العلوم الطبيعية أنها تتسم بالتغير، إذ من غير الممكن تحديد قوانين تحكم ما هو متغير، فالنتائج فيها لا يمكن أن توصف باليقين، ومن هنا تحديدا وجدت العلوم الطبيعية ضرورة تعميم منهجها على الإنسانية، فالنجاح في العلوم الطبيعية ملحوظ فيما تقدمه الفيزياء من رؤية تفسيرية يقينية. ومحاولة دلتاي هو وضع قواعد للعلوم الإنسانية تضمن المغايرة عن الطبيعية في الموضوع والمنهج، أي يجب أن تشتق المنهجية من موضوعها نفسه، لا من خارجها.

والقاعدة المعرفية التي استند إليها دلتاي هي أثر الوعي في تشكيل المعنى والحقيقة ضمن حيزه الزماني والتاريخي، وهذا الشرطان يفرضان حالة التغير بوصفها صفة جوهرية في الموضوع، وهو بديل على حالة الثبات، وإذا كان المعنى متغير

^١ - ينظر : إشكاليات القراءة و آليات التأويل : ٢٤

^٢ - ينظر : م . ن : ٢٤.

الفصل الثاني

فإن السبب في ذلك ارتباطه الواقعي بتجربة حياتية معاشة، فهناك مؤثرات نفسية وثقافية ساهمت في تشكل النص ومعناه، وهذه المؤثرات بحد ذاتها ليست ثابتة.

ومحاولة الفهم من قبل المؤول تقوم على وعي خاص بالقارئ تتفاعل فيه التجربتان (التأليفية - الفهمية القرائية) مما ينتج معنى متسم بحالة التغير أصالة؛ لأن تجربة القارئ المؤول تخضع أيضا للمؤثرات الزمانية والتاريخية الخاصة بوجوده هو بوصفه قارئاً. مما ينتج فهما مغايراً ربما لما أراده المؤلف.

ويجعل دلتاي من الفن عموماً والأدب خصوصاً ممثلاً عن هذا الفهم^(١)، فالأدب وبفعل اللغة له القدرة على التعبير الأكمل عن الحياة وتجربتها الخاضعة للتأثير الخارجي^(٢)، فهي تمثل حلقة الوصل بين تجربة المؤلف الداخلية وتجربة القارئ المفسر، وناتج هذا التفاعل بين التجربتين الفهم المتجدد. فتكتسب الذاتية بحسب هذا التوجه قيمتها التي أسقطتها العلوم الطبيعية، وهذا ما يجعل من الفهم الركن الرئيس الذي تفارق فيه العلوم الإنسانية العلوم الطبيعية، وهذه الأخيرة ذات المنحى العقلي تهتم بـ"شرح الظواهر"^(٣) لا فهمها.

إلا أن دلتاي ورغبة منه في جعل قواعد الفهم أكثر معيارية، يجد نفسه ملزماً بالإطاحة بالذاتي، مما يدفعه للبحث عن حالة الثبات اليقيني المطلق، وهو بالضد تماماً من حالة التعددية والفهم المتجدد أسس لها أولياً.

وللتخلص من الذاتية يؤكد دلتاي على أن موضوعية العمل الأدبي تكتسب شرعيتها وخصوصيتها من لحظة التعبير اللغوي، فالعلامات اللغوية تعد مجلى

١ - ينظر: إشكاليات القراءة و آليات التأويل: ٢٦.

٢ - ينظر: م . ن : ٢٦-٢٧.

٣ - م . ن : ٢٧.

الفصل الثاني

التجربة في لحظة انفصالها عن مؤلفها، مما يجعل التجربة بحد ذاتها تأخذ حيزها التاريخي، فتصبح العلاقة بين تجربة لغوية (العمل الأدبي)، بوصفه موضوعا منفصلا وخارجيا، وبين تجربة المفسر بوصفه ذاتا، وهذا ما تؤسسه حالة الفصل بين (الذات/ الموضوع) العلوم الطبيعية.

وهذا ما يجعل تأويلية دلتاي تخالف هدفها الأول، إذ نجد سلطة خفية هي من توجه تأويليته، إذ يستنسخ نموذج العلوم الطبيعية، والتي حاول جاهدا التخلص من سلطة منظومتها المعرفية، نراه يستنسخ خارجية الموضوع واستقلاله بفعل موضوعية اللغة، وبذلك "لن تستطع [تأويلية دلتاي] أن تتخلص من أسلوب التفكير التقليدي ذي النزعة الموضوعية في تفسير وفهم ظواهر الوجود الإنساني كالفن واللغة، وبالتالي النص الأدبي"^(١)، وسبب هذا التفكير التقليدي هو تعميم النموذج المعرفي للخطاب العلمي، الذي يسعى إلى عزل الذات عن الموضوع، مما يضمن تعالي بوصفها القادرة على استكشاف قوانين الظواهر ضمن خارجيتها، أي من دون تأثير الذات على موضوعها، تأكيدا لحالة الفصل الموضوعية.

ويؤشر غادامير ذلك التأثير النسقي على دلتاي، ومدى المأزق في منظومته المعرفية، إذ يخضع لمقولة الخطاب العلمي الذي يفرض قدرة العقل على السيطرة على الطبيعة، وهو ما أسسه فرنسيس بيكون، وغادامير يرصد لدى دلتاي إرادته لإخضاع الطبيعة في معرض حديثه عن العلوم الإنسانية واستقلالها، بقوله " دلتاي يشير في تحليله استقلالية مناهج العلوم الإنسانية إلى القول القديم المأثور عن فرنسيس بيكون : أن تكون غالبا فلا مناص للطبيعة من أن تكون مطيعة"^(٢).

^١ - إشكاليات القراءة و آليات التأويل : ١٢٤.

^٢ - الحقيقة والمنهج : ٥٤.

الفصل الثاني

بعدها يلحظ غادامير الفشل الذي لحق بمشروع شليرماخر ودلتاي، كان لزاما عليه أن يجعل من تأويليته مغايرة على مستوى البناء المعرفي، فيأخذ بنظر الاعتبار أثر الذات والموضوع التفاعلي، مع محاولة تقديم تصور نقدي لفكرتي الحقيقة والمنهج.

٢- تأويلية غادامير وصراع المنهجية

لقد كان لحضور اللامقول والمسكوت عنه أثر في تطوير تأويلية غادامير، وفي مقاربتة للحقيقة والمنهج، وتحديد ما يجب على التأويلية تجاوزه لتحقيق قواعد خاصة ترتبط بعملية الفهم. ولقد كان الخطاب العلمي، كما أسس له بيكون وديكارت ونيوتن، يوحد بين قطبين هما (الحقيقة) و(المنهج)، بل عمل هذا الخطاب على تصدير العلاقة بينهما على أنها ذات طابع وجودي جوهري، فلا يمكن الوصول إلى الحقيقية إلا بوساطة المنهج، بوصفه طريقا آمنا يضمن سلامة النتائج من المؤثرات الخارجية، ومن هنا اكتسبت الحقيقة المنهجية يقينها المطلق، فما جاء عن غير المنهج يصنف بأنه فوضى.

وعمل غادامير أو تأويليته، بوصفها منجزا فلسفيا، على فصم الارتباط بين الحقيقة والمنهج، وبيان أن العلاقة بينهما ليست بالضرورية، فلا يستلزم أحدهما الآخر، وهو بذلك يجعل من الحقيقة غير يقينية، كما أنه يؤكد أن مصدرها ليس المنهج فقط.

بيننا في الفصل الأول أن الخطاب العلمي على مستوى نظرية المعرفة يؤكد على أن العلم هو حصول تصور عن القضية الأولى في الموضوع المخصص، وما يمتاز به هذا التصور هو يقينه القطعي، ومن ثم تحدد نظرية المعرفة الطريق المؤدي لهذا اليقين والذي يقصد به المنهج التجريبي الاستقرائي، وما ينتج عن هذين

الفصل الثاني

الأميرين هو القدرة على التنبؤ بمسار الظاهرة، كونها تنطلق بحسب امتداد خطي، فاليقين المبحوث عنه هو القانون أو البنية أي الصيغة التي تحكم الظاهرة، ونقد غادامير لدلتاي وشليرماخر هو أنهم في بحثهم التأويلي لم يغادرا هذا الرباط بين الحقيقة والمنهج وما ينتج عنهما.

وينصبّ عمل غادامير في تأويليته على مناهضة صيرورة الخطاب العلمي، فعلى مستوى النظرية المعرفية يتنكر غادامير لوجود الحقيقة المطلقة واليقين القطعي الجازم، وكذلك يرفض وجود طريقة وحيدة للحصول على اليقين، أي يرفض معيارية المنهج التجريبي لتقرير الحقائق^(١).

يشير غادامير في كتابه (الحقيقة والمنهج) إلى ما قدمه علم الارصاد الجوي فيما يخص حساسية الشروط الابتدائية، وهو ما ذكرناه في الفصل عن أدوارد لورنتز، يقول غادامير "إنّ منهج الأرصاد الجوية هو نفسه منهج الفيزياء لكن معطياته غير كاملة، ومن ثم تنبؤاته غير يقينية"^(٢)، وهي إشارة واضحة إلى ما قدمته نظرية جناح الفراشة، إلا أنه يشير إلى قضية محددة تخص منهج الفيزياء بوصفه النموذج المتقدم للعلوم الطبيعية، وعلم الارصاد يعتمد تماما عليه، وما فعله علم الارصاد أنه كشف فجوة في المنهج الفيزيائي.

وعليه فاليقين الفيزيائي لم يكن نموذجا كليا للعلوم، فاليقين المتحصل عليه في الارصاد الجوي غير قطعي، مما يعني أن بعض الظواهر تتدمج مع معطيات المنهج وبعضها لا، وقد صدر الخطاب العلمي الفيزياء بوصفها نموذجا كليا، ولقد تأثر بهذه النمذجة الناقد نورثروب فراي، والمدرسة الشكلانية، وغادامير يحدد أن هذه

^١ - ينظر: في ماهية اللغة وفلسفة التأويل: ٩٠.

^٢ - الحقيقة والمنهج: ٥٠.

الفصل الثاني

النمذجة غير كلية. فكما أن علم الارصاد الجوي ينفلت من يقين الفيزياء، فهناك ظواهر أخرى لا تنتج يقينا قطعيا، فـ"ميدان الظواهر الأخلاقية والاجتماعية"^(١)، ينفلت من حدود المنهج المتبع في العلوم الطبيعية، لأنه قائم على المتغير.

إن سبب هذه المفارقة هو أن الإشكال الحقيقي يكمن في أصل الفصل بين الذات/ الموضوع، فالمنهج بمعياريته يعد الضامن لتحقيق (الموضوعية) وهي ببساطة عزل لفاعلية الوعي الفردي من التفاعل مع الموضوع، فـ"المنهج يستبعد الذات التاريخية بهدف الاستحواذ على الموضوع من خلال مجموعة من القواعد التي تحاول الذات من خلالها أن تفهم الموضوع أو الظاهرة كحالة ممثلة لقاعدة عامة"^(٢)، مما يحوّل المنهج إلى ضابط شكلي يحمل حقيقته معه، فأينما وجد المنهج وجدت الحقيقة، فيجعل التنبؤ ضمن حدود الإدراك الإنساني، فكل قانون يُتوصل عليه منهجيا يكتسب يقينه من القواعد المنهجية، واستحصال القانون وتعميمه يعني إمكانية التنبؤ بما سيكون، إذاً "ذلك مفهوم المنهج على نحو ما انبثق من عقل بيكون وديكارت وظل سائدا في الفكر الغربي حتى أن الهيرمينوطيقيا الكلاسيكية لدى شليرماخر ودلتاي لم تستطع - فيما يرى غادامير - أن تتخلص تماما من تأثيره في نظرتها للعلوم الإنسانية"^(٣).

والمفارقة التي أنتجها الخطاب العلمي في كونه جاء ردة فعل تجاه تصور العقل ما قبل العلم، وهو عقل قاصر عن فهم وتفسير الطبيعة، مما يعني احتياجه إلى مكمل يتممه، ولما كان المكمل وجودا ما وراثيا فإنه عزل الإنسان عن واقعه، طمعا في عالم تكاملي غير الواقعي، لذلك جاء الخطاب العلمي ليرد الاعتبار للعقل

١ - الحقيقة والمنهج : ٥٠.

٢ - في ماهية اللغة وفلسفة التأويل : ٩٠.

٣ - م . ن : ٩١.

الفصل الثاني

لأنه قادر على إنتاج الكمال ذاتيا، مما يجعله مؤهلا لتغيير الواقع ليلائم طموحاته، وعليه فهو يخرج من حالة الاغتراب التي ينتجها قصوره عن الفهم، وغادامير يرى أن الخطاب العلمي لم يستطع رفع الاغتراب، بل إن المنهج جعلنا وقع في حالة من الاغتراب المضاعف، إذ أخذ المنهج على عاتقه أن يصدر لنا تصورات كلية مجردة يريزح الإنسان تحت وطأة يقينها القطعي، مما يجعله يبتعد عما يمكن أن ينتجه العقل ضمن حدوده الطبيعية، ففي "حين تسعى الهيرمنويطيقيا من خلال عملية الفهم والتفسير إلى تحقيق (ألفة) الإنسان بالعالم فإن المنهج يرد على ذلك الاغتراب باغتراب مماثل من خلال ذلك الانفصال أو الانشقاق الذي يحدثه بين الذات والموضوع"^(١)، فهذا الانفصال تمثيل حقيقي لسلطة الخطاب، والذي يحاول إقصاء التفاعل الممكن حدوثه نتيجة عودة الذات للألفة مع الموضوع.

وهذه الألفة هي حالة الاتصال بينهما، وهو ما يمثل حالة التعارض التي يتبناها غادامير مع منهج العلوم الطبيعية، لأننا مع الألفة نتجاوز حالة الثبات، مما يجعل الذات تتلمس حالة التعدد والتغيير، وهذان الأمران يؤديان إلى تفعيل منطق الاحتمال، مما يجعل المنهج العلمي يفقد القدرة على تحديد الحقائق ضمن حيز الإطلاق، ليصل غادامير إلى نتيجة تتعلق بالعلوم الطبيعية فهي "لها دور كبير في تنمية الململة والضيق اللذان نعيشهما اليوم"^(٢)، وهذا الضيق هو نفسه ما تولده النظرية النقدية بكل ما فيها من حمولة نظرية ترسخ شمولية وموضوعية المنهج النقدي، إذ أصبح المنهج هو الغاية، وبحسب التأويلية هذه الموضوعية المستوردة من العلوم الطبيعية هي المنتج الحقيقي للاغتراب الذي يلف النظرية النقدية.

١ - في ماهية اللغة وفلسفة التأويل: ٩٣.

٢ - فلسفة التأويل: ١٦٠.

الفصل الثاني

كان الفصل الذي أقرته النظرية النقدية للعمل الأدبي عن العالم ومحاولة تسييج العمل منهجيا قد أبرز قيمة الشكل وما يستتبعه من علاقات بنيوية لعناصر هذا الشكل، وهذا ما جعل من الشكل معيارا لتحديد ماهية الأدب والفن عموما، إن إقصاء العالم عن العمل الأدبي هو عملية تحديد وتحويل الأدب من منتج قائم على البعد التفاعلي في أصل وجوده، تحول إلى (مادة) خارجية معزولة عن القارئ، مما يجعل الأدب يقرأ بحسب المنهج، بوصفه مادة يمكن أن تقرأ تجريبيا، كما في العلوم الطبيعية، ومن هذه التجريبية تولدت فكرة الكشف عن البنية المتحكمة في هذا العمل، واكتشاف هذه البنية أو القانون الحاكم لهذه المادة يجعلنا نقف على اليقين المطلق الذي يتجاوز الزمن من حيث حركيته، فهو يقين دائم، هذه البنية لن تتغير مهما تغيرت الظروف القرائية، أو تغير زمن القراءة، وهذا ما يجعلنا في حالة التأطير للعمل، و" الذي يعني عملية إخضاع النص لمبادئ وقواعد عامة نظرية يراد من خلالها الاستحواذ على البنيات العامة للنصوص الأدبية وتسكين النص الأدبي المراد فحصه داخلها، وبذلك يتم إخضاع النص لقواعد تحكم لعبة الشكل والتشكيل أو البنية اللغوية"^(١)، فيجعل العمل الأدبي موضوعا منفصلا عن الذات القارئة، مما يعزز الانفصال المعرفي، ومن جهة أخرى يتعرض العمل لضياح الهوية، أو ماهية معناه وهذا ما ينتجه المنهج الغائي، فكأنما عملية القراءة لا تستكشف النص بقدر ما تعزز انضباط المنهج وصلاحيته.

وهذا الفارق المعرفي بين منتجات الخطاب العلمي ومنها النظرية النقدية وبين التأويلية بنسخة غادامير، والذي عمل بالاستناد إلى مرجعيته الهايدغرية، على التخلص من الانفصال وتعزيز حالة الاتصال بين الذات والموضوع، وذلك بسلب الذات المؤولة التصورات المنهجية، ذات الطابع الديكارتية، والذي أفرغ الذات من

١ - في ماهية اللغة وفلسفة التأويل : ١١٩.

الفصل الثاني

محتواها التأويلي بما فيها من أحكام مسبقة^(١)، بمعنى التخلي عن الهدف المبحوث عنه، فليس من المهم البحث عن القانون الذي يحكم الظاهرة، بقدر ما يهم القارئ تتبع حالة التشعب والتعقيد التي يشكلها النص.

وعلى ذلك تترتب النتيجة التالية، وهي أن المنهج يبدأ من تصور أولي يقني ثابت، أو يسعى للكشف عن اليقين الثابت بحسب انطباقه على التصورات القبلية، في حين أن التأويلية تضعنا في حالة من الانفتاح في مواجهة الموضوع، فتجعل من عدم اليقين هو العتبة الأولى للقراءة النقدية.

فالقراءة النقدية بحسب التصور العلمي تجعلنا نقع في حالة عدم الفهم، إذ تحجب عنا الموضوع، فيكون الموضوع أو العمل الأدبي متمظهاً بحسب رؤية المنهج، وهذا ما يرجع إلى الحالة المعرفية التي تؤكد على أن الوعي هو من يصنع العالم المحيط بنا، إذ تخلقه التصورات القبلية.

وهو ما يرفضه غادامير ومن قبله هايدغر، فالذات والموضوع بحسب حالة الاتصال، يوجدان معا في العالم، ولا يتأسس خلق أحدهما على حساب الآخر، في حالة من التشكيل التراتبي، ف"الوعي ليس سوى توجه نحو عالم الأشياء أو الموضوعات يهدف إلى الاقتراب منها ومحاولة التعرف عليها وفهمها من خلال خبرتنا بها، لا الاستحواذ عليها أو تملكها"^(٢).

ويقدم غادامير (المحادثة) أو الحوار في سياق تجاوزه لحالة الانفصال، مشفوعة بالمرجعية الهايدغرية للحرية، فالموضوع يتكشف أمام الذات فيحضر في

١ - التلمذة الفلسفية: هانز جورج غادامير، ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم صالح، دار الكتاب

الجديد المتحدة، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠١٣ : ١٥.

٢ - الحقيقة والمنهج : ١٤١.

الفصل الثاني

مجال وعيها، مع مراعاة أن الذات لا تفرض تصورات قبلية، إنما تتحرك بحسب أحكام مسبقة تشكل هويتها، وتمثل شروطا للفهم^(١)، مما يتيح حالة التفاعل والتي لا يمكن التنبؤ ما تنتج، والتأكيد على فاعلية الحوار أو المحادثة يلغي حالة الاستحواذ على الموضوع مما يجعل الذات تنتج نصا إبداعيا، كما لا يجب أن تكون الذات سلبية فتترك ذاتها لاستحواذ الموضوع عليها^(٢)، لأننا في كلتا الحالتين نفقد قيمة المحادثة أو الحوار التأويلي.

يضع غادامير شرطا لتأسيس محادثة ناجحة " كلما كانت محادثة ما أصلية قلَّ اعتماد إجرائها على إرادة أي من الطرفين"^(٣)، وهذا ما يخلص الحوار والمحادثة من طابع المحاجبة، فالخضوع لإرادة أحد الطرفين يجعل من " المحادثة الأصلية ليست هي أبدا المحادثة التي أردنا أن نجربها"^(٤)، وكذلك القراءة التي تخضع للمنهج العلمي لن تكون القراءة التي نريدها، فنتائجها مما يمكن التنبؤ به لانعدام الأصل التحري فيها.

ما يسعى إليه غادامير الوصول إلى (الفهم) بوصفه نتاج المحادثة الأصلية، ويتم ذلك عبر وسيط هو اللغة، وبفعل الكشف الهايدغير يؤكد غادامير على "أن اللغة التي تجري بها المحادثة تحمل حقيقتها الخاصة ضمنها، أي أنها تتيح لشيء ما أن (يتجلى) ويكون موجودا منذ الآن"^(٥)، فلا انفصال للغة عن العالم الذي يتجلى بواسطتها، وهو ما يتيح حالة التفاعل.

١ - ينظر : الحقيقة والمنهج : ٣٨٢.

٢ - ينظر : في ماهية اللغة وفلسفة التأويل: ١٥٣.

٣ - الحقيقة والمنهج : ٥٠٥.

٤ - م . ن : ٥٠٥.

٥ - م . ن : ٥٠٦.

الفصل الثاني

وما يقع على الذات في هذه المحادثة حالتان "الأولى هي العلاقة التبادلية بين الذات والموضوع أو بين الأنا والآخر، والثانية هي أن الآخر هو النص / المؤلف"^(١)، إذا كل محادثة تتطلب طرفين (الأنا / الآخر) وغادامير يجعل من الآخر النص أو العمل الفني، أو أي موضوع يقرأ تأويلياً، مما يجعل الآخر مساوياً للأنا.

والهدف العام للمحادثة وهو ما يجعله غادامير تعريفاً للمحادثة أنها "عملية لبلوغ فهم ما"^(٢)، وذلك الفهم يتوصل إليه من فعلين الأول متعلق بالذات أو الأنا، إذ عليها أن تكون في حالة من الإنصات، والإصغاء، وعليه نصل للفعل الثاني وهو أن الموضوع أو الآخر يأخذ دوره بالتحدث والتكشف عن نفسه.

إن هذا الحوار أو المحادثة يكشف عن ركن رئيس يرتبط بنظرية الفوضى، وهو اللاخطية، إن دفع غادامير للمنهج العلمي وتأصيله للحوار المتحرر، هو فعل لاخطي، إذ لا يمكن التنبؤ بما سينتج عن هذه المحادثة من فهم، نعم هناك فهم سيتحقق، لكن ماهيته غير متنبأ بها. وهذا ما تؤكد عليه نظرية الفوضى.

كما تشير التأويلية والنظرية الفوضى حالة التبادل بين الأطراف، مما ينتج عنه تغير في العلاقات وبالنتيجة ستتغير النتائج، وهو ما "يحقق إمكانية جديدة في النص ويجعله مختلفاً"^(٣).

١ - في ماهية اللغة وفلسفة التأويل : ١٥٤.

٢ - الحقيقة والمنهج : ٥٠٥.

٣ - نظرية الأدب : ١١٩.

الفصل الثاني

إذاً المحادثة تجعل من الكلام والإنصات فعلين جوهريين في تحققها، وهما غير مختصين بالذات المتكلمة، إنما الموضوع أيضا يمتلك حق الكلام^(١)، وهذا ما ترفضه النظرية النقدية الحديثة، إذ تجعل من الموضوع مادة خرساء.

إن الكلام والإنصات تمثيل للتكشف والتجيب الهايدغري، والتبادل الجدلي بينهما يجعل من عملية الفهم انتاجا مستمرا ضمن راهنية الزمن، فكل محادثة تتأسس بحسب مساحة اشتراك بين الطرفين ف"الموضوع المشترك هو ما يربط بين الطرفين الاثنين، النص والمؤول"^(٢)، مما يجعل من الذات مساهمة في إنتاج المعنى وتحقق الفهم.

وما يجب أن يؤشر هو تجنب الاهتمام بالمعنى الواحد الذي يكتنزه النص كما تصور شليرماخر، فالمؤول عليه أن يعمل على إعادة انتاج المعنى ضمن الحيز التاريخي له، بل علينا "فهم النص نفسه"^(٣) ضمن الحيز التاريخي لحضوره في المحادثة، مما يعني " أن أفكار المؤول الخاصة تشترك أيضا في إيقاظ معنى النص"^(٤).

الفهم وانصهار الآفاق

إن تأويلية غادامير تقود صراعها ضد التنوير ومقولاته، فتظهر الحداثة بكل حملتها العلمية والمنهجية بمظهر القصور، إما لجفاف مفاهيمها، وإما لتطرفها،

١ - ينظر: في ماهية اللغة وفلسفة التأويل: ١٥٩.

٢ - الحقيقة والمنهج: ٥١٠.

٣ - م . ن : ٥١١.

٤ - م . ن : ٥١١.

الفصل الثاني

والتأويلية تتجاوز ذلك بأن تجعل من التأويل فاعلية وجودية، يتكون الإنسان ضمن هذه الفاعلية، فيكتسب وجوده، من دون أن يقع في دائرة التطرف.

إن الحداثة وخطابها العلمي سعى جاهداً لليقين القطعي، وذلك بالتخلص من الخطأ وإمكانيته، فالافتراض الأساس لعصر التنوير... استخدام العقل استخدماً منهجياً مضبوطاً، يمكن أن يدرأ عنّا كل غوائل الخطأ^(١)، فلا مقولات أو مصدر للحقائق يقع خارج العقل، وأداته المنهجية الموضوعية، وهو ما جعل الخطأ عنصراً غريباً عن العقل ومنهجيته، ولم يوثق الخطأ بوصفه جزءاً من بنية العقل، وهذا ما خلق الحالة الخطية للحداثة وتنويرها.

آمنت التأويلية بالدائرية - وهو مفهوم استعارته النسوية ووظيفته في تشكيل فلسفتها وهو ما نجده عند ليندا شيفرد - في تجاوز للخطية، وكذلك في إكساب الخطأ صفة وجودية بوصفه جزءاً من وجودنا، والدائرية هي "القاعدة التأويلية القائلة إننا يجب أن نفهم الكل بمقتضى الجزء، ونفهم الجزء بمقتضى الكل"^(٢)، هذا الفهم لا يتسم بحالة الثبات اليقيني، فالخطاب العلمي قبل نظرية الفوضى كان يؤمن بأن الكل هو مجموع أجزائه، وما بعد ظهور نظرية الفوضى وجد أن هذه الرؤية غير صحيحة، فالكل أكبر من مجموع أجزائه، وهذا ما تحاول تأويلية غادامير كشفه وذلك بوصف فاعلية الحركة بين الكل والجزء، فكل واحد منهما يؤثر في تحديد الآخر، تحديداً يجعل من حالة الفهم متغيرة باستمرار، إذ تتجدد النتائج بفعل هذه الحركة، و"هذا يعني أن توقع المعنى يتغير وأن النص يوحّد معناه حول توقع آخر وهكذا يتحرك الفهم بثبات من الكل إلى الجزء، ليعود من الجزء إلى الكل"^(٣)، وفي كل مرة

١ - الحقيقة والمنهج: ٣٨٣.

٢ - م . ن : ٣٩٩.

٣ - م . ن : ٤٠٠.

الفصل الثاني

يؤثر هذا العود على المعنى وطريقة الفهم، بمعنى أن الانتقال من الأجزاء إلى الكل لا يساوي الانتقال من الكل إلى الأجزاء، والعملية في حال مستمر.

فالدائرية تصف حالة التفاعل بين حركة المؤول وحركة التراث أو مجال النص، فكل نص يدخل حيز التأويل يأتي بحمولته الخاصة، وهي في تقابل مع حمولة المؤول، وبفعل الدائرية، تنشأ حالة من التوتر بين العنصرين، مما يجعلهما قطبين متضادين في حركة واحدة، يقول غادامير "فالعامل التأويلي يتأسس على القطب المتناقض الذي يحمل الألفة والغرابة...توتر بين غرابة النص علينا وألفته لنا... إن الموضوع الحقيقي للتأويلية هو في المابين"^(١)، هذه الرؤية هي الممهد الحقيقي في العلوم الإنسانية لتجاوز المنطق التقليدي الخاص بالمطابقة، ومبادئه الثلاث، ليوثق لحظة الفوضى الكبرى بين الصواب والخطأ بوصفها منطقة المابين، التي لم ستوعبها المنطق.

ولكن كيف يتجلى هذا اللقاء بين المؤول والنص؟ وهنا يظهر مصطلحا الأفق وانصهار الأفق، ليبين غادامير حالة التفاعل الدائري، انطلاقاً من وجود الأفق عتبة للفهم، فهو "مدى الرؤية الذي يشتمل على كل شيء يمكن رؤيته من نقطة نظر معينة"^(٢)، فلما كانت الأحكام المسبقة شرطاً في تحقق الفهم فهي إذا من تحقق النظر والرؤية ومداها، ويشير بحسب الأفق غادامير إلى حالة من لا يمتلك أفقا بأنه لا يرى أبعد من أرنبه أنفه، ولذلك تظهر لديه الأحجام أكبر مما هي في الواقع

١ - الحقيقة والمنهج: ٤٠٤.

٢ - م . ن : ٤١٢.

الفصل الثاني

لصغر مداه في الرؤية، وعلى العكس منه من كان مداه واسعا يتجاوز مدى الرؤية إلى أقصى حد ممكن^(١).

وهذا لا يختص بالمؤول فقط، إنما يتعلق بالنص المراد قراءته واستحصال فهم منه، مما يجعل العقل في حالة من الانتقال والارتحال بين الأفقين، ويصف هذا الوضع غادامير "إننا يجب أن نضع أنفسنا، في الموقف الآخر كيما نفهم"^(٢)، هذه الحالة من التبادل الحركي بين أفقين مختلفين، وبحسب هذا التبادل يُنجز الفهم بوصفه "انصهار تلك الأفاق التي يفترض أنها موجودة بذاتها... إن عملية الانصهار هذه تكون في تراث ما عملية مطردة باستمرار"^(٣)، وهذا الانصهار متأسس على امتياز نوعي للأفق، فهو "شيء نتحرك فيه، ويتحرك معنا، وآفاق الشخص المتحرك متغيرة، ولا يتحرك الأفق الذي يطوقنا بفضل الوعي التاريخي إنما تعي هذه الحركة نفسها"^(٤)، فما ينبني عليه الفهم ضمن تأويلية غادامير هو التغير لا الثبات، والتأويلية تضمن لك الوصول إلى فهم، ولكن لا يمكن لها أن تؤكد نوع الفهم وصورته، بسبب من حالة التغير في الأفق بوصفها أصلا للفهم.

١ - الحقيقة والمنهج: ٤١٢-٤١٣.

٢ - الحقيقة والمنهج: ٤١٣.

٣ - م . ن : ٤١٧.

٤ - م . ن : ٤١٥.

الفصل الثاني

رابعاً- النسوية والانتماء إلى نظرية الفوضى

مشروع ليندا شيفرد النظري

قدمت الدراسات السابقة التحليل النفسي والتفكيك والتأويلية رؤيتها المناهضة لعلمية الخطاب النقدي؛ وذلك بتحديد مواطن تؤدي إلى اتخاذ طابع يقيني ثابت في الخطاب العلمي والذي يؤسس للنظرية النقدية.

وهذا الطابع ينتج بالضرورة التمرکز حول النظام، ومن حتميات النظام نبذ المختلف؛ لأنه مصدر الخلطة والعشوائية، فما يتطلبه النظام هو الاستقرار، فالنظام يعمل على إقصاء التعددية، بالاستناد إلى منطق الهوية الأحادية، إلا أن ظهور الظواهر الفوضوية، وتحديد مستوى انتشارها الواسع، وجعل الظواهر المنتظمة الأقل انتشاراً، أسس لتمظهر نظرية الفوضى التي تحاول إكساب الأولوية للمتغير على حساب الثابت، والانفتاح على حساب انغلاق النظام، بل ويزاد على ذلك أن نظرية الفوضى تضمن حق التعدد معرفياً بتسيّد منطق الاختلاف على منطق المشابهة والمطابقة.

ومن الموضوعات التي أقصاها الخطاب العلمي في سيرورته، وعمل على تهميشها (النسوية)، لأنها "انتماء نظري والتزام فكري، وهي كذلك حركة سياسية، تسعى لتحقيق العدل للنسوة واستئصال شأفة التحيز الجنسي"^(١)، وإذا ما كانت هذه الحركة المطالبة بالانتقادات إلى النوع المختلف في اكتسابه حقّ الحضور ومحاولة التخلص من سلطة الأحادية الذكورية، تقتقر إلى الأساس الفلسفي والنظري الذي يشكل دعامة مقولاتها على المستوى المعرفي، فإنها وجدت ضالتها في نظرية

^١ -الفلسفة النسوية: مكافي نويل ، ترجمة مشرف بك أشرف، مراجعة محمد الرشودي، موسوعة ستانفورد للفلسفة، منشورات مجلة الحكمة: ٣.

الفصل الثاني

الفوضى، وما تقدمه من طروحات تُعلي من الاختلاف وإمكانية التعدد، حتى أن الدكتورة ليندا شيفرد - وهي محور حديثنا - جعلت من نظرية الفوضى الممثل الحقيقي للأنوثة.

وما نسعى إليه في هذه المقاربة هو استكشاف رؤية النسويات في الترابط المعرفي الحادث بين حقول متعددة، فالنسوية تؤكد على أن الأسس المعرفية للخطاب العلمي هي نفسها التي تؤسس للنظرية النقدية، وسيرورة الخطاب العلمي كانت وما زالت تحتفظ بطابع الذكورة، مما يجعل من النظرية النقدية التي تستثمر مقولات الخطاب العلمي المعرفية، متلبسة بهذه الذكورة. وبالنتيجة سيكون النقد الأدبي بمجمله حقلًا يعزز الذكورة ضمن نمط إقصائي يُكسب الذكورة حقّ الوجود ضمن حالة التفرد، وهو ما تدعوه النسويات بالتحيز الجنسي، و تصف ليز تساليكي هذا التحيز "ويستند هذا التصور الاجتماعي إلى منظومة أوسع تضم الأفكار النمطية الجنسية في الثقافة الغربية التي تماهي بين الرجال والثقافة والعلم من ناحية، وبين المرأة والطبيعة والحدس من ناحية أخرى"^(١)

تبدأ ليندا شيفرد في كتابها (أنثوية العلم - العلم من منظور الفلسفة النسوية) بتتبع ملامح الخطاب العلمي بوصفه مؤسسة ذكورية، وتجعل من عتبة الانفصال بين (الذات / الموضوع) منطلقًا لبيان هذه المركزية، ساعية بنمط من الاستراتيجية التفكيكية، بقلب التراتبية (ذكر / أنثى) إلى ثنائية تواصلية (أنثى - ذكر) مؤكدة حضور الأنثوية أصلاً وجودياً، لا يلغي الذكورة بقدر ما يسعى لخلق حالة من التكيّف تعزز مبدأ الاتصال، بالعودة إلى الأصل المغيب بسبب العلم إذ "كان كل شيء في العالم محملاً بالمعنى، في هذه المرحلة الأمومية سادت الأنثوية على

١ - النسوية وما بعد النسوية: سارة جامبل، ترجمة أحمد الشامي، مراجعة هدى الصدة، المشروع

القومي للترجمة القاهرة، عدد ٤٨٣، ط١، ٢٠٠٢: ١٢٨-١٢٩.

الفصل الثاني

الذكورية وغلبة اللاوعي على الأنا الواعي"^(١)، وهي مقارنة تتكئ على ما قدم في التحليل النفسي من تماثل بين الفوضى واللاوعي، وبين النظام والأنا الأعلى، جاعلة من الطرف الأخير ممثلاً لصوت الذكورية.

فالأمومية واللاوعي هما الأصل الذي عمل الخطاب العلمي على إقصائه، وهذا الأصل يحتوي على العناصر الأولية للكون، وما يجب على النسويات هو مقارنة الخطاب العلمي الذكوري لبيان مساحة الاشتراك المعرفي من دون التحيز لطرف على حساب الآخر بحسب هذا الأصل.

إن لحظة الانقلاب على الأصل الأمومي، هو لحظة السيادة الذكورية، والذي أنجز تحت وصاية الفصل الأسطوري، وهي لحظة تشكل الأنا الأعلى، وهذا التشكل عزز حالة الانفصال بين ذات / موضوع، نشداناً للموضوعية، إلا أن هذه الثنائية تناسلت منها ثنائيات مترافقة مع آليات الإقصاء والعزل والكبت لطرف على حساب الآخر مما شكل النموذج التراتبي، ف هذا الانفصال لأننا عن العالم انقسمت معه الوحدة اللاواعية بين السماء والأرض، بين النور والظلمة، العقل والجسد، الوعي واللاوعي، الذكورية والأنثوية، الشق الثاني من هذه المتقابلات ألقى به في الظلال المعتمة"^(٢) لأنه مصدر للإخلال بالموضوعية، إذ تحتوي هذه الأطراف المبعدة على ما يهدد النظام واستقراره.

والوحدة المعرفية التي يقوم عليها هذا التغير هو ثنائية (الثابت / المتغير) فالثبات يعد منطلقاً لتأسيس النظام، والتغير لا يضمن للنظام ديمومته، إذ يعمل على خلخلة هذه الأسس.

^١ - أنثوية العلم: ١٠

^٢ - م . ن : ٤١.

الفصل الثاني

وهذا هو الافتراض الرئيس الذي تقوم عليه الفلسفة النسوية، مؤكدة على أن الخطاب العلمي هو خطاب ومنطق الذكورة، وهو خطاب الوعي أيضا، والهيمنة فيه للرجل بوصفه الممثل الوحيد لمقولة (الإنسان)، وحامل العقل القادر على تفسير وإخضاع كل ما عداه إلى مقولاته، وبذلك " تتراجع الأنثوية إلى مضمار مطمور تحت السطح وتصبح في واقع الأمر القوة الحاكمة للاوعي"^(١).

١- النسوية والطبيعة

إنّ من أوليات الخطاب العلمي السيطرة على الطبيعة، وهو ما أكد عليه بيكون وديكارت ونيوتن، وقد رُبّطت النساء بالطبيعة، والرجال بالثقافة على أساس أن الثقافة قادرة على استيعاب الطبيعة بكشف قوانينها ومن ثم السيطرة عليها^(٢)، وهذه الأولوية تعلي من فاعلية (العقل) و(المنهج) لتحقيق الموضوعية، بمعنى جعلهما معيارا تقاس إليه الحقائق والمعاني، فما كان مسموحا به من قبلهما اكتسب اليقين في وجوده المتعالي على الزمن، وهذا ما ينتج تعالي النظام، الذي يمكّن أفراده من القدرة على التنبؤ، وتحديد ما سيكون، وضمن هذا التوجه فرض الخطاب العلمي النظام على الفوضى ف" العلم يرفض كل ما لا يطابق العقل وبهذا عزل نفسه تماما عن مجال اللاوعي الذي يبدو لا عقلانيا وشواشيا"^(٣)، فنلاحظ نموذجين من العلم الأول يتمظهر مع ممثليه العقل والوعي وفعل المطابقة، والثاني اللاوعي واللاعقل وفعل الفوضى، الأول هو ما يصفه الخطاب العلمي بأنه (العلم الحقيقي)، والثاني تصفه

١ - أنثوية العلم : ٤٢ .

٢ - النظرية النسوية مقتطفات مختارة: ويندي كيه كولمار، فرنسيس بارتكوفيسكي، ترجمة عماد إبراهيم، مراجعة وتديقي عماد عمر، الاهلية للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ٢٠١٠: ١٩٨ .

٣ - أنثوية العلم : ٤٥ .

الفصل الثاني

المؤسسة الذكورية الراعية للخطاب العلمي بد(العلم الزائف)^(١)، والفارق بين العلمين نمط الظواهر التي تعالج وكيفية المعالجة، فالزائف يصنف بأنه غير حقيقي لأن موضوعاته لا تقبل المقايسة، مما يجعلها تشذ عن المنهج، والمؤسسة تصف هذا الشذوذ بالنظر إلى كمال منهجها، وبذلك تكون النتائج ضمن حيز اللامتاهي وهو ما يخالف الخطية التي يعززها الخطاب العلمي، فالظواهر التي نشذ لا يمكن التنبؤ بها ومن هنا اكتسبت سمة الفوضى.

تستند فلسفة النسوية في بيان أسسها واتخاذها من نظرية الفوضى ممثلاً لها، إلى مفاهيم ترجع إلى فلسفة هايدغر وتأويلية غادامير، وهذا ما نلمسه من حضور مفهومي (الانفتاح) و(الحوار)، بوصفهما بديلاً عن حالتَي الانغلاق وأحادية الصوت الذكوري، فالنسوية تركز على التلقي بوصفه فعلاً وجودياً في الأنثى، لا يلغي الآخر بل يجعله مشاركاً، وفي هذا تمتاز الأنثى ف"التلقي واحد من خصائص الطراز البدائي للأنثوية، ويرمز إليه بأشكال شتى من الأوعية، ولا شك أن هذا الترميز مأخوذ من الرحم من حيث هو وعاء منفتح للإخصاب"^(٢)، وهذا الفارق الجوهرى بين الذكر والأنثى، فالذكر يتخذ من الإرسال والكلام صفة يمتاز به، أما الأنثى فتتخذ الإنصات والتلقي، وهذا الفارق يركز على الفارق التشريحي، فالذكر الذي يمتلك القضيب، والأنثى تمتلك الرحم، والأول يتخذ من الإرسال وضعاً له، والثاني يتخذ الاستقبال، ولأخير قابلية جوهرية في المشاركة التي تنتج حالة الإخصاب، هذه المشاركة تفرضها الفلسفة النسوية، أما الذكورية فتجعل من امتلاك القضيب مركزاً للإخصاب، بوصف الرحم وعاء فقط، لذلك كان الأثر إقصائي للأنثى.

^١ - أنثوية العلم : ٤٨ .

^٢ - م . ن : ١١١ .

الفصل الثاني

وفي هذا التصور جُعِلت اللغة وعاء للفكر، فهي وسيط نقل كما الرحم وسيط، وما قامت به التفكيكية هو جعل اللغة عنصرا فاعلا في الإنتاج، وعلى هذا تستند الفلسفة النسوية، في إعادة حضورها الوجودي بوصفها عنصرا فاعلا لا منفعلا.

وتنتقل هذه الثنائية إلى مقارنة الطبيعة، وكيفية تصورها ضمن تصورات الخطاب العلمي، فهذا الخطاب يؤكد على فعل الهيمنة على الطبيعة، فالعقل العلمي منذ لحظة انفصاله عن الماورائيات جعل اهتمامه في السيطرة على الطبيعة، رغبة في الامتلاك والتحكم، أما الأنثوية التي ترى " أن التلقي الأنثوي يهب العلم انفتاحا على الإنصات للطبيعة والاستجابة فيما يشبه الحوار أو التشارك مع الطبيعة"^(١)، فالانفتاح ذو الطابع الهيدغري، يُعنى بالتعامل مع الطبيعة خارج مفهوم السيطرة، أي من دون تصور سابق يُتعامل بحسبه معها، فتتمظهر الطبيعة بحسب هذا التصور، والحوار، وهو ذو طابع غاداميري، يعمل على تكسير حدود المنهج في التعاطي مع الطبيعة، فبدلا من خضوع الطبيعة، تعمل النسوية على السماح للطبيعة بأن تقول ما تريد، وأن تكشف عن ماهيتها الحقيقية، في حالة من التلقي الكلي والنقي.

إن التمايز في فعل العطاء الذكوري وما يرتبط به من مفاهيم (الإرسال، والسيطرة، والامتلاك) وبين فعل التلقي الأنثوي وما يرتبط به من مفاهيم (الحوار، والانفتاح، ومشاركة، وتبادل)، هذا التباين هو من تعمل النسوية على محاولة نقضه في الخطاب العلمي، إذ يمثل الطرف الأول حالة إقصائية، والثاني يؤكد على الاستدعاء والمشاركة، مما يجعل النسوية تؤكد على أنها ليست محاولة في نقل المركزية من طرف إلى آخر؛ لأنه يجعل النسوية تسقط في الحالة الأولى الإقصائية، وهو ما يمثل طابع الهيمنة.

^١ - أنثوية العلم : ١١١.

الفصل الثاني

لتجعل النسوية من علاقة الإنسان بالطبيعة، ضمن الخطاب العلمي، هي من نمط العلاقة بين الذكر والأنثى، فتساوي بين الطبيعة والأنثى، وفي حالة من التحديد لحالة الاثنين، ترى النسوية أن الأنثى والطبيعة تقع تحت سلطة العلم وذكوريته، وعلى أساس فرض المساواة أصبح السعي لتحرر الطبيعة وحضورها هو التحرر الذي تسعى إليه الأنثى.

لذلك يتخذ فعل التلقي حضورا في الطبيعة، بوصفه فعلا مضادا وأصيلا، وليس وعاء فقط تُحمل عليه مقولات العلم، فأن تكون " متلقيا لا يعني أن تكون سلة مهملات تقبل كل شيء يلقي فيها، إن التلقي مهم في العلم في صورة الملاحظة، وفي صورة التأمل في المعطيات وصورة الإنصات إلى الطبيعة، ويعني أيضا أن تتلقى الآخرين، و أن يتلقاك الآخرون"^(١)، وهذه المشاركة التي تسعى إليها الفلسفة النسوية، وهو استثمار للحوار عند غادامير، أي يُتقبل الاختلاف بوصفه أسا منطقيا لبناء منظومة معرفية، ويكون مضادا لمنطق المطابقة الذي يسعى منطق الذكورة إلى تسيده، فتكون النساء ذكورا من حيث المنطق وهو جوهر الهيمنة.

٢- النسوية والمنهج

تمتد الفلسفة النسوية تجاه أعظم أسلحة الخطاب العلمي وهو المنهج، وتقاربه ليندا شيفرد كاشفة عن التغاير المعرفي بين نظرية الفوضى وما يقدمه الخطاب العلمي، وهو بالضرورة ينسحب إلى حديّة المنهج في النظرية النقدية.

تنطلق شيفرد من تحديد خطيّة المنهج العلمي، بوصفه انتقالا من القواعد التصورية الكليّة، التي تحوي في بنيتها نمودجا عن الإجابة المبحوث عنها، إلى نتائج تكون يقينية بمقدار تطابقها مع تلك القواعد، وما تدعو إليه النسوية هو التخلي

^١ - أنثوية العلم : ١١٣.

الفصل الثاني

عن الانموذج الخطي ذي الطابع التنبؤي، وذلك بجعل الموضوعات تكشف عن نفسها، نستقرئها لتعرض إجاباتها بحسب ماهيتها، لا بحسب التصورات المنهجية الخطية، فالمنهج العلمي الخطي "يتكون من فروض ثم اختبارها لتري ما إذا كانت ذات قيمة تنبؤية"^(١)، وإذا كانت النتائج غير متوافقة مع التصورات المنهجية، أي انعدام قابلية التنبؤ، ينزع المنهج العلمي إلى تغيير الفروض حتى تحصل على الشكل المنظم بحسب التصورات، وهذا ما اشتغلت عليه الشكلائية في محاولتها التأسيس لمنهج نقدي علمي.

تنقل لنا شيفرد تجارب لباحثات رفضن هذا التوجه الخطي، في محاولة منها لبيان قدرة النساء على تفعيل حالة التلقي، منهن الباحثة (باولا سزكودي) المتخصصة في النجوم، تقول "لعل النجم الذي عملت عليه هو أكثر النجوم المتغيرة عدم قابلية للتنبؤ هذه النجوم لا تسلك سلوكا نظاميا، لقد انجذبت إلى دائرة اللامعروف والغير يقيني، وأن ثمة شيئا ما جديدا لتكتشفه وعندما نقوم بالرصد عليك تفسير ما يحدث"^(٢)، وتنقل أيضا تجربة (إيمي باكن) في صراعها مع مشرفها على البحث الذي يطالبها بالفروض التنبؤية، والباحثة باكن تؤكد على أنها "لم تشأ أن تضع أية ظروف متصورة قبلا لهذا ... ليست المسألة أن تحاول فرض إجابات معينة، بل إن الإجابات ما كانت لتكشف عن نفسها إذا لم تثق فيها وتظل تعمل معها"^(٣)، وكلاهما يؤكدان على وجود اللاتابث في الظواهر، ومن جهة أخرى نرى طريقة تفاعلها مع هذه المتغيرات بجعل الظواهر تقدم الإجابات البحثية، وهو نمط من الانتقال من فعل

١ - أنثوية العلم: ١١٦.

٢ - م . ن : ١١٥.

٣ - م . ن : ١١٦.

الفصل الثاني

استكشاف الموضوع بحسب التصور السابق، إلى الاستكشاف ضمن حالة التلقي والانصات، فجُعل الحوار هو المبدأ في التعامل مع الظواهر الطبيعية.

وقيمة الحوار في أن يجعل من المتغير ذا قيمة في البحث، بمعنى أن بنية الحوار وماهيته تفرض ذلك، وهذا ما لا يفعله المنهج الخطي، وهو جوهر نظرية الفوضى الذي كشفه أدوارد لورنز في نظرية جناح الفراشة، بكشفه عن فاعلية المتغيرات التي يعاملها المنهج الخطي بوصفها أخطاء، فيعمل على اختزالها حتى يصل إلى النموذج التأسيسي للظاهرة، فيتمكن من معرفة صيغتها القانونية، مما جعل الخطاب العلمي يتجاهل أثر هذه الأخطاء وما تفعله عند تراكمها في الامتداد الزمني، والفلسفة النسوية تعمل على مناقضة هذا التوجه، ف"المقاربة الأنثوية المتسمة بالتلقي، هي الإنصات إلى (المادة) وبهذا يغدو العلم حواراً مع الطبيعة بدلاً من أن يكون محكمة تفتيش"^(١).

إذا الفلسفة النسوية توجه سهام نقدها للخطاب العلمي بوصفه ذكورياً مؤكدة الفارق الرئيس بينهما في التعامل مع الطبيعة، فالذكورية تؤكد على المنهجية اليقينية، فضلاً عن تحديدها معيار مقبولية النتائج بحسب فكرة المطابقة، وهو ما يضمن خطية المنهج التنبؤية، مما يجعل الخطاب العلمي يسعى للسيطرة على الطبيعة فينتج ذلك أحادية التفكير.

ترتبط هذه الأحادية بمركزية القضيب وفاعليته في الإنجاز والإخصاب، وتقف بالضد منه تصورات الفلسفة النسوية التي تقترض الحوار مبدأً شرعياً يضمن حضورها، وهو ما يجعل الموضوعات تحضر بنفسها لا بحسب الفرض المسبق،

^١ - أنثوية العلم: ١٢٠.

الفصل الثاني

وهذا يستلزم تعطيلا لخطية المنهج وتجاوزا للتنبؤية، فجعلت النسوية من الحوار مبدأ يؤسسه وجود الرحم عند الأنثى، وأهم امتيازاته أنه مجبول على الاستقبال والمشاركة.

وإذا كان الخطاب الذكوري يؤكد على الوعي، فإن النسوية تجد أن اللاوعي يمثل امتدادها، لأنه الرحم الأول لعناصر الوعي. ولتشكل النسوية خطابها كان لزاما عليها من البحث عن نظريات تحقق لها مبادئها الوجودية، فتضمن بذلك المغايرة المعرفية، وهو ما وجدته في نظرية الفوضى.

٣- النسوية ونظرية الفوضى

إن النسوية التي ساوت بين الطبيعة والأنثى واللاوعي، كان التركيز في هذه المساواة على جانبيين الأول متعلق بجوهر كل عنصر من هذه الثلاثة، فهي مهيمن عليها من الثقافة والذكورة والوعي، والثاني أن جوهرها غير متوافق مع الخطية المنهجية، بوصفها ظواهر لا تنبؤية، وهذا ما جعل النسوية تبحث عن المماثلة بين الأنثوية والفوضوية، وفي هذا الصدد تذكر ليندا شيفرد مجموعة من النصوص تبين هذا التماثل:

١- "انزوى جانب الشواش من الطبيعة في غياهب النسيان تماما مثلما انزوت الأنثوية"^(١).

٢- "حين بدأت لأول مرة عن علم الشواش الناشئ راعني على التو تماثلته مع خصائص المعزوة للأنثوية: عدم قابلية على التنبؤ، والعلمية اللاخطية، وأهمية السياق، وترابطية الأجزاء مع الكل الغير قابل للانقسام"^(٢).

^١ - أنثوية العلم : ١٢٣.

^٢ - م . ن : ١٢٥.

الفصل الثاني

٣- "من المثير للفضول أن لغة نظرية الشواش تستعير ألفاظا من عالم المرأة والمنزل، في تعارض من لغة الرياضيات ذات الدقة الصارمة والكفاءة العالية"^(١).

٤- "يبدل علم الشواش من طريقة رؤيتنا للعالم وبوصفه صوتا أنثويا يغير العلم حتى أعمق جذوره عن طريق تغيير لغته، لغة الرياضيات"^(٢).

٥- "أن توازيا مثيرا بين القيم والمنظورات التي يهبنا إياها علم الشواش وبين الأنثوية- وتمائل الأسباب التي جعلت الثقافة الغربية الأبولوجية* تحي كليهما جانبا"^(٣).

٦- "آمنتُ بأن علم الشواش يتحدث بلسان الأنثوية ... لأنه يسلط الضوء على صوابية سمات جعلت لها الحضارة الغربية قيمة سلبية"^(٤).

٧- "أعتقد أننا نستطيع أن نظفر باستبصار لصميم قيمة الأنثوية إذا استكشفنا الأدوار البنائية التي يلعبها اللانظام واللاخطية والجلية في المنظومات المعقدة"^(٥).

٨- "لقد نحيت المنظومات اللاخطية جانبا مثلما نحيت النساء جانبا، وأبعدن إلى مكاتب في الأدوار السفلية حتى لا يشوشن نظام الخطاب العقلاني"^(٦).

١ - أنثوية العلم: ١٢٥.

٢ - م . ن : ١٢٥.

* نسبة إلى أبولو إله النور والعقل والمنطق والنظام.

٣ - أنثوية العلم : ١٢٧.

٤ - م . ن : ١٢٨.

٥ - م . ن : ١٢٨.

٦ - م . ن : ١٢٨.

الفصل الثاني

٩- "على مدار تاريخ العلم جرى تماثل بين النساء و(الطبيعة الأم) من حيث الدائرية واللاخطية واللاعقلانية وعدم قابلية التنبؤ"^(١).

١٠- "تضخ الأنثوية الحياة في أعطاف العلم بأن تصب الاتقاد والمرونة في صميم المقاربة الخطية التقليدية للبحوث"^(٢).

وهذه النصوص هي جزء من مجموعة كبيرة تؤكد بواسطتها شيفرد أن الفوضى والأنثى متماثلتان، من حيث الطبيعة الجوهرية، وكذلك كيفية معاملة الخطاب العلمي لهما.

أن هذه الملاءمة بين الأنثوية والفوضى بوصفهما ظواهر رحمية طبيعية، جعلت الخطاب العلمي يعمل على إقصائها، ويصنفها ضمن العلم الزائف، لأنها ظواهر تتسم بالفردية الذاتية، وعليه فهي ظواهر لا يمكن قياسها، والخطاب العلمي يحدد بذلك شرطاً معرفياً لتحديد ماهو موجود وحقيقي، وهو قبول الظاهرة القياس المنهجي، فما كان خارج القياس لا يمكن تحديده قانونه الذي يتحكم به، وبذلك ينتقض شرط اليقين المبحوث عنه، وعليه صنفنا الظواهر الفوضوية بأنها شاذة.

فالعلم المنهجي يجعل من الظواهر التي تقبل تجريبته أنظمة محددة، وتتسم باستقلالها عن (ذات) العالم وهذا "من الفروض الأساسية للعلم، أن هناك كونا موضوعياً منفصلاً ومستقلاً عن الملاحظ ويمكن استكشافه عن طريق البحث العلمي"^(٣) ومن هذا الاستقلال والانفصال تبلورت الموضوعية، والتي أكدت عليها النظرية النقدية في نموذجها البنيوي، فهي لا تتادي بموت المؤلف فقط، إنما القارئ

١ - أنثوية العلم: ١٢٩.

٢ - م . ن : ١٢٩.

٣ - م . ن : ١٣٤.

الفصل الثاني

أو المتلقي أيضاً، وهذا جوهر الموضوعية العلمية، أي التخلص من الذاتية بتسيّد المنهج القياسي، بوصف الإطار الكاشف عن الحقيقة والمعنى.

والمنهج بتأصيله للموضوعية يجعل من المعنى والحقيقة خارج الزمن، وبحسب هذا التوجه اكتسب العلم تعريفه بأنه "مشروع نسقي عام محكوم بالمنطق وبالواقعية التجريبية وهدفه صياغة الحقيقة بشأن العلم التجريبي الحقيقة التي نبحت أساساً عنها عمومية، تعبر عنها قوانين الطبيعة، التي تخبرنا ما هو الواقع في كل زمان ومكان"^(١)، فنقع الأنا ضمن التعريف في الثانوية، وهو شرط الحقيقة الموضوعية، فالطبيعة التي يقبلها المختبر التجريبي هي الوقائع التي يقدرها العلم، وبحسبه كانت الظواهر والوقائع الفوضوية لا علمية، إذ أنها تناقض شرط الموضوعية، فهي ليست بظواهر قابلة للقياس، فلا حدود منضبطة فيها، بل إنها تتمتع عن كشف قانونها وحقيقتها؛ لأنها متأسسة على المتغير لا الثابت، فالعلم اليقيني عند مصادفته للخطأ، يُسقط الخطأ من الإجراء العلم اختزالياً، حتى تتحصل الصيغة الثابتة، كما في فينومينولوجيا هوسرل، لكن مع الظواهر الفوضوية يأخذ الخطأ بالتعاظم، مما ينتج أشياء غير متوقعة، وهذا ما أدى إلى تمظهر نظرية جناح الفراشة.

ما أفرزته نظرية الفوضى وتسعى النسوية إلى استثماره هو أن الظواهر التي أقصاها العلم ليست أقل واقعية، مما يجعل نقض شرط الموضوعية لا يعادل عدم الحقيقة^(٢)، وهذا التصور متماثل مع ما قدمه هايزنبرغ في مبدأ عدم اليقين. فالفسلو النسوية لا تسعى للتخلص من الموضوعية، إنما تسعى إلى تطوير العلاقة

^١ - أنثوية العلم: ١٣٥.

^٢ - م. ن. : ١٤٥.

الفصل الثاني

بين ذات وموضوع إلى اندماج واتصال^(١)، وهذا ما سعى إليه غادامير. وبحسب النسوية هذا الاتصال يؤدي إلى الارتقاء بالعلم، إلا أنه مرهون بالتغيير على مستوى النموذج المعرفي للعلم، وتشكيل نموذج جديد تصفه شيفرد بـ"أن الارتباط بالشأن السايكولوجي يهب العمل العلمي الطاقة النفسية، المشروع شيق لنا لأنه يهمننا على مستوى سايكولوجي عميق ... إننا نصبح الوعاء السيميائي الذي تحدث فيه التفاعلات وإذا نجحنا سوف ينبثق شيء جديد"^(٢)، فالأنثى تحضر في هذا التصور الجديد بوصفها وعاء يسمح بالتفاعل المنتج، ولذا ليندا شيفرد تحدد الشروع بالتغيير المعرفي بتوفيرها البديل.

إن القواعد المنطقية الحاكمة للخطاب العلمي أُسست بحسب مبادئ ثلاثة أساسية (الهوية، وعدم التناقض، والثالث المرفوع)^(٣)، وبحسب هذه المبادئ أنشئت قاعدة المطابقة (صح / خطأ) المحكومة بعلاقة (إما / أو)، وهذا المنطق الخطي نشأت عنه التراتيبات^(٤) (حق / باطل، خير / شر، نظام / فوضى، ذكر / أنثى، نور / ظلمة، جميل / قبيح) وفي هذا المنطق الخطي تكون النتائج ملتزمة بالمقدمات، فمقدار الزيادة في المقدمة يساوي المقدار نفسه في النتيجة.

١ - فيمينزم الحركة النسوية مفهومها أصولها النظرية وتياراتها الاجتماعية: نرجس رودكر، تعريب هبة ضافر، العتبة العباسية المقدسة، كربلاء، سلسلة مصطلحات معاصرة ٣٢، بيروت لبنان، ط١، ٢٠١٩: ٢٩١.

٢ - ينظر: أنثوية العلم : ١٥٨.

٣ - مدخل إلى علم المنطق أساسيات وتطبيقات: جمال ضاهر، دار الفارابي بيروت - لبنان، ط٣، ٢٠١٨: ١٦-١٩.

٤ - ينظر: أنثوية العلم : ١٦١.

الفصل الثاني

الطبيعة لا تتلاءم وهذا المنطق، لأنها يمكن أن تتوفر على ظواهر تناقض المبادئ الأساسية، فالطبيعة لا تخضع لقاعدة (إما / أو) إذ توجد حالة (البين بين) والتي لا يمكن للمنطق الخطي من إدراكها، وهذا ما تفرضه الحدود المنطقية، وهذا تحديدا ما دفع لظفي زاده إلى تطوير المنطق (الغائم أو الضبابي) أو كما يسميه محمد مفتاح المنطق المتداخل، وعماد هذا المنطق هو إيجاد توصيف منطقي يستوعب حالة البين بين الطبيعية، وهو ما يكسر خطية المبادئ الأساسية للمنطق الخطي، فهو منطق يهتم بالمتغيرات وبالحدود ذات النهايات المفتوحة، فالمنطق الغائم "يتمثل الظواهر الطبيعية بوصفها أحداثا متصلة بدلا من أن تكون خيارات كل شيء، أو لا شيء"^(١).

فالمنطق الغائم يتعامل مع التعقيد الذي تتسم به الطبيعة، وانطلاقا من زيادة التعقيد والفوضى في الظواهر "تتاقصت مقدرتنا على صنع عبارات خاصة بمسلكه تمون ذات (دلالة) و(دقيقة) في الوقت نفسه وذلك إلى الحد الذي تستبعد فيه خاصيتا الدقة والدلالة، كل منهما تبادليا"^(٢)، وهذا التصور مشتق من مبدأ عدم اليقين، فلا نحوز على الدقة والدلالة كلما تعقد النظام، فالطبيعة تفرض أن أحدهما يقع في اللاتحديد عند تحديد الآخر، ويترتب على هذا المبدأ مبدأ آخر وهو تحديد الدقة في الظاهرة يزيد من حالة الغيمومة بالنسبة للظاهرة^(٣) أي زيادة نسبة التعقيد، ولذلك وجدوا أن منطق (إما / أو) لا يمكنه أن يقدم تفسيراً لهذه الفوضى وتعقيدها،

١ - أنثوية العلم: ١٦٧.

٢ - المنطق الغائم علم جديد لتقنية المستقبل: إعداد الدكتورة سهام النويهي، المكتبة الأكاديمية، القاهرة - مصر، كراسات علمية ط ١، ٢٠٠١، ١٩.

٣ - م . ن : ١٩.

الفصل الثاني

فهو ملزم بالتعامل مع الكليات، والمنطق الغائم "يتعامل مع قيم صدق الصدق الجزئي الذي يقع بين الصدق الكامل والكذب الكامل"^(١).

ولهذا المنطق أثر في معارضة منطق النظرية النقدية ذات الحدود الكلية، فالنقد يسعى إلى حالة من التبسيط ضمن آلية الاختزال، للوقوف على الصيغة الكلية، ولكن الأدب بوصفه موضوعا للنقد، يتسم بالتعقيد والفوضى أصالة، فهو لا يخضع لمبادئ المنطق الثلاثة، ولذلك كلما كان النص أكثر تعقيدا وفوضوية من حيث اللغة، كلما كان تحديد معناه بعبارة الصدق / الكذب أمرا لا يمكن تحقيقه، والجدل يبدأ من لغة النقد نفسه، بين تحديد معنى النص حقيقة، وبين لغة تكون صادقة ودقيقة في النقل.

وبحسب المنطق الغائم حاولت النسوية كسر المنطق الخطي وما ينتجه من تراتبية، وذلك بطرح التصور الدائري، أي بدلا من حالة الترتب الضدي، نضع الدائرة، وفيها "يتقابل الناس في مرمى البصر والكل يقيم في المستوى نفسه، يمكن أن تتسع الدائرة لتضم آخرين من دون إزاحة أحد"^(٢)، وهو ما يسمح للنسوية بالتخلص من فخ التسلط والمركزية، فتتخذ الذات موضعا مناظرا وجوديا للآخر أو الموضوع من دون تراتب يضع حدا تقيما لطرف دون آخر، ونظرية الفوضى هي الوعاء الحقيقي لهذا التوجه، فالجاذب العجيب قائم على حضور طرفين متضادين في حالة تفاعل مستمر، من دون الارتكاز على طرف. فالتراتب الهرمي "يضيق التعددية، ويضيع معه ثراء الاختلاف"^(٣)، فكل شيء مرهون بحالة الملاحظ وسياق حضور الملاحظ بوصفهما (ذات - موضوع) وبديلا عن سلطة المنهج الخطي، نجح إلى

١ - المنطق الغائم علم جديد لتقنية المستقبل: ١٨.

٢ - أنثوية العلم : ١٧٧.

٣ - م . ن : ١٧٣.

الفصل الثاني

الحوار بينهما، ولأن الزمان هو العنصر الحامل للبعد الثقافي والبيئي للحضور فإننا بالنتيجة نتجه إلى نسبية الحقيقة والمعنى، أي نسبية الفهم، وإذ نحن " نتعلم من براعة وتعقيد الطبيعة الرائعين أن (الحقيقة) لها وجوه عديدة تعتمد على منظور (الملاحظ)، كل حقيقة جديدة حتى في العلم، جزئية غير مكتملة، وبالمثل لها حدود ثقافية"^(١) مما يجعل من التعدد والاختلاف والتغيير هو الأصل، فالأحكام المطلقة قاصرة عن بلوغ الواقع، كما أنها لا تمثل الطبيعة في كل أشكالها.

ولتكتمل حلقة التأثير النسوية قاربت هذه الفلسفة طرق تحصيل المعرفة، فالبحث العلمي ومن بعده النظرية النقدية ركزوا على الطريق العقلي التجريبي، وهما معيار وجود الشيء، وكذلك هما معيار علمية الدرس، فكل ما يختبر تجريبيا فهو موجود وعلمي، يكتسب اليقين القطعي، وهذا يتناسق مع الهدف العلمي الباحث عن اليقين الثابت الذي لا يقبل الشك.

تركز الفلسفة النسوية على (الحدس) منهجا بديلا لتحصيل المعرفة، والاختلاف يكمن في آلية الحدس وفاعليته من جهة، ونوع المبحوث عنه من جهة أخرى، ففي المنهج العقلاني التجريبي تكون النتائج خاضعة لنمط التصورات المنهجية، مما يجعل من صورة المستقبل حاضرة في الشروط الابتدائية مما يسمح بإمكانية التنبؤ، أما في الحدس تكون المعرفة مجتناة من دون تفكير عقلاني مثبت"^(٢)، فالنتائج فيه ضمن مقولة الاحتمال، فلا حضور للحتمية فيه، بذلك يتشكل الحدس بوصف إدراكا مختلفا يحقق نتائج قابلة للتغير بحسب تغير الظروف والسياق، مما يجعل الحدس يفسح المجال للخطأ بوصفه جزءا من الظاهرة غير قابل للاختزال.

^١ - أنثوية العلم: ١٧٣.

^٢ - م . ن : ٢٥٥

الفصل الثاني

والنسوية تجعل من الحدس نهجا أنثويا بامتياز، وهو تصور ألقه الخطاب العلمي بالأنثى (الحدس الأنثوي)^(١)، إلا أن النسوية فعلته لتجعله امتيازاً إيجابياً في تحصيل المعرفة، فالحدس "أكثر من ملاحظة نافذة إنه وعي كلاني يتضمن حساسية مثبتة في كلا العالمين الداخلي والخارجي، ويعلو في بعض الأحيان على المدخلات الآتية عن طريق الحواس"^(٢)، ومن هذه الكلائية يتجاوز الحدس منطق السبب والنتيجة الحتمية، فكل شيء ممكن في الحدس، ومن هذه الإمكانية في تحقق كل شيء تربط النسوية بين الحدس ونظرية الفوضى بالاستناد إلى الأصل الأسطوري في تشكل النظام، ومرجعية الكون ف"في ثقافات عديدة ترمز الأمواه إلى الشواش وإلى اللاوعي ذلك الواقع حيث تبقى كل الأشياء في نطاق الإمكانية"^(٣)، أي كل شيء محتمل، هل يبقى للتنبؤ من وجود بحسب هذا الإمكان؟. إلا أنها تجد رابطاً بين الحدس واللاوعي بلحاظ نظرية الفوضى ف"كما تنشأ النماذج عن الديناميكا اللاخطية في نظرية الشواش، يبدو الحدس ناشاً بشكل غامض عن اللاوعي ليزودنا بمعلومات جديدة"^(٤)، فاللاوعي والفوضى مناطق خالية من علاقات السبب والنتيجة، وهو ما يجعل من نتائجها غير تنبؤية.

٤- النسوية ومبدأ الترابطية

إن المنهج التجريبي يؤسس فعل اشتغاله على آلية مهمة هي (الاختزال) وهي عملية تجريد الظاهرة من عناصر معينة، والإبقاء على الهيكل الرئيس فيها، فالأصل في الاختزال هو التجزئة، وتحقيق الانفصال بين العناصر المكونة للظاهرة

١ - أنثوية العلم: ٢٥٥.

٢ - م. ن: ٢٥٦.

٣ - م. ن: ٢٦٩.

٤ - م. ن: ٢٧٠.

الفصل الثاني

المدوسة، وبفضل الرؤية التحليلية يتم تحديد العناصر التي تمثل جوهر الظاهرة ومن ثم تحديد العلاقة بين هذه العناصر، ومن ذلك عرّف الاختزال " مهارة تقسيم الأشياء إلى مكوناتها الصغرى"^(١)، لكن هذه التجزئة محورها الترتيب، إذ تشتغل على العناصر الثابتة، وتطرح العناصر المتغيرة بوصفها ثانوية، ليست جوهرية، وهذا الأخير لا يوصل للقين بحسب المنهج العقلي التجريبي، وهذا ما ترفضه نظرية الفوضى، وتستند النسوية إلى هذا الرفض، فنظرية الفوضى "يتحدث هو الآخر بمفهوم الكلية، إنه يهينا طريقا لرؤية النظام والأنموذج في الواقع لم يكن فيها سابقا إلا العشوائية"^(٢)، والكلية التي تؤسس لها الفوضوية والنسوية، تغادر حالة الاختزال إلى الترابط، فبدلا من فعل التجزئة للعناصر وتصنيفها، تعمل نظرية الفوضى على تحديد نمط العلاقة بين عناصر الظاهرة كلها، باحثة عن مستوى التأثير لاجتماع العناصر، انطلاقا من مبدأ أصيل وهو أن الجزء غير الكل، والكل لا يساوي مجموع أجزائه، فيكون للهامش والخطأ والبسيط والمتغير أثر في تشكيل الظاهرة، ويدعم فكرة التعقيد والعشوائية.

إن الرؤية الترابطية لها أصالة وجودية، وتعمل على رفع التراتبية بين العناصر، وكذلك تتعامل من الصورة الكلية لعناصر الظاهرة، مما يجعل الصورة الكلية منفلة من قبضة التنبؤ، ولـ"أنا نحيل في كون غير خطي كون يضيف عناصر التعقيد والجمال كلما تلاقت جسيماته معا في كيان عضوي كلاني، وفي كل مستوى من مستويات النماء والتنظيم تظهر خصائص جديدة لم يكن من الممكن أبدا التنبؤ بها أو تفهمها عن طريق العناصر ذاتها"^(٣)، فنظرية الفوضى في نظرتها

١ - أنثوية العلم: ٢٧٩.

٢ - م . ن : ٢٩٥.

٣ - م . ن : ٢٨٢.

الفصل الثاني

الشمولية تجعل الذات في حالة من الترابط مع الموضوع، ترابط تفاعلي منتج، بغض النظر عن تصنيف الجزئيات، وهذه الترابطية كونية وجودية وليست حالة منفردة.

وعلى مستوى النظرية النقدية فإن لحظة الانفصال قد أكدتها البنيوية صراحة في موت الذات، ونظرية الفوضى تفرض أن النص الأدبي بوصفه موضوعا مرتبط أصلا بالذات، مما يعني أنه عنصر متغير له أثر في صيرورة المعنى، لذلك له أثر في نوع النتائج، فكلما تدخل عنصر جديد بوصفه قارئاً للنص، أنتج معنى جيد مغاير لما كان سابقاً، لأنه مما لا يتنبأ به.

وتحدد ليندا شيفرد العلاقة بين الأنوثة والترابطية بقولها أن الأنثوية تميل إلى رؤية كل جزء في سياقه بوصفه جزءاً من صورة أوسع^(١)، ومبدأ الترابطية "تنبثق منه كل الخصائص الأنثوية عن مغزى للتواصل الداخلي"^(٢)، أي للاوعي، ومن هنا يتأسس الفارق بين الاختزالية بوصفها آلية ذكورية تسعى للتجزئة والتصنيف، وبين الترابطية التي تهتم بالكلية الشمولية لا بوصفها بعداً تجريدياً، إنما بوصفها صورة تستوعب كل عناصر الظاهرة، وإذا كان النظام هو منتج الاختزال، فإن الفوضى هي منتج الترابطية، فتكون الأنثوية ضمن هذا التصور المغاير للخطاب العلمي.

وإذا كانت سيرورة النظرية النقدية مدعومة بالخطاب العلمي ذي المنهج الخطي، فإنها تحكم على نفسها بالذكورية، ومن هنا عملت النسوية على مناهضة أصول الخطاب الذكوري بتأسيس رؤية مغايرة لما تقدمه النظرية النقدية، وعملها لم

^١ - أنثوية العلم: ٢٧٩.

^٢ - م . ن : ٢٧٩.

الفصل الثاني

يكن مقتصرًا على الإلغاء بقدر محاولتها تفعيل حضور الأنثى مصدرًا للانفتاح النقدي فتشيع مفاهيم الحوار والحدس والترابطية، ارتقاءً بالاشتغال النقدي.

الفصل الثالث

التوظيف النقدي لمفاهيم نظرية الفوضى عربياً

أولاً- شمولية المنهجية النقدية عند محمد مفتاح

يمكن الحديث عن تجربة محمد مفتاح النقدية ضمن مقولة (الشمولية)، فمن يراجع سلسلة ما أصدره، يجده مهموماً بهذا الطابع المنهجي الموسوعي، مما أهله لخوض مغامرات معرفية قلّ نظيرها النقدي.

إنّ مشغل محمد مفتاح النقدي مشغل يمكن لنا أن نصفه بالريادة، التي تتمثل في قدرته على استيعاب ما قُدم في الدرس النقدي الغربي من جهة، وما يمكن للناقد العربي، ضمن خصوصيته الثقافية، من استثمار لهذا الدرس من جهة أخرى، فضلاً عن هذا استطاع محمد مفتاح أن يتجاوز حدود المقولات المنهجية، للحفر في الأطر المعرفية التي تستند إليها هذه المناهج النقدية عربياً وغربياً.

هذا الاشتغال في البعد المعرفي فتح الباب لناقدا للولوج إلى ميادين معرفية وعلمية بعيدة - ظاهرياً - عن النقد الأدبي عموماً، وبحسب هذا الولوج نجد أصدقاء لنظريات مجاورة للنقد، فنجد الذكاء الاصطناعي، ونظرية الكوارث، فضلاً عن نظرية الفوضى.

وهو لم يكتفِ بالعرض فقط لهذه النظريات، إنما حاول جاهداً أن يستثمرها في بعد إجرائي مباشر للنصوص، وهو ما يعطي صلابة معرفية لمشغله.

والأهم من ذلك أنّه لم يتوقف عن مزاجية التوجهات الحديثة، والنظريات العلمية مع مقارباته للمنجز التراثي، فنراه يصرح بأن المفاهيم مرتبطة بمزاج ثقافي تنتج فيه، وكما تتمكن هذه المفاهيم من مواكبة التطورات، كان لزاماً عليها أن تتغير، وتغيرها يخرجها من حيزها الثقافي لتتماشى وطروحات العصر الحديث، وما

الفصل الثالث

فيه من تطورات على مستوى النظرية والتطبيق، لذلك حاول أن يغير من مصطلحات النقدية العربية مثل الاستعارة والكناية وغيرها ليضع بديلا يتسم بالشمولية مثل الشعب والترابطية^(١).

إنّ هذه الشمولية في نتاجه لا تتم إلا تحت شرط معرفي يحدده مفتاح، وهو أنّ نكون على وعي بما يقدم معرفيا، أي أن نقف على منطق النظريات، حتى نلاحظ الاختلاف والتشابه بينها، وهو ما يمكن النقاد من معرفة الحدود الفاصلة بين مختلف النتائج العلمية، ويمكننا أيضا من تحديد البعد الثقافي الذي أنتجت فيه هذا النظريات، وفي هذا يذكر مفتاح "أبيت إلا أن أدلّ على الأسس التي تعتمد عليها حتى يتسنى للقارئ أن يقبل عن بينة، أو يرفض عن بينة، لأن غياب الخلفيات والنظريات والمناهج كثيرا ما أدى إلى مباحكات لفظية واهية الأسس عديمة الجدوى، أو إلى قبول متعصب أعمى"^(٢)، ولهذا فائدة عظيمة، إذ من خلالها نتمكن من استيراد المفاهيم والمصطلحات ومحاولة تكييفها بحسب نموذجنا الثقافي، وهو ما يجعلها نظريات منتجة، فإذا أخذناها من دون معرفة منطقتها و أصولها البنائية، لن نتمكن من تفعيلها، كيما تكون منتجة في الثقافة العربية.

١-الدينامية ونظرية الكارثية - لحظة التأصيل

تأخذ الدينامية مساحة واسعة من اشتغال مفتاح النقدي نظرية وتطبيقا، ويعطيها تعريفا مقتضبا لكنّه مجمل فهي "التحول والانتقال من حال إلى حال في

^١ - ينظر: من القراءة إلى التنظير: محمد مفتاح، إعداد وتقديم د. أبو بكر العزاوي، شركة والتوزيع المدارس، الدار البيضاء- المغرب، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م : ١٠٥.

^٢ - دينامية النص تنظير وإنجاز: د. محمد مفتاح، نشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، بيروت-لبنان، ط٣، ٢٠٠٦: ٥.

الفصل الثالث

(خطية) أو دورية أو (انكسار)^(١) فما يشغله هو (التحول) و منطقته، أي كيف يُنجز فعل التحول؟ وما القواعد الضابطة للمادة المحولة؟ والسؤال الأهم هو إلى ما تتحول الظاهرة؟ وهل ما تتحول إليه ضمن حدود التنبؤ؟ أم هل هو مما لا يُتنبأ به؟.

وانهمام مفتاح بالدينامية جعله يستحضرها على مستويين الأول : النقد والمنهجية النقدية التي استثمرت الدينامية، والثاني : الأدب بوصفه ظاهرة إنسانية تتبني بحسب هذه الدينامية فهي من توفر للنص حالة النمو، على مستوى التكوين، والتلقي.

ومن خلال المعطى العلمي الذي يؤسسه مفتاح نجده يستحضر الكثير من المفاهيم "مثل النمو والحوار والتناسل والصراع والحركة والسيرورة والانسجام وهذه المفاهيم ترجع كلها إلى مقولة جامعة هي الدينامية"^(٢) وإقراره بأنها مقولة يعني أنه يضعها قالباً طبيعياً في الإنسان، يُدرك ويدرك بواسطتها، وهو يلحظ ذلك في معظم النظريات التي وظفت الدينامية.

ومن هذه النظريات النظرية الكارثية، وهي من النظريات ذات المنزع الفوضوي، أي أنها تهتم بالكيفية التي تتحقق بها الكوارث، بالاستناد إلى متغيرات صغيرة، فهي تخالف مقتضيات الخطاب العلمي الذي يؤكد على أن معرفة الشروط الابتدائية لأي ظاهرة يؤدي حتماً إلى معرفة ما ستؤول إليه.

^١ - دينامية النص تنظير وإنجاز : ٣٩.

^٢ - م . ن : ٧.

الفصل الثالث

وقُدمت نظرية الكارثية بأنها "طريقة رياضية لعلاج الفعل المستمر الذي ينتج النتائج (غير المستمرة) المتقطعة"^(١)، وهي تتخذ من نظرية الفوضى نموذجاً لها، إلا أنها تعالج الظواهر بحسب فرض محدد وهو أن النظم التي يُفترض أنها ذات استقرار ينتج عنها تغير كارثي غير محسوب، غير متنبأ به، ولذلك تكون الدينامية حاضرة فيها بوصفها تحولا غير متنبأ به، وهو ما نجده في نظرية الفوضى من أن ظواهر الكون الفوضوية عصية على التنبؤ، ونظرية الكارثية تقدم الاحتمالات التي يمكن أن تكون عليه الظاهرة من خلال معرفة الشروط الابتدائية.

ولهذه النظرية إمكانيات تطبيقية متعددة لعل التحليل النفسي قد وجد فيها ما يدعم توجهاته، فسلوك الوعي المستمر ينتج عنه فعلا سلوكيا يعد كارثيا، ومصدر هذا السلوك الكارثي هو الفوضى أو اللاشعور.

يحدد مفتاح أثر نظرية الكارثية في إظهار ما تتطوي عليه نظرية غريماس من إشكاليات معرفية^(٢)، إلا أن مفتاح يتجاوز هذه الإشكاليات محاولا التعريف بالأسس العلمية لهذه النظرية. وهو يحدد مرحلتين يصفهما بالجوهريتين لهذه النظرية^(٣):

الأولى - مرحلة روني طوم : والذي حدد مجموعة من المبادئ السيميو-لسانية حاكمة لمشروعه في الكارثية، وهذه المبادئ^(٤) :

^١ - نظرية الكارثة : د. شاهر النهاري ، جريدة الجزيرة، العدد ٣٥١ في ٢٠/١٠/٢٠١١ الرياض - السعودية.

^٢ - دينامية النص تنظير وإنجاز : ١٣.

^٣ - ينظر : م . ن : ١٣.

^٤ - م . ن : ١٣.

الفصل الثالث

- ١- اختزال المفاهيم اللسانية إلى مورفولوجيا.
- ٢- اختزال كل مورفولوجيا إلى نظام من الانقطاعات الكيفية في فضاء معتمد.
- ٣- كل موضوع أو كل شكل فيزيائي يمثله مركز جذب *lattracteu* ضمن نظام دينامي في فضاء من المتغيرات الداخلية.
- ٤- وسيلة الإدراك الأساسية هي الحواس.
- ٥- لكل كائن تفرده وشكله.
- ٦- الشكل يحكم الموضوع.

إلا أن محمد مفتاح لا يعطي لهذه المبادئ حقها في التعريف والبيان، مما يجعلها غامضة وربما مولدة للتناقض. لكنّه يعقب منتقدا روني طوم بأنه في هذه " الاستراتيجية الكارثية تسلك في انجازها التحليلي تحديد الظاهرة بوصفها مورفولوجيا ذات انقطاعات كيفية، فإنها لم تزد أن عمقت ما فعل (بروب) في مورفولوجيته، و(كريماص) في مريعه، وما قام به آخرون من اكتشاف ثوابت"^(١)، وهذا النقد يفترض قضية مهمة وهي أن نظرية الكوارث لا ترتبط باكتشاف الثوابت، لأن تحديد الثوابت يؤدي إلى إمكانية التنبؤ، وهو ما تعارضه هذه النظرية أصالةً.

يقدم مفتاح لبّ نظرية الكارثية بقوله "همّ النظرية الكارثية -إذن- هو البحث عن (الاستقرار) و(التحول) في (آن واحد)، فمركز الجذب *lattracteu* يجب أن يحافظ عليه بالإبقاء على استقرار البنيوي ليحصل الانسجام ويُدرك الموضوع"^(٢)، وهذا يرتبط بما قدّمناه عن الجاذب العجيب، والذي يكتنز على فعلين متضادين في أصل وجوده، وهما (الاستقرار/التحول) ضمن الشرط الزمني للتحقق، فالنظام يسعى للمحافظة على حالة الاستقرار، وهو ما يولد الانسجام، وعليه يمكن لنا أن ندرك

^١ - دينامية النص تنظير وإنجاز: ١٣.

^٢ - م . ن : ١٤.

الفصل الثالث

الموضوع، أما التحول فيفترض عكس ذلك، إذ يكون الاستقرار خلخلة، والانسجام عشوائية وتشعبا، وبذلك يكون فعل الإدراك في موضع الشك في إمكانه، وعليه انفلت الموضوع من إمكانية التنبؤ.

ويجد مفتاح أن تقاربا يمكن أن يولد من دمج الكارثية مع حدود المربع الغريماسي، فالاستقرار الذي ينشئ الانسجام يتماثل مع النفي الكيفي الذي ينشأ من سلب لمقوم واحد بين طرفين يشتركان في عدد من المقومات كما في مثال التضاد بين (رجل/امرأة)^(١). وهو ما يحدث مع النفي الحرمانى أيضا، والذي يسلب مجموعة من المقومات ويترك مقوما واحدا للاشتراك كما في مثال (رجل/عجلة)^(٢)، وهذه الحالة المتغيرة للمقومات المعنوية هو ما يسميها بـ(الكوارث الأولية)^(٣) ضمن النفي الكيفي، ويوسم النفي الحرمانى بوصفه كارثة، ويضيف نصا يشير فيه إلى إمكانية انتقاء مركز الجذب في لحظة التحول الكارثي وفي حالة التشعب القصوى، مما يولد مركز جذب آخر^(٤).

إذا التحول والاستقرار هما الضامن لوجود الدينامية، والدينامية هي من تجعل من النص في حالة النمو والتناسل " ومهما يكن فإن الأحداث (النفي الكيفي) و الكوارث(النفي الحرمانى) هي جوهر دينامية النص، فيها ينمو ويتناسل"^(٥).

الثانية- مرحلة جان بتيطو - كوكوردا :

١ - ينظر: دينامية النص تنظير وإنجاز : ٩.

٢ - ينظر: م . ن : ٩.

٣ - ينظر: م . ن : ١٤.

٤ - ينظر: م . ن : ١٤.

٥ - م . ن : ١٤.

الفصل الثالث

يعتمد مفتاح على كتاب بيتطو (مجموعة القوانين المحددة للمعنى) وبنوع من الاختزال المخل يقدم مفتاح قضيتين جوهريتين في هذا الكتاب هما الدينامية والمورفولوجية.

١- الدينامية: يقدم الفرضية الرئيسة التي تحدد العلاقات الأولية التي تشكل مادة الدينامية بقوله " والفرضية الأساسية هي أن هناك بنية عاملية ذات نماذج أولية هي المورفولوجيا العلاقية الأولية التي تتحمل أدوارا دلالية كلية في إطار تحويل نموذج بنيات"^(١)، وتتصف هذه البنية بكونها بنية "مسقرة وشمولية وثابتة"^(٢)، هذا الثبوت هو من يحقق الانسجام ضمن مركز الجذب، ولكنها قابلة للتحويل، والتوالد، مما يعطيها الطابع الدينامي.

٢- المورفولوجيا: تركز المورفولوجيا على العلاقات بين العوامل، والدينامية هي تحول ينتج عن متغيرات ربما لم تلحظ بشكل مباشر، مما يجعل البنية العاملة تنفي مركز الجذب فيها وتخلق مركزا مغايرا، فالدينامية هي العلة المادية للبنية، والمراد من العلة المادية هي "التي لا يلزم عن وجودها بالفعل وحدها حصول الشيء بالفعل"^(٣)، وهذا يرتبط بدينامية المادة التي تمثل مركزا للحركة من دون تصور وجود معلولها، ولذلك عدّ مفتاح الدينامية علة مادية.

ما يجب أن نلاحظه هو الفارق الذي يضعه مفتاح بين ما يجري على البنية من (حادثة) تضفي على البنية تغيرات معينة، وذلك ضمن فاعلية السلب والإضافة^(٤)، وهناك حالة (الكارثية) والتي تعني "تغييرات كبيرة في البنية الأولى

١ - دينامية النص تنظير وإنجاز : ١٦ .

٢ - م . ن : ١٦ .

٣ - م . ن : ١٦ .

٤ - ينظر: م . ن : ٢٤ .

الفصل الثالث

فنتشعب إلى أنواع عديدة^(١) هذا النمط الثاني هو النمط الفوضوي، وهو ما يقع ضمن اللامتنبأ به. والحالة الأولى تكسب البنية استقرارها، والثانية تدعم الاستقرار، وهذا ما يطبقه مفتاح على اللغة، وعلاقتها بالمحيط، فضمن الحالة الأولى نجد اللغة والمحيط الثقافي والبيئي في حالة من السكون الاستقراري^(٢)، وتشتغل اللغة ضمن حيز الوظيفة الإشارية، أما الحالة الثانية فهي " منظور دينامي يعتقد أن اللغة والمحيط في تفاعل مستمر ونمو مطرد وتشعب أبدي"^(٣)، هذا التفاعل المطرد له أثر يشير إليه محمد مفتاح بقوله " إنّه من غير الممكن القيام بسيميوطيقا عامة"^(٤)، وهذا ناتج من أصل الدينامية التي أسس لها محمد مفتاح بوصفها عنصرا له أثر تكويني في البنية نفسها، مما يجعلها متغيرة بسبب من تفاعلها الثقافي والبيئي. بل إن محمد مفتاح يضع كل جهود دي سوسير موضع المساءلة، فاللغة ذات النظام المغلق السكوني هي تصور عقلي مجرد، إذ لا يمثل الواقع إلا في جزء محدد، وما يخفى هو الجزء الأكثر واقعية وهو أن النظام منفتح بلا نهايات بفعل الدينامية، وإذا كانت اللغة بهذا الوضع التفاعلي الذي يجعلها ذات طابع نسبي خصوصي بتأثر الثقافة التي ترتبط بها اللغة، فإن من الأولى أنه النظم السيميولوجية بمجملها ترتبط بهذا الوضع الدينامي، وعليه أنها تؤسس خصوصيتها ضمن ميدانها البيئي، والذي يفترض بحسب مفتاح عدم قابلية التأسيس لسيمولوجيا عامة.

١ - دينامية النص تنظير وإنجاز : ٢٤.

٢ - ينظر: م . ن : ٢٤.

٣ - م . ن : ٢٥.

٤ - م . ن : ٢٥.

الفصل الثالث

وهناك نقد وجه لمفتاح من الباحثة سعاد بن ناصر كون يقدم نظرية الكارثية من دون تمييزها من نظرية الفوضى، فتصورت أنه يتحدث عن نظرية الفوضى، وقد أسماها نظرية الكارثية^(١)، وهو وهم من الباحثة، فالكارثية فرع من الفوضى.

٢- حضور نظرية الفوضى : النظام من الفوضى

يمثل كتاب محمد مفتاح (المفاهيم معالم : نحو تأويل واقعي) رؤية نقدية مهمة في المشغل النقدي العربي؛ لأنها قدمت قراءة تستند إلى مغايرة معرفية، فالمنطق الحاكم للتوجه النقدي في هذا الكتاب يغادر المنطق الأرسطي إلى منطق التداخل والتدرج، وهو المنطق الغائم أو الضبابي، منطق لا يعتمد على الطابع الثنائي (إما/أو)، بل يتأسس على نمط الاتصال بين الطرفين مما يجعل العارضة (/) التقابلية فاقدة لقيمتها.

فالمفاهيم عند مفتاح ليست حدودا قهرية، لأن "التحديد الجامع المانع عسير الوجود"^(٢) من جهة مفارقتها لحدوده الزمنية، فالجامع المانع لازمني، مما يجعله يقينيا ثابتا، لا يكون إلا كذلك، وعليه يجد مفتاح أن المفاهيم لا تتصف بالإطلاق ف "ما هو متيسر هو التحديد القائم على العلائق والوظائف"^(٣) وهي ذات تغير مرهون بالحيز الظرفي الذي تتولد فيه.

١ - ينظر: نظرية الفوضى وتمثلاتها في الرواية الجزائرية المعاصرة: سعاد بن ناصر، جامعة الأخوة منتوري، كلية الآداب، قسم الآداب واللغة العربية، أطروحة دكتوراه، ٢٠٢٠: ١٠٣.

٢ - المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي: محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، بيروت-لبنان، ط٢، ٢٠١٠: ٧.

٣ - م. ن. ٧.

الفصل الثالث

ويضع مفتاح مصادر هذه المفاهيم تحت المساءلة التصنيفية، فهو يرى أن مصدر المفاهيم، وبالنتيجة مصدر المعرفة، أو لنقل ما يعطيها مشروعيتها، العقل؟ أو الحدس؟ أو مصدرها التجربة وحدها؟^(١)، ليضع مفتاح العقلاني والتجريبي موضع المنطق الأرسطي، فكلاهما يؤسس للمفاهيم اليقينية الثنائية، ليجعل من الحدس طريقاً مؤسساً للمعرفة والمفاهيم، وهذا ما نجده في بعض الكلمات التي يستعملها مفتاح يقول " فتركنا لخيالنا أن يغامر بالتقسيم والتصنيف... "^(٢)، وقوله " يخيل إلينا أن قراءة النص الشعري... "^(٣)، وعلى ذلك تكون مفاهيمه التي يؤسسها لا تتصف بالإطلاق، وهي بذلك قابلة للتحول، إنه يستثمر الدينامية في الحدود المنهجية، مما يجعل المنهج، وهو أداة الاشتغال النقدي خاضعاً لفعل التحول، مما جعل طبيعة المفاهيم عنده ليست حدوداً قهرية، إذ تتصف هذه المفاهيم بطابعها الخطي الموروث عن أرسطو "الذي ظهر عجزه وقصوره عن تناول الكائنات والكيانات والظواهر اللاخطية"^(٤) والتي تنفلت من حيز التنبؤ، وهذا ما جعل من المنطق الغائم أو المتداخل متكاً معرفياً لمفتاح، فوظف "بدائل أخرى مثل طريق المقارنة التي لا تتأسس على منطق إما وإما، أو هذا أو هذا، ولكن على منطق هذا ولا هذا، وأكثر أو أقل، مما أدى إلى القيام بتدرج المفاهيم وترتيبها"^(٥) إن التدرج يتجاوز فعل الانغلاق في أي نظام، وهو تجاوز لتصورات دي سوسير للنظام اللغوي، إذ يفتح النظام اللغوي في لحظة الخروج عن الثنائية.

١ - المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي: ٨.

٢ - م . ن : ١١.

٣ - النص من القراءة إلى التنظير : ١١٠.

٤ - المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي : ١٠.

٥ - م . ن : ١٠.

الفصل الثالث

ومصدر المفاهيم عند مفتاح، أو طريق تحقق المعرفة يذكره بشكل مباشر بقوله "التجأنا إلى حسنا المشترك الذي هدانا إلى المفاهيم التحليلية التي اقترحناها؛ وهي مفاهيم حسية تجريبية لأنها استُقيت من معطيات حسية تجريبية، وهي النصوص اللغوية التي تتلقاها الحواس البصرية والسمعية، ومن ثمة فهي جزئية وليست مطلقة"^(١)، فالحس المشترك مع التجريب المباشر الحسي هما دعامة تحديد المفاهيم، وعلينا أن ننبه إلى أن الخطاب العلمي المؤسس للنظرية النقدية لم يجعل من الحس المشترك والحدس بمجمله مصدرا حقيقيا للمعرفة، فهو لديه مما ينتج الفوضى في العلوم، إذ يسمح للخيال في الحضور.

ومن المفاهيم التي أخضعها مفتاح لمنطق التدرج والضبابية هو مفهوم الحقيقة^(٢)، فيتجاوز منطق الثنائيات الحدية مثل "النص اللانص، المعنى الحرفي المعنى المجازي، المعنى الواضح المعنى العمي؛ الاستقراء/الاستنباط، النص المسطح/النص المركب (...). إلى رباعيات أو سداسيات بل إلى ثنائيات فكان أن اقترحنا النص الكوني، والنص الطبيعي، وشبه النص، والنص، والتناص، والنصنة"^(٣) وهذا من تأثير الدينامية التي يسعى مفتاح إلى استثمارها، أو يحاول جاهدا أن يتلمس حضورها على مستوى المنهج والمادة.

إنّ هذا الانفتاح في الإطار المعرفي للنقد يجعل من حدود النظرية النقدية ذات المنزع العلمي تكشف عن عقمها النظري والتطبيقي، وذلك من خلال تحديد المفاهيم ضمن حدودها النسبية لا الإطلاقيه، فإذا كانت العلامة السوسيرية خاضعة لمنطق الثنائية من حيث نوع مكوناتها، فهل يمكن لنا الحديث عن شبه العلامة،

١ - المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي: ١١.

٢ - ينظر: م. ن: ١٢.

٣ - م. ن: ١٢.

الفصل الثالث

وشبه الدال وشبه المدلول، وأيضا مع كون العلامة ولا علامة، بحسب المنطق الغائم؟ ومع هذا التدرج والضبابية هل يمكن لنا الحديث عن نظام لغوي؟ .

في الفصل الرابع من الكتاب يتحدث مفتاح عن (النص : الحقيقة المشيدة) يفرق بين الحقيقة المطلقة، وهي معطى قلبي يجهد الإنسان نفسه لخلق مطابقة لمفاهيمه معها، وهناك الحقيقة المشيدة، والتي ترتبط بالإنسان وظرفيته، لذلك هي تشيّد من قبل الذات، وهو ما يجعل منها - الحقيقة المشيدة- تجنح إلى التدرج بفعل الذات المُشيّدة للحقيقة^(١).

ينقسم الفصل إلى أربعة مفاصل رئيسية، وكل مفصل منها يتشعب إلى مجموعة من الموضوعات^(٢) وهي كما يلي:

١- الحقيقة المشيدة: ويقارب فيها ثلاثة اتجاهات

أ- تأثير برس.

ب- الذرائعون: وفي هذا المحور قارب موضوعين الأول : طرق الإدراك، والثاني: تشييد الحقيقة.

ج- نظرية العماء: وقد قارب فيها ثلاثة موضوعات هي:

١- الانتظام والعماء ٢- النظام المتخفي ٣- النظام من الفوضى.

٢- الحقيقة المطابقة:

أ- حقبة ما قبل الحداثة.

١ - المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي: ٩٧.

٢ - ينظر: م . ن : ٩٨-١١٧.

الفصل الثالث

ب-حقة الاتجاهات الوضعية التجريبية : وفيه الاتجاه المنطقي والاتجاه التجريبي، وفي هذا الأخير قارب الاتجاه البيولوجي واتجاه علم النفس المعرفي.

٣- الحتمية والحقيقة:

أ- مفهوم الحتمية والمؤرخ الثقافي أو المحلل.

ب- مفهوم الحقيقة والمؤرخ أو المحلل.

ج- المؤرخ أو المحلل وثقافة ما بعد الحداثة.

٤- حقيقة الاستجابة:

أ- التفاعل الحضاري.

ب- الفطرة البشرية.

والفصل محوره (الحقيقة) وكيفية تعاطي الاتجاهات المعرفية معها، وعلى الرغم من أن ما يهمنا تحديدا هو النقطة (ج) من القسم الأول، إلا أننا لا نعدم حضور مفاهيم نظرية العماء في ثنايا الفصل.

إن ظهور نظرية العماء^(١) - الفوضى، في هذا الكتاب بوصفها نظرية، جاءت في ثلاث صفحات فقط (١٠٢-١٠٣-١٠٤) من الكتاب، وهي مؤشر على نوع من الاختزال الذي أجراه مفتاح على هذه النظرية، مع أن مصطلحات النظرية ومفاهيمها، مثل اللاخطية، والدينامية، والتشعب حاضرة في عموم الكتاب، مع ملاحظة أنها من دون توضيح، إنما هي حاضرة أيضا في كتبه جميعها، مع محافظتها على الطابع الاختزالي، وهو اختزال مخل.

١ - يعتمد محمد مفتاح على كتاب كاثرين هيلز (نظرية العماء والنظام: الدينامية المركبة في الأدب والعلم)، وقد ترجم كلمة (chaos) بـ(العماء) والباحث يلتزم بهذه الترجمة في حدود النص المنقول من الكتاب، وفيما عدا ذلك نذكر الفوضى.

الفصل الثالث

ينقل مفتاح تحت عنوان (الانتظام والعماء) حالة المفارقة التي تنطوي عليها نظرية الفوضى، فالظواهر الفوضوية لا يمكن التنبؤ بها، فالنتائج لا تكون متوافقة مع الشروط الابتدائية، وهذا بالضد مما أسسه الخطاب العلمي، الذي يؤكد أن معرفة الشروط الابتدائية لأية ظاهرة يمكن الذات من معرفة ما ستكون عليه الظاهرة في المستقبل. اكتشف الباحثون وجود ظواهر لا تخضع لهذا المبدأ، وقد طُورت هذه الحالة لتتبع الظواهر التي يُعتقد أنها خاضعة لفكرة التنبؤ، فوجودا أن الظواهر ذات الإمكان التنبؤي هي ظواهر شاذة بالنسبة إلى كم الظواهر الفوضوية، كما أن الخطاب العلمي كما يحقق التنبؤ يلجأ إلى حالة من الاختزال والتبسيط والتي تؤدي إلى إسقاط المتغيرات البسيطة التي لا تلاحظ حتى تُجز حالة التنبؤ، وما قدمته رفرقة الفراشة هو أنه هذه المتغيرات مع التقدم الزمني تؤول إلى نتائج غير متوقعة.

إنّ حالة التنبؤ أصلها افتراض وجود النظام، واكتشاف النظام والنمط العلائقي لمكونات النظام هو الفيصل في إمكانية التنبؤ، ومع الظواهر الفوضوية تعسر على العلم إلى معرفة الصيغة القانونية التي تحكم هذه الظواهر مما جعل الخطاب العلمي يصفها بالفوضى.

لذلك اتفقوا على وجود (انتظام) بديلا عن النظام، وهذا الانتظام يمكن لنا أن نعرفه بعد حدوث الظاهرة لا قبلها، مما جعل منطق الاحتمال هو الفاعل في هذه النظرية.

ومن هذه الحالة التي تنتج مع الظواهر الفوضوية تغيّرت العلاقة بين الذات والموضوع، فبعد أن كانت الذات حاکمة بفعل المنهج على الموضوع أصبحت في حالة ترقب لسيرورة الحدث الواقعي، وهو ما لا يقبله مفتاح بقوله "أن هذا التيار بالغ

الفصل الثالث

في تدوييت المعرفة والتنقيص من الواقع^(١)، وهذا النص مريك جدا وفيه حكم لا يتوافق مع طروحات نظرية الفوضى، فاللاخطية والتعقيد والتشعب صفات الظواهر الواقعية، تفقد الذات أمامها القدرة على التحكم بالظاهرة الواقعية، وهذا ما ارتكزت عليه تأويلية غادامير.

إن فعل التدوييت الذي يذكره مفتاح يتناسب وطروحات الخطاب العلمي الذي يؤكد على الفصل بين الذات والموضوع، وأصل هذا التدوييت معرفيا هو طروحات بيكون وديكارت ونيوتن، الذين ركنوا إلى قدرة العقل على تفسير كل شيء، بل والقدرة على التحكم بالظواهر، وهذا تحديدا ما نقضته نظرية الفوضى وظواهرها التي تنفلت من التدوييت العلمي.

ومصدر هذا الخلط عند مفتاح هو مصطلح (الانتظام الذاتي)، إذ ربما اعتقد أنه متعلق بالذات الخارجية، والحقيقة أن المراد منه أنه صفة متعلقة بالموضوع الواقعي لا الذات الخراجية، فهو يصف حالة الظواهر في التوجه نحو الاستقرار بعد سيرورة من التقلبات العشوائية.

ويؤكد مفتاح على نمط من التفاعل الحادث بين الذات والموضوع^(٢)، يرافقه تفاعل آخر يحدث بين الانتظام والفوضى^(٣)، وهو جوهر الظواهر الفوضوية التي تحمل في ثناياها الاستقرار/اللاستقرار، وهو ما يولد الدينامية، فعل التحول والانتقال بين الطرفين المتضادين. فالفوضى "ترى أن الاختلاط أخصب من النظام، واللايقين

١ - المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي : ١٠٢.

٢ - ينظر : م . ن : ١٠٢.

٣ - ينظر : م . ن : ١٠٢.

الفصل الثالث

أفضل من أفق الانتظار والانفتاح أحسن من الانغلاق، واللامحدود أهم من المحدود"^(١).

يؤكد مفتاح هذا التواشج بين الانتظام والفوضى بنصين ينقلهما عن كاثرين هيلز:

١- "نظرية العماء إما أن تؤدي إلى النظام كما تفعل في الأنساق ذات الانتظام الذاتي وإما أن تملك بنيات عميقة من نظام محايت لها"^(٢).

٢- "لب نظرية العماء هو الاكتشاف الذي يرى أن ما يختفي في لا تنبئية الأنساق العمائية هو بنيات عميقة منتظمة"^(٣).

إن ما تؤكد عليه نظرية الفوضى هو أنها لا تلغي وجود ظواهر وأنظمة ذات إمكان تنبؤي، إنما تؤكد على أن هذه الأنظمة قليلة بالنسبة إلى الظواهر الفوضوية، ولذلك فهي لا تنفي وجود قانون يحكم الظاهرة، إنما تؤكد على عدم قدرتنا على حيازته، وعلى هذا الأساس صُنفت الظواهر على أنها فوضوية لا نظامية، وما تريد أن تصل إليه هو وجود حالة الانتظام غير المكتشف، وهو ما يبطل التنبؤية، وهو ما ذكرته هيلز بأنه أنساق عمائية فاعلة بحسب بنية محايتة، وبما أنها تقر ببنويتها فهي منتظمة، إلا أنها خارج سلطة المنهج العلمي.

إنّ هذا الانتظام البنيوي المحايت والعميق هو ما يصفه مفتاح بـ(النظام المختفي)^(١)، وهذا الاختفاء هو ما يجرح العقل العلمي، فهو مختلف عنه، على الرغم من حضوره وفاعليته.

١ - التشابه والاختلاف نحو منهاجية شمولية: د. محمد مفتاح، نشر المركز الثقافي العربي،

الدار البيضاء-المغرب، ط١، ١٩٩٦: ٢١.

٢ - المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي: ١٠٢.

٣ - م . ن : ١٠٢

الفصل الثالث

ويجيب مفتاح هنا عن سؤال مركزي وهو ما الذي تدرسه نظرية الفوضى؟ وينقل عن هيلز ما يأتي: "ونظرية العماء تدرس أي سلوك غير حقبي غير قار ضمن أنساق دينامية غير خطية حتمية"^(٢) وأظن أن الترجمة قد أسقطت كلمة غير عن (الحتمية) فاللاخطية لا يمكن أن تتوافق والحتمية ذات النزع الخطي. وهناك أمر آخر وهو أن نظرية الفوضى تدرس النظم القارة أيضا، كاشفة عما يصيبها من تعقيد وتشعب، فهي تفترض أن الطابع الفوضوي هو الأصل ولعل خير مثال هو مشكلة الأجسام الثلاثة، فالاستقرار في النظم وليد الخطاب العلمي لا الظواهر نفسها، وهذا ما كشفته هذه المشكلة.

يشير مفتاح إلى قضية مهمة وهي الدينامية في الظواهر، أي التحولات ويؤكد على أنها "لا تتم في خطية، وإنما هناك أصناف من التحولات والتفردات والانقطاعات تكون محكومة، مع ذلك، باليتي الطي والنشر"^(٣)، ويؤكد أيضا على أن الطي والنشر مع الجاذب العجيب والتناظر التدريجي هم من يتكفلون بإثبات وجود النظام المختفي^(٤)، ويعرّف الجاذب بأنه مركز "يشد إليه كل المسارات المتقاربة فتتجمع فيه (آلية الطي)، وكونه غريبا لأن له تبعية حساسة للشروط الأولية، لأن هذه الشروط الأولية هي التي تتولد عنها المسارات المختلفة المتشعبة (آلية النشر)"^(٥)، وهي حالة الجمع بين المتضادين في مركز واحد وهو مصدر الغرابة والعجب. والخطاب العلمي يصف هذه الضدية بالموت الحراري، وبالاستناد إلى

١ - ينظر : المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي: ١٠٢.

٢ - م . ن : ١٠٢.

٣ - م . ن : ١٠٢-١٠٣.

٤ - ينظر: م . ن : ١٠٣.

٥ - م . ن : ١٠٣.

الفصل الثالث

بريغوجين الذي أكد على "أن هذه الانشطارات تؤدي بالعالم إلى التعقيد وليس إلى الموت، وهي محكومة بمبدأ الانتظام الذاتي، مما يؤدي إلى الانتظام"^(١)، وهذا النص يؤكد على فعل التحول إلى حالة مغايرة ومفارقة لما كان من جهة، كما أنه يؤكد أن الانتظام الذاتي مرتبط بالظواهر المعقدة التي تتجه نحو الاستقرار من جهة ثانية.

ثم يذكر مفتاح ما يلي " يتضح مما سبق أن الجوانب الغريبة والتناظرات التدريجية وما تولد عنها من مفاهيم مثال الطي والنشر والمماثلة أن هناك تكاملاً بين العماء والانتظام، والفوضى والنظام، والخطية واللاخطية، والتنبؤ واللاتنبؤ، والتشابه والاختلاف، واليقين واللايقين"^(٢)، تؤشر على هذا النص ما يلي :

١- أن مفتاح يفصل بين الظواهر الضدية.

٢- أن حضور المتضادات دليل على التكامل.

ويعتقد الباحث أن هناك مشكلاً معرفياً في هذا التكامل، فأصل التكامل ناتج عن الخطاب العلمي، وهو يركز على وجود حالة الكمال في النظام، ونظرية الفوضى لا تقبل بفكرة الكمال أصالة، فهي لا تؤسس للنظام، ووجود الأطراف المتضادة مؤشر على حالة النقص، فمبدأ اللايقين الذي أسسه هايزنبرغ جاء لدفع اليقين لا التمازج معه بوصفه مضاداً. وحالة النقص هي من تبطل إمكان التنبؤ، فالخطأ بحسب إدوارد لورنتز هو من يتحكم بحالة الطقس، بوصفه ظاهرة فوضوية.

النظام من الفوضى هي المحطة الأخيرة في التأسيس النظري للفوضى، ويشير فيه مفتاح إلى التأثير الذي أحدثته هذه النظرية مما دفع الباحثين تطبيق فروضها الرئيسية على الفنون، وأهمها النص الأدبي، ويذكر أن نمطا من النصوص

١ - المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي: ١٠٣.

٢ - م . ن : ١٠٣.

الفصل الثالث

مثل (الروايات الفكتورية) استلهمت مقولات البيولوجيا^(١)، ولعل النص الأبرز الذي يذكره مفتاح هو رواية (الإكراه) لهنري جيمس كانت "سياحة في العماء"^(٢). إلا أن مفتاح هنا لا يبين هذا التأثير بل يذكره فقط نقلا عن كاثرين هيلز من دون تعقيب، فلا ينقل لنا مثلا كيفية هذه السياحة التي خلقها جيمس في روايته؟، لذلك يذكر كما في النص الآتي : "ويجد القارئ في هذا الكتاب إبداعات فيها بعض من مبادئ النظرية العمائية ومفاهيمها، كما يجد دراسات جادة وظفت بعض تلك المبادئ مثل التعقيد، والبنىات المنشطرة، وعدم الاستقرار، والتشعب، والتشويش والخمود، والانتظام الذاتي، واللاخطية"^(٣)، و ربما أنه من الأكمل لو نقل لنا نموذجا عن التعقيد أو غيره، مما يجعل المفهوم أكثر نضجا.

إنّ مفكري مابعد الحداثة يشيرون إلى ترابط مفاهيم نظرية الفوضى وخطاب ما بعد الحداثة، ومفتاح يشير إلى ترابط بين التحليل بحسب منطلقات نظرية الفوضى والنصوص ما بعد الحداثيّة على المستوى الشعري والسردى، "فرواية وليام مارشال لها بنىات فوضوية منشطرة تولدت عنها بنىات أعقد منها ولكنها توحى أن وراء كل هذا نظاما، أو أنه يمكن استخلاص النظام من الفوضى"^(٤)، وهذا النص أيضا لكاترين هيلز.

ويذكر مفتاح قضية مهمة يقارب فيها بين النصوص الأدبية والظاهرة الفوضوية، إذ تؤكد نظرية الفوضى " أن الكون نشأ من شيء ما (أو من فراغ) فكذلك

١ - ينظر : المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي: ١٠٤.

٢ - م . ن : ١٠٤.

٣ - م . ن : ١٠٤.

٤ - م . ن : ١٠٤.

الفصل الثالث

يمكن تشييد معاني ووقائع من شيء ما (أو من فراغ)^(١)، ويقصد بـ(شيء ما والفراغ) الحالة الأولى للكون، من دون أن يبين لنا سمات هذا الشيء، فهذا الأخير يقع ضمن المجهول، وهو تصور مرتبط بمقولة الهيولى، فهو يشير إلى مادة أولية يمكن لنا أن نخلق منها أو نحولها إلى معنى مخصوص. وهذا تصور قاصر عن فهم الظاهرة الفوضوية، فالنصوص الأدبية إذا كانت ظواهر فوضوية فلأنها لا تلتزم بما يفرضه النظام اللغوي، فهي تكسر حالة التواصل فتغيّر من طبيعة اللغة ذاتها، وهذا ما يؤكد مفتاح نفسه بقوله " أن النسق العمائي يولّد معلومات غير محدودة فكذلك النص، خصوصا النص الأدبي (الذي هو حمّال لمعان غير محدودة) ومنها أن نظرية العماء اهتمت بتحليل الاضطرابات والدوامات فكذلك أن النصوص التي هي ناشئة في ظروف ما بعد الحداثة تعمل عمل الدوامات التي ينتشر منها الاضطراب العام"^(٢)، وهذا لا يتفق مع ما ذكره في النص السابق، فهنا يشير إلى نسق الظاهرة الفوضوية ذات المنزع الاضطرابي.

٣- من التنظير إلى التطبيق وحضور الفوضى تحليلا

يقارب مفتاح ديواني الشاعر المصري رفعت سلام (هكذا قلت للهاوية، و إنها تومئ لي) تحت عنوان (الفصل السادس: التناص الحقيقة الجمالية) وفيه يبيّن منهاجيته في المقاربة، فهو يضع أولا خطواته المنهجية التي أسس أبعادها النظرية في الفصول السابقة، ونحن سنقتصر على حضور نظرية الفوضى ضمن هذه المنهجية لنرى مدى انطباقها مع ما أسسه.

١ - المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي: ١٠٤.

٢ - م . ن : ١٠٤-١٠٥.

الفصل الثالث

يبدأ مفتاح من علاقة النصوص في ديوان (أنها تومئ لي) فيصنف هذه العلاقات إلى علاقات خطية أولاً، وتأسيساً على فرض أولي أن في النص "ثلاث بنيات مترابطة ومتفاعلة؛ وهي البنية المجردة، والبنية الإنسانية، والبنية الطبيعية؛ وعناصر هذه البنيات لا يخلو منها أو كلها أو بعضها، نص"^(١)، وهذه البنيات ذات طابع شمولي، ويتحقق بينها اتصال وجودي لا انفكاك منه، لأنها تتبع من أصل واحد متعال عليها " على أن فوق البنيات ما هو متحكم فيها ونابعة منه؛ فهي إذن تنتمي جميعها إلى تلك الوحدة التي انبثقت منها"^(٢)، وعليه تتأسس الوحدة الترابطية بين البنيات المختلفة.

وبحسب هذا الفرض التأسيسي تتحقق الخطية التفسيرية للنصوص، إذ " العلاقة بين البنيات ثابتة بين النصوص على المستوى الخطي مهما تباعدت المسافات المادية والمعنوية، وإذا ما ثبتت العلاقة بين القوائد فإن كل قصيدة يمكن أن تفسر بأخرى أو تشرح بها ... فإن كل قصيدة تشترك مع أخرى في بعض العناصر وتختلف في أخرى، ومن ثم يجب تدرج العلاقات وترتيبها"^(٣)، فالخطية التفسيرية مصدرها وحدة المنطلق الثابت، وهذا جوهر البعد الخطي لدى مفتاح، وهذا الرؤية المنهاجية تخص الديوان ومن ثم يمكن تعميمها على القصيدة الواحدة من جهة ويمكن أن توظف في الاشتغال على المنجز الشعري ككل من جهة أخرى. وهذه الرؤية منضبطة من حيث التأسيس والتطبيق المنهاجي وهي لا تخلو من النفس البنيوي، فهي محاولة للكشف عن البنية العميقة التي تتحكم بالنصوص ظاهرياً. والتفسير لنمط العلاقات الخطية بين النصوص بحسب البنية الحاكمة يولد نمطا من

١ - المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي: ١٤٤.

٢ - م . ن : ١٤٢.

٣ - م . ن : ١٤٤.

الفصل الثالث

العلاقات بين النصوص تفسيريا، لذلك رتب مفتاح هذه العلاقات التفسيرية في ست رتب هي^(١):

- ١-التطابق: بين قصيدتين حدّ التناسخ.
- ٢-التفاعل: حالة بين النصوص، وبين عناصر النص الواحد، فكأنما يحدث منطق تكميلي بين النصوص، هو من ينتج التفاعل.
- ٣-التداخل: هو ترابط تداخلي بين النص والنص الذي يليه، لكنه لا يصل حد التفاعل.
- ٤-التحاذي: وهو ناتج عن التفاعل النصوصي، والتداخل، بين النصوص المتجاورة، ويكثر في النصوص الفوضوية.
- ٥-التباعد: حالة من عدم الانتماء المعنوي بين النصوص، فتحدث تشظيات وانشطارات تباعدية مع حالة الاشتراك الفضائي.
- ٦-التقاصي: هو تباعد فضائي وعدم انتماء معنوي بين النصوص.

هذا ما قدمه مفتاح على المستوى الخطي، ثم يأتي المستوى (العلاقات اللاخطية) ثانيا، والذي يقدمه مفتاح انطلاقا من حالة الخطية التفسيرية، فكأنما العلاقة تتدرج من التطابق الخطي إلى الاختلاف اللاخطي، ويتمظهر هذا التدرج إثبات لحالة (تعالق) النصوص، وبحسب ذلك يفترض مفتاح بنية تأسيسية مكونة من ستة عناصر "فإذا احتوى المقيس على ستة عناصر كان متطابقا، أو على خمسة كان متماثلا، أو على أربع كان متشابهها، أو على ثلاثة كان متحاذايا، أو على اثنين كان مشاكلا، أو على واحد كان مضاهيا"^(٢)، فهو يرى أن التعالق يحدث

١ - ينظر: المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي: ١٤٤-١٤٥.

٢ - م . ن : ١٤٦.

الفصل الثالث

بين البنيات الثلاث سابقة الذكر، والنص الأدبي، فالقضية لديه تظهر النص عن البنية، ويؤكدده بمخطط توضيحي يكشف عن ذلك^(١):

نوع العلاقة	الموابع	الجماد	النبات	الحيوان	الإنسان	المجردات	البنية اسم القصيدة
التطابق	+	+	+	+	+	+	قصيدة منهكذالقت للهاوية
التحاذي				+	+	+	قصيدة: حان
التشابه		+	+		+	+	قصيدة: قتيلا
التشابه	+			+	+	+	قصيدة: تهمني

فكل علامة (+) تدل على رتبة من الاشتراك ، وانعدامها يدل على الضد، وينتج عن هذه المقومات المتعلقة بالاشتراك وعدمه، مدى تظهر النص عن البنية التي يفترض مفتاح أنها أسه.

وفي هذا الجاني يبقى مفتاح خاضعا للتوجه الخطي، فالمبحوث عنه هو مساحة الاشتراك التي تثبت الأصل البنيوي، وعليه فإن لا خطيته ليست محور البحث والتحليل، إنما الخطية. فهو لم يكشف عن التعقيد، أو الدينامية، في النصوص، بل نجد إشارة إليها، لكنها تهمل؛ لسبب بسيط هو ان مفتاح يسعى بنيويا لإثبات الخطية التفسيرية.

١ - المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي: ١٤٦.

الفصل الثالث

يرد ف مفتاح هذه الخطية التفسيرية برؤية تصنيفية للنصوص، وتتأسس هذه الرؤية على التدرج بين طرفين متضادين هما (الوضوح / العماء)، فاللغة لديه تتعالى على فكرة التواصل، والتي تستلزم المباشرة المقصدية، لذا يقول مفتاح "يخطئ من يسلم بأن اللغة شفافة، وكذلك يخطئ من يعتبر أن اللغة عماء"^(١)، وهو هنا يتجاوز ثنائية المنطق التقليدي (إما/أو) مستثمرا المنطق الغائم أو المتداخل، ليثبت أن هناك حالة من التدرج بين النصوص، فيكسر العارضة (/) الضدية بين النصين المتضادين (الواضح/العمي).

ينقسم التدرج بين النصوص إلى ستة أقسام :

١- النص الواضح: هو ما كانت دلالاته واضحة، لا تحتاج إلى تأويل، كما في قصيدة (مراودة) من ديوان (أنها تومئ لي).

٢- النص البيّن: وهو النص الذي تقل نسبة الوضوح فيه مما يدفع القارئ إلى الاستعانة بمشؤرات معنوية ومعجمية مثل قصيدة (انطفاء)، فضلا عن عنوانات دواوين الشاعر رفعت سلام (هكذا قلت للهاوية، وإنها تومئ لي، وفوضى الوردة الجميلة)، فتظهر حالة الاحتمال، مع وجود مؤشرات تحدد الراجح.

٣- النص الظاهر: وفيه تتعدد احتمالات المعنى والدلالة، مع قلة المؤشرات الترجيحية مما يدفع القارئ إلى اعتماد المعنى (الأظهر) كما في قصيدة (أرق)، إذ أظهر مفتاح الدلالة الجنسية على غيرها.

٤- النص المحتمل: ويضع مفتاح النص الشعري المعاصر ضمن المحتمل، والذي يعمل الشاعر فيه على تعمية المحور الدلالي فيه، بواسطة طبقات

١ - المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي : ١٤٧.

الفصل الثالث

دلالية أخرى، ويعطي تمثيلاً لذلك بقصيدة (بَيِّنَاتًا)، فمحورها الدلالي الخفي هو الطابع الجنسي.

٥- النص الممكن: في هذا النص يعد توجيه وتحديد المعنى غير مقطوع به، إذ يمكن للنص أن يتعدد في إمكانه المعنوي، مع صدق هذه الإمكانيات، ومثالها قصيدة (دينا)، فمع فتح الدال تدل القصيدة على نشاط دنيوي، ومع كسرهما تكتسب القصيدة بعداً دنيواً.

٦- النص العمي: وهذا النص هو المقابل الضدي للنص الواضح، وما بينهما هو تدرج للمتضادين، إذا فالوضوح والتعمية حاضران في النصوص جميعها من الواضح إلى العمي، مع اختلاف النسبة. ويؤكد مفتاح على أن "هذا النص يقدم مؤشرات عديدة تتداخل فيما بينها وتتشابك حتى تصير عبارة عن متاهة متعددة المسالك فلا يدري الذي يريد أن يخرج منها أية طريق يسلك"^(١) ويقدم تمثيلاً لهذا النص بقصيدة تكشف عن عماها بواسطة مجموعة من الألفاظ (عماء، وهباء، وفوضى)^(٢):

صرخة صخرية مغروسة في مفرق العماء

أنا سيد الهباء

متاهة

مسكونة

بالغامض المضيء

منذور للرمادي الصفيق

مساحة منذورة للغمض الرمادي.

١ - المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي : ١٤٨.

٢ - م . ن : ١٤٨.

الفصل الثالث

إلا أن الإشكال الحقيقي على هذا التدرج وتحديد النص العمي يفتقد للبعد التحليلي الحقيقي، بمعنى، حتى تصنّف هذا النص بأنه ظاهرة فوضوية، علينا أن نتلمس ما حدده مفتاح من سمات لهذه الظاهرة وهو ما يفترض أن يجده في النص، فمجرد ورود كلمة عماء وهباء ومتاهاة وفوضى لا يدل على فوضوية النص، كما أنه لم يكشف لنا عن حالة التحول في النص وهي لبّ الظاهرة الفوضوية، ولم يبين فاعلية الجاذب العجيب، وكذلك الانتظام الذاتي، فضلا عن بيان مستوى التعقيد في النص. ومما يؤخذ على مفتاح أنه لا يعمل على الجانب التحليلي بشكل يستوفيه بكل متطلباته، إنما يكتفي بالتمثيل، وفرق بين إثبات سمات الفوضى في النص العمي تحليلا وبين التمثيل لها؛ ولذلك وسمنا عمل مفتاح في الجانب التطبيقي بالمقاربة النقدية.

يقارب مفتاح نصا آخر هو ديوان الشاعر محمد بنيس (كتاب الحب)، الذي اشترك معه الرسام فاضل العزاوي بمجموعة من اللوحات التخطيطية على امتداد الديوان، فضلا عن تقديم أدونيس، وخصص له الفصل السابع من المفاهيم معالم تحت عنوان (النصنة أو النص المركب: الحقائق المتعددة).

ويصف مفتاح هذا النص "بالتشيت والاضطراب والفوضى في التأليف"^(١)، ثم يذكر هدف قراءته "إلا أننا سنتناول الكتاب بتصورات منهجية معاصرة تحاول أن تستخرج النظام من (الفوضى)، والانتظام من (العماء)"^(٢)، ومفاهيمه التي يتأسس بحسبها التحليل هي "الدليلية ونظرية العماء وعلم النفس المعرفي"^(٣). ويرى الباحث أن الوصف الأول للنص هو حكم مسبق على النص، وعليه هو بحاجة إلى البرهان،

١ - المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي : ١٧٧.

٢ - م . ن : ١٧٧.

٣ - م . ن : ١٧٧.

الفصل الثالث

إذ يجب أن يكون النتيجة التي يجب أن نصل إليها، وبحسب هذه الملاحظة نتساءل هل حقا هذا النص فوضوي؟.

يقسم مفتاح قراءته لكتاب الحب إلى ثلاثة محاور :

المحور الأول - عماء النصنصة: والنصنصة عنده "مركب ذو خصائص ينتمي كل منها إلى مجال معيّن^(١)"، وهي رتبة ضمن أنواع من النصوص اللانص والشبيه بالنص والنص والتناص والنصنصة، ويصف النصنصة " نصا معقدا ومركبا من النص على الحقيقة والنص على المجاز"^(٢)، فهو فضاء تجتمع فيه الكتابة والرسم كما في كتاب الحب، ولذلك أثار مفتاح قضية تجنيس النص، فهل كتاب الحب ديوان شعر؟ وهو ما لا يقبله مفتاح لأن الكتاب يحوي على نصوص نثرية، ويزداد الإشكال عندما نلحظ الرسوم التخطيطية، فهل هي شارحة للنص اللغوي؟ وهو ما لا يقبله مفتاح أيضا، إلا انه يرتضي فكرة النصنصة من دون تجنيس للكتاب، فهو "مجموعة رسوم ونصوص متداخلة متفاعلة بصرف النظر عن السابق واللاحق والشارح والمشروح والأصل والفرع، وبغض النظر عن الرسام والشاعر... إن المرسوم والمكتوب وجهان لعملة واحدة؛ تلك العملة هي خطاب المحبة ونصها"^(٣). ثم يذكر مفتاح بعد عماء النصنصة، الشكل والوظيفة المتعلقة بالرسم والكتابة، ليصل إلى امتياز النصنصة بأن " شكلها يحدد مضمونها، وبنيتها تعيّن وظيفتها؛ إن شئنا قلنا ليس هناك انفصال بين الشكل والمضمون والبنية والوظيفة ... وكتاب الحب من هذا

١ - المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي: ٤٠.

٢ - م . ن : ٤١.

٣ - م . ن : ١٧٨.

الفصل الثالث

القبيل فهو نصنصة لغوية تضاهي نصنصة واقعية؛ أو نص مركب نتج من رحم واقع معقد^(١).

إلا أن التركيب يفرض على القارئ أن يبحث في التداخل بين النصوص التي تشغل فضاء الورقة، مما يعني أننا ملزمون بالبحث عن حدود كل نص، ومدى التداخل، بل يجب أن نحدد مستوى التفاعل بين النص اللغوي والمرسوم، وهنا نقع في إشكال التسمية فالتركيب يفرض لحظة العزل بين النصوص، مما يلغي إمكان النصنصة بوصفها ظاهرة فوضوية، وهذا ما يجب أن يلتفت إليه الباحث.

المحور الثاني- ميتافيزيقا النصنصة : وفيها يلتفت مفتاح إلى التوازي الذي يخلق بين المرسوم والمشعور^(٢)، فكلاهما يبدأ من نواة (رسم/لغة)، ومن ثم تتحول هذه النواة إلى أشكال معينة، أو لنقل سياقات لها دلالات معنوية. وفي هذا يفترض مفتاح أن نمو النص قد اتخذ نمطا من التطور من البسيط إلى المعقد^(٣)، فالنواة الأصل هي الأنموذج البسيط والنصوص اللغوية والمرسومة هي التعقيد، ويرى الباحث أن الأمر على العكس من ذلك تماما، فالنواة التي تمثل حالة الإمكان هي المعقدة، إذ لا يمكن لنا أن نحدد ما لها من بعد دلالي أو معنوي، وما يمكن لنا أن نقوله عنها هو أنها قابلة لأن تكون أو تولّد نصوصا متعددة لها ما يحددها معنويا، فالخط المرسوم في كتاب الحب^(٤)، لا يملك معنى بل هو نواة قابلة لأن تشكل نصوصا، هذه النصوص لها حيز معنوي يمكن لنا أن نحدده، وهذا ما تفرزه رسوم

١ - المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي: ١٧٩.

٢ - م . ن : ١٧٩-١٨٢.

٣ - م . ن : ١٧٩.

٤ - كتاب الحب تقاطعات في ضيافة طوق الحمامة لابن جزم الأندلسي- شعر: محمد بنيس،

رسم ضياء العزاوي، تقديم أدونيس، دار توبقال للنشر، المغرب، ط٢، ٢٠٠٩ : ١.

الفصل الثالث

ضياء العزاوي السبعة. فنظن أن النصوص تطورت من المعقد إلى البسيط، وربما تطورت إلى الأكثر تعقيدا، إذا أخذنا تطور أو دينامية الرسم مع اللغة.

ومفتاح الذي يبدأ من البسيط إلى المعقد لا يخرج عن مقولات الخطاب العلمي الذي أسس للنظرية النقدية ذات التوجه الديكارتية، والذي يستند إليه مفتاح سميوطيقا بورس ومقولاته، فالخط "تطور فانقل من مجرد تخطيط في أيقون على كائن بشري وهذا الكائن البشري نفسه يثير أحاسيس وانفعالات وافتراسات.. وإمكانات واحتمالات ناتجة عما يثيره وجه المرأة من تداعيات وترابطات"^(١)، فالرسوم الأيقونية في تطورها انتقلت من حالة الإمكان إلى التعيين بحسب قانون المشابهة، فأصبحت الرسوم ضمن حيز وجودي معنوي، ومن هنا تتبع بساطته لأنه يمكن ان نحدد لها معنى، وعليه فإننا نرى أن الرسوم تطورت من المعقد إلى البسيط.

توزعت النصوص المرسومة واللغوية ضمن توازٍ حدده مفتاح^(٢)، وسننضمه

في الجدول :

الرسم	القصيدة								
١	التعريف	لمحة	ذروة الموج	أعرابية					
٢	أنا لا أنا								
٣	أحوال التائهين	إليك	وصية من؟	الحب المتعدد	الحب لا يبنى	الحب آية	الحب يحرق		
	الحب من	الحب سلطان	الحب اختراع	الحب إلذاذ	الحب نهر	الحب من			

١ - المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي : ١٨١.

٢ - م . ن : ١٨٣.

الفصل الثالث

				شهوة الجماع	الأبد				شهوة الجماع	
	هيات	الحب بلاغة	الحب هوى	الحب مكيدة	الحب شهوتان	الحب كاشف الذات	جسد من؟	إليك	أجساد متبددة	٤
سما	وجه الوصل	وجه يتهبأ	وجه يشبح	وجه يتجلى	وجه يشع	الحب مكان يطير	وجه من؟	إليك	وجهها لوجه	٥
أوراق بيضاء	منع من دفنها	بين حدين	سؤال نفسى	فى ساعده وردة	محو كامل	هيات	جنون من	إليك	جنت أيتها الأنفاس	٦
									رسالة إلى ابن حزم	٧



أنا الاندلسي المقيم بين لدائر الوصل وحشجات البين .

الفصل الثالث

فنواة الرسم هذا الخط، ونواة اللغة هو القول في أسفل الصفحة (أنا الأندلسي المقيم بين لذائذ الوصل وحشرجات البين) كما موضح في الصورة السابقة.

وتظهر مصطلحات نظرية الفوضى (مركز الجذب، والانتظام الذاتي، التناظر التدريجي) في قراءته للنص اللغوي. وهو يتبع التتابع الخطي نفسه، فمن النواة إلى النصوص، مع فارق مهم هو ان النصوص اللغوي وظفت الدينامية في توالاتها.

يحدد مفتاح ضمن البعد اللغوي (مركز الجذب) الناظم لكل عماء النصنصة، ويحدده بأنه الحب^(١)، ويعني بمركز الجذب "أن النص الشعري إذا نما بكيفية سريعة وانتشر انتشارا واسعا فإن مركز الجذب يجره إليه ويمنعه من الفوضى التي قد تؤدي به إلى فقدان جماله وهويته، ومركز الجذب هذا هو الحب"^(٢)، وهذا التوظيف لمركز الجذب غير ناجز نقديا، فما تتعامل معه الفوضى هو الجاذب العجيب، والذي يقوم في أصله على ثنائية ضدية (جذب/تنافر) وهذا ما لم يقف عليه مفتاح، ولذلك انصاع مفتاح من حيث لا يدري إلى القراءة الخطية، ولم يكتشف النواة الضدية التي تعطي النص ديناميته. كما أنه يصدر حكما على الفوضى بانها تسلب النص جماليته وهويته، وهذه مقولة النظام والخطاب العلمي والنظرية النقدية الحديثة، والتي تؤكد على أن الفوضى هي اللانظام، ومنها توسم بأنها مولد الشر والقبح، وضياع الهوية أصله المنطق الكلاسيكي، والذي وبحسب المنطق المتدرج الغائم منطق لا واقعي أصالة. فيظهر مركز الجذب عند مفتاح وكأنه الوحدة الموضوعية التي يقوم عليها خطاب الحب بمجمله، مع أن النصوص مشبعة بالطابع الشهواني، وهذه الشهوانية الجامحة تمتد جذورها إلى اللاشعور وهو منبع الجذب العجيب، وهو ما لم يلتفت إليه مفتاح، ولعل قصيدة (الحب شهوتان) تشي بهذا التوجه :

١ - ينظر: المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي: ١٨٩.

٢ - م . ن : ١٨٩.

الفصل الثالث

الحب شهوتان

في احتشاء كل واحد منّا شهوة

كنت رجلا كنت امرأة

شهوة لها الجموح

ومصيرنا شهوة لا ننتقيها

امرأة تقول : شهوتك انا أيها الرجل

رجل يقول : شهوتك انا أيتها المرأة

ونحن معا

طائعان لتحمك

أيتها الشهوة^(١)

إن الجاذب العجيب ذا الثنائية الضدية تزخر به النصوص، بل إن كتاب الحب كله ظاهرة فوضوية بامتياز، إلا أن مفتاح ذا التوجه العلمي في القراءة النقدية لم يستطع تمثل مقولات نظرية الفوضى، وبالنتيجة لم يستطع توظيفها. وفي الانتظام الذاتي يقدم مفتاح هذا الانتظام على أنه حالة النظام الضابطة للنص، فتمنعه من التشظي اللانهائي، ف"يتجلى تنظيم الذات في التكرار الذي يحقق الانسجام من جهة والاستمرار من جهة ثانية"^(٢)، إلا أن الانتظام الذاتي يقصد به آلية تفاعلها عناصر الظاهرة للتحويل، فهي عودة للحالة الأولى، وعلى الرغم من الطابع التكراري فيها إلا أنها لا تعني تكرار الحالة الأولى نفسها، إنما حالة جديدة يفرضها التحويل نفسه، فالاستقرار بعد التشظي ليس هو نفسه الاستقرار قبل التشظي، إنما هي حالة استقرار مغايرة للأولى. هذا الطابع الجدلي لم يلتفت إليه مفتاح، بسبب

١ - كتاب الحب : ٥٤.

٢ - المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي: ١٨٩.

الفصل الثالث

سلطة النظام الذي يفرض العودة إلى الحالة نفسها، وهذا ما لا تقبله نظرية الفوضى أو العماء كما يترجمها مفتاح. ثم يذكر مفتاح التناظر التدريجي بوصفه " نسقا ما يظهر تناظرا تدريجيا حينما يعاد الشكل العام نفسه عبر درجات طويلة ومختلفة متعددة"^(١)، ويعطي مثالا لذلك مجموعة قصائد (إليك) إلا أنها لا تتجاوز التمثيل، مؤكدا ان التناظر قائم على التشابه والاختلاف الذي يولد الحالة الدينامية^(٢)، وهذا يكشف أن مفتاح لم يعمق تحليليا هذا المفهوم فيبين حالته الإجرائية على مستوى القصائد.

المحور الثالث - انتظام كون النصنصة

هذا الانتظام سيقصر على النص اللغوي في النصنصة معتقدا مفتاح أن الرسوم أقل تعقيدا من النص اللغوي في كتاب الحب^(٣)، وهذا العزل هو اختزال يخل بأصل المصطلح الذي وضعه مفتاح (النصنصة)، فالتركيب الذي تقوم عليه النصنصة هو مجرد جمع بين نص مرسوم ونص لغوي مكتوب، مما يفقد النص طابعه الدينامي. وهو مؤشر أيضا على الطابع الاختزالي للقراءة النقدية، والاختزال مقولة الخطاب العلمي التي تبنتها النظرية النقدية الحديثة.

وبما أن الشاعر في كتاب الحب قد استثمر أقوالا متعددة وجد مفتاح " أننا مطالبون بوضع مفاهيم لتوصيف هذا النص المركب؛ هذه المفاهيم هي التتابع والتحاذي والتداخل والتفاعل والقلب"^(٤)، وهي كلها تصف نمط العلاقة بين نص الشاعر والنص المنقول، وما يجري على المنقول من توظيف يخدم النص كتاب الحب.

١ - المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي: ١٩٠.

٢ - م . ن : ١٩٠.

٣ - م . ن : ١٩١.

٤ - م . ن : ١٩٠.

الفصل الثالث

في الختام نجد ان مفتاح استطاع أن يقتحم منطقة مغايرة من حيث التأسيس النظري، وكذلك غامر بالتطبيق، ويعتقد الباحث ان اشتغال مفتاح التعريفي بنظرية الفوضى لم يتجاوز فكرة (التعريف) بهذه النظرية، وذلك له ما يؤيده وهو المشغل التطبيقي لمفتاح والذي يكشف عن قصور في فهم أصول النظرية المعرفية، واهماها فكرة النظام والانتظام، فنظرية الفوضى تحاول ان تكشف انتظام الظواهر الفوضوية في حالتها الفوضوية، ومفتاح يعتقد بأن النظام حالة الاستقرار خارج الفوضى، فكأنما الفوضى هي خروج عن النظام، يجب عليه إن يُردَّ إلى النظام، والامر خلاف ذلك تماما، فالظواهر الفوضوية لها انتظامها ضمن فوضويتها، داخلها لا خارجها، وجمالها في هذه الفوضوية.

ومما يؤخذ على مفتاح انه لم يستطع توظيف مفاهيم نظرية الفوضى التي أسس لها، أي ان تقرأ النصوص بحسب نظرية الفوضى، وما عمل عليه مفتاح هو ان النصوص اللغوية تنمو ديناميا وتتشظى، وعلى القارئ أن يرجع هذه النصوص إلى حالة النظام، ولذلك جاءت كتبه زاخرة بالتقسيمات المتعددة التي تحاول أن تضبط هذا التشظي، ولم تفلح. كما أن قراءته النقدية يشوبها فقر التحليل، فالنصوص التي يضعها مفتاح تحت مجهره النقدي هي نصوص تمثيلية، فكأنما يمثل للحالة، ولا يعمل على قراءتها نقديا.

إلا ان هذا لا ينفي ريادته في التأسيس لحالة نقدية مغايرة ومخالفة.

الفصل الثالث

ثانيا-نظرية الفوضى والأدب مقارنة إجرائية في ألف ليلة وليلة

يُعد كتاب (نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة) للدكتورة شريفة محمد العبودي، الصادر عن مؤسسة اليمامة في الرياض، من الكتب التي لها الريادة في تقديم نظرية الفوضى وعلاقتها بالأدب والنظرية الأدبية.

وتكمن أهمية الكتاب في أنه يؤسس للإطار النظري لمفاهيم نظرية الفوضى ضمن حقولها المعرفية المتشعبة، كما يبين أثرها على الأدباء ومدى تغيّر رؤيتهم، فضلا عن محاولة المؤلفة تطبيق هذه المفاهيم على نص (ألف ليلة وليلة).

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام رئيسية، كان القسم الأول مخصصا لبدائيات النظرية في حقولها العلمية، ثم ذكرت أبرز سمات هذه النظرية، وانتقلت بعد ذلك للتعريف بأهم الكتب والمؤلفات التي بينت العلاقة بين نظرية الفوضى و النظرية النقدية.

أما القسم الثاني فنجد مخصصا لنمط التواصل بين نظرية الفوضى والحقول المعرفية للعلوم الإنسانية، فبيّنت علاقة نظرية الفوضى والنظرية الأدبية، والفلسفة والأنسنة، وكذلك علاقة النظرية بالغة والتحليل النفسي، فضلا عن علاقتها بالعوالم.

وجاء القسم الثالث ليكون المحطة التطبيقية لمفاهيم نظرية الفوضى على كتاب ألف ليلة وليلة. ثم تلت هذه الأقسام بمسرد تعريفي لمصطلحات نظرية الفوضى.

١-نظرية الفوضى والتغيير

تضع مؤلفة الكتاب يدها على علة أهمية نظرية الفوضى بقولها "تتبع أهمية نظرية الفوضى من أنها أصبحت خلال العقود الأخيرة سمة بارزة في كيفية رؤية الكتاب، كتّاب الأدب بشكل خاص، للعالم وما يحكمه من قوانين مرئية وغير مرئية،

الفصل الثالث

وما يسوده من أحداث قد لا يبدو لها تفسير^(١)، فهي تقترض أنّ القوانين المنضبطة ضمن نظام قار وتحكم الواقع بوصفة معطى مرئيا، تفرض انضباطها على الكتاب، مما يجعل العالم منعكسا في نصوصهم، أو لنقل محاكاتهم الأدبية متأثرة بالحالة القانونية للعالم ضمن تصويره الخطي، والأثر الذي تحدثه نظرية الفوضى هو إبراز أنّ هذا الانضباط هو جزء من كل أعظم، فاللامرئي له أثر، وما لا يمكن التنبؤ به من ظواهر لها حضور فاعل، هذا التوجه هو من حوّل الرؤية الأدبية لدى الكتاب تجاه نمط من الظواهر انعكست في نتاجهم الأدبي، وهذا يفرض تغييرا في الحقل النقدي، وبحسب ذلك كان هدف الكتاب إظهار "التغيير الذي حصل ويحصل في حقل الأدب ومسار النظرية الأدبية"^(٢).

وتضع الدكتورة شريفة يدها على الفارق الرئيس، الذي أدى إلى إعادة النظر بمقولات الخطاب العلمي، بالإشارة إلى أثر إسحاق نيوتن في الخطاب، وتبين أثر نظرية الفوضى في نقض هذه مقولات، تذكر في مقدمة الكتاب ما يأتي: "أن سبب عظم تأثير نظرية الفوضى على الفكر والثقافة في العالم هو أن نتائجها جاءت... لتناقض الأساس الذي قامت عليه المكتشفات العلمية خلال فترة التنوير والتي قامت عليها الحداثة في العالم الغربي"^(٣)، فالمؤلفة تضع نظرية الفوضى مقابلا للحداثة، فهي تُبيّن نظرية الفوضى ضمن ما بعد الحداثة، وتؤكد أن الأساس الذي تناقضه نظرية الفوضى "يقوم في مجمله على نظريات إسحاق نيوتن [الذي] رسّخ مبدأ المُقدّر"^(٤)، هذا الأخير هو (الحتميّة)، التي تقوم على اليقين الجازم بحدوث الشيء

١ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة: د. شريفة محمد العبودي، مؤسسة اليمامة

الصحفية، الرياض - السعودية، ط ١، ٢٠١١م، سلسلة كتاب الرياض عدد ١٧٣: ص ٥.

٢ - م . ن : ٥ .

٣ - م . ن : ٥ .

٤ - م . ن : ٥ .

الفصل الثالث

بوصفه مقدراً، مع التأكيد على عدم إمكانية التغيير^(١)، بمعنى أنه القطع بحدوث الشيء مع عدم إمكانية حدوثه إلا على هذه الشكل.

وهذا الفارق مهم جداً؛ لأنه يكشف عن الاختلاف في الأسس المعرفية التي تقوم عليها نظرية الفوضى، فهي تضع العقل والتجربة موضع النقض، فنيوتن ومن قبله ديكارت وبيكون، جعلوا من القضايا اليقينية موضع البداهة، إذ تتشكل بوصفها ضروريات لا تحتاج إلى برهان، والفيصل في قبول هذه القضايا بوصفها يقينا هو التجربة، ولذلك أزاحت الحداثة التصورات التي لا تخضع لشرطية التجربة، فجاءت مقولاتها لتهدم التصورات الميتافيزيقية.

فاليقين الحداثي يقين عقلي تجريبي، ودور العقل في قدرته على تفسير كل شيء بالاعتماد على مبدأ السبب والنتيجة، ومن هذه النقطة تولدت إمكانية التنبؤ، فإذا امتلكننا الأسباب الأولية تمكنا من التنبؤ بالنتيجة، إذ لا يمكن للنتيجة أن تكون خارج المعطى السببي.

وبحسب هذا التوجه صُنفت الظواهر إلى ظواهر نظامية وظواهر فوضوية، فالفوضوية هي ظواهر تتجاوز التنبؤ، بمعنى أن الأسباب لا تتساوى مع النتائج كما في المعادلات اللا خطية، وعليه أقصيت هذه الظواهر.

وهنا سقطت حجية العقل في كونه قادراً على تفسير كل شيء فالظواهر التي لا يستطيع العقل تفسيرها أكثر شيوعاً من الظواهر النظامية، وكذلك معيار التجربة ذو الطابع التعميمي تبين عجزه في تعميم قانونية النظام.

وبحسب ما تقدم ترصد الدكتورة شريفة تأثير نظرية الفوضى في نقطتين^(٢):

١ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة: ٦.

٢ - م . ن : ٦-٧.

الفصل الثالث

١- أن الأحداث والأخطاء الصغيرة، التي يسقطها المنهج التجريبي لها أثر في جعل النتائج أعظم مما يُتوقع، فالحتمي موجود، ولكنه ليس منفردا في الوجود، فالاحتمال موجود أيضا، والخطأ البسيط الذي يختزل في التجربة له أثر في النتائج.

٢- أن الظواهر الفوضوية لها نمط ترتيبى، لها انتظام، يمكن لنا أن نلاحظه، إلا أنه لا يرتقى ليكون نظاما حتميا، مما يعني أنه يمتلك قابلية التغير الذاتي.

وتأثر كتاب الأدب وتغير رؤاهم نابع من شيوع الظواهر الفوضوية بل "وأغلب النظم في الحياة الحقيقية مركبة ولا خطية"^(١)، فهي تخالف السمة الأداة للحادثة، وهذه المخالفة تعيد للإنسان طابعه المعقد، إذ لاشعور حضوره البارز في تشكيل أنا الإنسان، مما يجعل الفوضى أصدق تعبيرا عن الإنسان من تصورات عصر التنوير وحدثته. وتشير المؤلفة إلى أن مولد نظرية الفوضى هو الفيصل في نهاية الحادثة^(٢)، وعليه ترتب نتيجة أخرى، فإذا كانت النظرية النقدية تستمد وجودها من مقولات الحادثة والخطاب العلمي، فلا بدّ من موت هذه النظرية لـ"عدم جدواها، وإنها أصبحت عبءاً [هكذا] على الإبداع وعلى تحليله"^(٣).

تأثير نظرية الفوضى في الأدب

وجّهت تأويلية غادامير سهام نقدها إلى الخطاب العلمي بإسقاطها لاعتبار الفصل بين الذات والموضوع، وبذلك دعت إلى الحوار الذي نستكشف بوساطته ذاتنا بجعل الموضوع يظهر ويكشف عن نفسه، فعملت على بيان وهم (الموضوعية)،

١ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحادثة: ٧.

٢ - م . ن : ٨ .

٣ - م . ن : ٨ .

الفصل الثالث

وهذا ما اشتغلت عليه نظرية الفوضى، إذ بيّنت " عدم وجود نقطة واحدة محددة وثابتة يمكن للإنسان من خلالها فهم عالمه، فالموقف الموضوعي (لا الذاتي) مستحيل"^(١)، فالواقع، تبعاً لذلك، خارج حدود سلطة المنهج، فإذا كان النظام يضمن لنا لحظة البداية، ولحظة النهاية، بوصفهما قوالب تصورية للظاهرة، فإن نوع النهاية ضمن تصورات نظرية الفوضى لا يمكن التنبؤ به، بمعنى أننا نعرف أن الظاهرة ستنتهي، لكن على أي شكل؟، هذا ما يبقى من إمكانيات الطبيعة، وبذلك تتحقق الفوضى بتعدد الاحتمال الذي ستكون عليه الظاهرة.

ولتجسير العلاقة بين الفوضى والأدب كان لزاماً على منظري الفوضوية من تجسير العلاقة بين الفوضى والإنسان، فهل الإنسان كائن فوضوي؟.

تذكر الدكتورة شريفة أن الفوضى بوصفها نظرية تكشف عن الخصوصية الحقيقية للإنسان، إذ يتخذ مبدأ التفاعل بين الإنسان ومحيطه، والعالم الذي يعيش فيه حضوره الفاعل في تشكل الإنسان نفسه، فالعالم يؤثر فيه، كما يؤثر الإنسان فيه بشكل مستمر^(٢)، مبعده بذلك الطابع الاختزالي الذي يرى مرة تعالي الواقع على الإنسان، أو تعالي الإنسان عليه مرة أخرى، وهذا التفاعل يستند إلى أصل معرفي مهم وهو "أن نظرية الفوضى لا تنظر إلى المادة كمجرد مجموعة اعتباطية من الجزئيات، ولكنها تؤكد على أن أي نظام مركب يساوي أكثر من مجموع جزئياته"^(٣)، والخطاب العلمي وما تبني مقولاته مثل النظرية النقدية، تؤكد على التساوي، هذا التساوي هو من حقق الفصل البنوي بين العالم والإنسان، إذ يمكن للعلم تفعيل

١ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة: ٣٦.

٢ - ينظر: م . ن : ٣٦.

٣ - م . ن : ٤٥.

الفصل الثالث

خاصية الاختزال والتجريد للكشف عن القانون الذي يحكم النظام، وعليه فكل متغير في الجزء ينتج مقداره في النظام، وعلى ذلك تأسس علم اللغة.

وما ترفضه نظرية الفوضى هو فكرة التساوي، إذ تعتقد بالأكثرية، فالكل أكثر من مجموع الجزئيات، لأنها تلاحظ مبدأ التفاعل، ولذلك أسقط مبدأ الاختزال المنتج للموضوعية، و عوض بالنظرة الشمولية، التي ترى أن "الفوضى تمثل صورة فعالة للسلوك الإنساني"^(١)، وعلى ذلك فالإنسان كائن فوضوي أصالة، وما عملت عليه نظرية الفوضى هو الكشف عن حالة التفاعل الدينامي الذي يبين إمكانية الكشف عن الترتيب ضمن السلوك الفوضوي، أي "بيان سبب عدم انتظام /فوضى نشاط ما لوجود مؤثرات، قد لا تكون مرئية تتحكم في اتجاه حركة النشاط ومقدارها"^(٢)، وهذه المؤثرات المرئية وغير المرئية لا يمكن حصرها، فاللاشعور مؤثر غير مرئي في السلوك الإنساني، وهو ما كشفه فرويد على سبيل التمثيل، وهو ما يجعل من إمكانية التنبؤ بالسلوك الإنساني منعدما.

والأدب ظاهرة تنتسب إلى الطابع الفوضوي، هذا الانتساب قائم على نوع من التماثل بين النظم اللاخطية والأدب، وتنقل الدكتورة شريفة عن (كاثرين هيلز) سمات في النصوص الأدبية تجعل منها عاكسة لهذا التعدد الاحتمالي^(٣):

١- تقدم النصوص الأدبية اعترافا بوجود انتظام معين يحكم النصوص، إلا أنها ترتبط بنصوص أخرى مغايرة، تنتمي للماضي و الحاضر، وهذا التداخل هو

١ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة: ٤٥.

٢ - م . ن : ٤٦.

٣ - م . ن : ٣٦-٣٧.

الفصل الثالث

ما يجعل من النص مسرحا للتفاعل الدينامي، وبحسب هذا التفاعل لا يمكن التنبؤ بما ستكون عليه النتائج لحظة القراءة، مما يجعل وجودها فوضويا.

٢- تؤكد هيلز على إدخال عناصر غريبة عن النص يؤدي إلى خلق تفاعل لا يضمن للنظام استقراره، وهي لحظة الفوضى.

٣- تؤكد هيلز أيضا على أن الأنظمة الاجتماعية والخيالية التي تخص الدراسات الإنسانية يمكن مقارنتها مع الأنظمة التي تدرسها العلوم الصرفة، وذلك لأن المادة أو الظاهرة لكلا العلمين تمتلك الصفات الفوضوية نفسها.

إن ما تؤكد عليه هيلز وجود حالتين في العمل الأدبي النظام من جهة والفوضى من جهة أخرى، والأخيرة تضمن محاكاتها للظواهر الواقعية ذات التغير المستمر، وهذا ما يساهم بانفتاح النص، مما يجعل من لغة النص تتزاح عن طابعها الاتصالي، فهي ليست وسيطا، بقدر كونها جزءا مولدا للنمط الفوضوي، فالعلاقة بين مكونات العلامة لم تعد ثابتة، إنما يطالها التغيير، فنُظر إلى اللغة "ليس كمدخل محايد للنقل المباشر للمعنى ولكن كمولد فوضوي لأهمية تعدد تفسيراته، فإن المعنى المحدد للنص الذي تقدمه اللغة يصبح إشكاليا"^(١).

إلا أن كاترين هيلز توسع من خصائص النص القيم^(٢)، شارطة تحقيقه لهذه الخصائص:

١- أن يكون هناك تركيز شديد على مستهل العمل، وهذا يتضح في الشعر ثم في القصة القصيرة بشكل خاص حيث يضع الكاتب تركيزه على السطر أو

١ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة: ٣٨-٣٩.

٢ - ينظر: م . ن : ٥٥.

الفصل الثالث

الأسطر الأولى من العمل، والتي يكون لها تأثير قوي وملموس على تطور العمل ككل.

٢- ألا يكون خطيا، فمن المحبذ أن تكون المسببات ونتائجها في العمل الأدبي شديدة التفاوت. وهذا أحد مظاهر ما يعرف بتأثير الفراشة المعروف في نظرية الفوضى التي مفادها أن خفقة جناحي الفراشة في مكان ما من العالم قد يتسبب في إحداث إعصار في جهة شديدة البعد عن مكان الفراشة. وتطبيق هذا في الأدب يدعو إلى تعليق أهمية شديدة لانطلاقة البداية، حيث يمثل التغير الطفيف فيها، في صورة حدث أو أحداث قد لا تبدو ذات أهمية في حينها ولكن الكاتب يجعلها شرارة أو بداية لأحداث تنمو وتتضخم مع تطور العمل الأدبي.

٣- أن يتصف بالتعقيد والتركيب مما يجعل أبعاده غير متوقعة وغير متناسبة. فالحركة الـ لا خطية تفترض وجود اختلاف ليس في الحجم فقط إنما في القيمة النوعية لهذا الحجم بين النظم الخطية والنظم الـ لا خطية. فوحدات النظم تبعا لنظرية الفوضى ليس لها قابلية استعادة مكوناتها فلا يمكن في الأنظمة المركبة أن يتكرر محتوى ما مرتين فمهما تشابهت الظروف إلا أنه تبقى هناك تغييرات طفيفة.

٤- أن تكون في العمل الأدبي جوازب... ففي الحركة الـ لا خطية يبدو المسار كدوامات داخل دوامات تتكرر ولكنها لا تتماثل بالضبط دائما. والتغييرات البسيطة بين تلك الدوامات يمكن أن تتسبب في حدوث تغييرات هائلة تطيح بمسار العمل إلى اتجاهات جديدة.

٥- أن يكون في النصوص المركبة نوع من تبادل المنافع، أي التفاعل بين مكوناتها فالمخرجات المنبثقة عن تشعب ما تعود هي ذاتها إلى النص كمدخلات تعزز بنيانه. ولذا يعتبر التشعب مصدرا إبداعيا يعود بالنفع ليس

الفصل الثالث

فقط على النص ذاته أنما أيضا على كاتب النص الذي تزداد خبرته بتنامي العمل الأدبي مما يجعله قادرا على خلق المزيد من التشعب للنص^(١).

وهذه النقاط الخمس هي سمات الظواهر الفوضوية، فهي تبدأ من النواة الأولى التي تكون قابلة للتوالد، وبحسب التغيرات التي تعد غير منطقية، تتوالد النواة بشكل لا خطي، ومن بعدها ندخل في مرحلة التعقيد الذي تسقط فيه قاعدة التماثل التكرارية، وما يتولد عن التعقيد هو الجوانب التي تخلق الدوامات في حالة من التوالد المستمر، لتختم بالتشعب الدينامي فتظهر حالة النمو، بتجدد العلاقات وتناميها.

فلا خطية النص تجعله متغيرا، بجانب حالة الاستقرار البنوي، مما يجعل النص فاقدا لقاعدته البنوية، إذ القوانين غير مستقرة، وبالنتيجة لا يمكن الوقوف على المعنى بوصفه معنى معطى محدد، فكلما تغيرت معطيات القراءة كلما كان النص ولّادا.

ومن هنا نجد تعارض نظرية الفوضى مع معطيات النظرية النقدية، التي تبحث عن الاستقرار وديمومته، فالبنية معطى قار وثابت، واكتشافه لا يتجاوز التغير الزمني، فحالة ياكبسون في تحديد آلية تخليق الأدبية معطى ميكانيكي، غير قابل للتغير، مما يجعل النص يمتلك صورة تشكيلة واحدة.

أما نظرية الفوضى فهي ترفض فكرة الثبوت بحد ذاتها، إذ تجعل من التغيرات الزمنية أثرا فاعلا في تشكيل حالة التشعب، مما يجعل فكرة وجود بنية لا زمنية أمرا مستحيلا.

١ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة : ٥٦-٥٧.

الفصل الثالث

٢- الغدامي ممثلاً لنظرية الفوضى

في محاولة لتأسيس جذر عربي للممارسة النقدية المتبنية لمقولات نظرية الفوضى، تقدم الدكتورة شريفة منجز الغدامي في النقد الثقافي بوصفه هذا الجذر، وهي مقارنة نظن أن الباحثة لم توفق بها.

تفترض الباحثة أن تحول الغدامي عن النظرية النقدية الحداثية جاء نتيجة لتطورات نظرية الفوضى، والغدامي قد اطلع على هذه التطورات على الرغم من عدم ذكره للفوضى في مجمل أبحاثه، وهو ما تذكره الباحثة تقول: " وعلى الرغم من أن الغدامي لم يذكر شيئاً عن نظرية الفوضى وانتقال الفوضى إلى الأدب"^(١)، وعليه فإن التشابه الذي تلحظه الدكتورة شريفة هو من نتاج رؤيتها، "المشابه جملة وتفصيل لتطبيقات نظرية الفوضى على الأدب"^(٢)، فلا يدعي الغدامي أنه متأثر بهذه النظرية. وعليه ترتب نتيجة وهي أن " نقد الغدامي الثقافي مشابه لوجه من أوجه تطبيقات نظرية الفوضى على الأدب، فأخذ الثقافة المؤثرة على الأدب بالحسبان يعدّ عامل تركيب يثري العمل ويضيء جوانبه"^(٣)، إذاً وجه المشابهة هو تأكيد الغدامي على فاعلية الثقافة في النص الأدبي، واستثمار الثقافة من تطبيقات نظرية الفوضى. والباحث يتقف على هذه الجزئية في كون الثقافة فاعلة ومؤثرة، ولنظرية الفوضى أثرها في البحث عن المؤثرات التي تعمل في النص الأدبي، بوصفها متغيرات تنتج حالة التشعب والتعقيد، ولكن السؤال هل كان الغدامي ساعياً للبحث عن هذه الدينامية الثقافية في النصوص؟ وهل جهازه المفاهيمي يؤكد على هذا الطابع؟ ومن ثم نسأل هل كان إجراءه النقدي منفصلاً تماماً عن النظرية النقدية؟.

١ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة: ٦٧.

٢- م . ن : ٥٨.

٣ - م . ن : ٦٧.

الفصل الثالث

أولاً- النسق الثقافي: يستند الغذامي إلى النسق بوصفه مفهوماً مركزياً في مشروعه النقدي، وهذا النسق له طابعه الضدي فهو (مضمر/ظاهر)، فالمضمر هو الثقافي والظاهر هو اللغوي، ونمط العلاقة بينهما هي التضاد، بما أن النسق الظاهر يبحث فيه عن الجماليات، فإن النسق المضمر الثقافي يبحث فيه عن القبحيات^(١).

وتضيف الدكتورة شريفة "ودلالة الغذامي المضمر مشابهة تماماً لخاصية الترتيب الذي يشكل المنشأ في بنية الأنظمة المتحركة واللاخطية في نظرية الفوضى ... والوجه الظاهر في مشروع الغذامي مشابه أيضاً لخاصية الفوضى الظاهرة في نظرية الفوضى والتي تشكلت عبر العصور. ولذا فوجود الوجه المضمر مع الوجه الظاهر لدى الغذامي مقابل لوجود الترتيب والفوضى معاً في نظرية الفوضى، فالترتيب مضمر وهو يعمل كمنشأ وأساس وكذلك كتنقيض للفوضى الظاهرة"^(٢).

لقد زاد الغذامي على نموذج ياكبسون عنصراً هو (النسق الثقافي) وله وظيفة هي (الوظيفة الثقافية)^(٣)، وعليه فإن "العنصر النسقي يمثل الأساس والمنشأ والوجه المضمر الذي يقوم عليه نموذج الاتصال ونلاحظ هنا أنه مقابل للترتيب والنظام الذي يعتبر الأساس والمنشأ لما يبدو كفوضى في نظرية الفوضى"^(٤).

١ - ينظر: النقد الثقافي قراءة في الأنساق العربية: الدكتور عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء في المملكة المغربية، ط٣، ٢٠٠٥م: ص ٨٤.

٢ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة : ٦٩. يبدو أن الدكتورة لا تفرق بين الضد والتنقيض، فضلاً عن استعمالها لمفردة المقابل، والنص يشير إلى المشابهة لا المقابلة.

٣ - ينظر : النقد الثقافي قراءة في الأنساق العربية: ٦٤-٦٥.

٤ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة: ٧٠-٧١.

الفصل الثالث

ثانيا- الجماهيرية : ويقصد بها الغدامي أن نصوصه التي يجب أن يطبق عليها إجراءه النقدي يجب أن تتمتع بمقرؤية ومقبولية في المجتمع^(١)، والدكتورة شريفة تقارب بين هذه الجماهيرية والغموض والتعقيد في الظواهر الفوضوية، فالجماهيرية "باب مفتوح لنوع من الغموض الذي يمثل وجه [هكذا] من وجوه الفوضى"^(٢).

ثالثا- الجملة : وترتبط الجملة بالنسق عند الغدامي، فهي جملة ثقافية، والمجاز والتورية كذلك، والدلالة تأخذ نصيبتها أيضا من النسقية. لتصل إلى نتيجة مفادها "أن نقد الغدامي ... هو ذاته نقد النصوص باستخدام خصائص وتطبيقات نظرية الفوضى على الأدب"^(٣).

هذه هي أوجه التشابه التي تحددها دكتورته شريفة، إلا أنها لم تبين بشيء من التفصيل أوجه الشبه، مثلا، بين النسق المضمّر والترتيب؟!، والمفارقة الأكبر أنّ الغدامي في نقده الثقافي لا يبحث عن بيان نمط الفوضى في النصوص، بل على العكس تماما، هو يبحث بنية ثقافية قارة وثابتة، تحملها النصوص بوصفها ظواهر ثقافية.

إنّ الغدامي حاول أن يخلق حالة من التناظر بين المعطى اللغوي للنص الأدبي، وبين المعطى الثقافي للنص نفسه :

١ - ينظر : النقد الثقافي قراءة في الأنساق العربية: ٧٨.

٢ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة: ٧٠.

٣ - م . ن : ٧٢.

الفصل الثالث

النص	
ثقافيا	لغويا
النسق الثقافي	النسق اللغوي
الدلالة الثقافية	الدلالة اللغوية
الجملة الثقافية	الجملة اللغوية
المجاز والتورية الثقافية	المجاز والتورية اللغوية

والنقد الأدبي الباحث عن الجماليات ضمن البعد اللغوي للنص الأدبي، يناظره النقد الثقافي الذي يبحث عن القبحيات، فالقبحيات هي جزء من مجموعة القضايا الثقافية التي يمكن أن تبحث ضمن الدراسات الثقافية.

ويفترض الغدامي أن النظرية النقدية التي أقرت وجود البنية اللغوية التي تنتج المعنى، ترافقها بنية ثقافية يجب أن تستجلى، وافترض الغدامي العلاقة بين النسقين علاقة متضادة، فالثقافي من شأنه أن يكون مضمرا، واللغوي ظاهرا، وعلى هذا الأساس تتشكل المغايرة الدلالية بين اللغوي والثقافي.

ولم يشترط الغدامي أن العلاقة الوحيدة بين النسقين هي التضاد، إنما التضاد حالة من حالات أخرى بين النسقين اللغوي والثقافي، وما اشترطه، أن النقد الثقافي الباحث عن القبح الثقافي في النصوص الأدبية هو الوحيد من يفترض حالة التضاد بين النسقين.

ومن الغريب أن الدكتورة شريفة تقترض أن النسق الثقافي المضمّر هو الذي يعمل على الترتيب والانتظام للنسق اللغوي ذي الطابع الفوضوي، فالنسق اللغوي فوضوي، والنسق الثقافي منتظم، وهذا مخالف لما اشترطه الغدامي لنوعية النص

الفصل الثالث

الذي يحلله، فمماذج الغذامي النصية التي انتخبها لم تتصف بالتعقيد والتشعب والغموض مطلقاً، لأن الغموض يناقض شرط الجماهيرية.

ولذلك افترض الغذامي نوعاً محدداً من النصوص، ووضع شروطاً لها، إذ ليس كل النصوص الأدبية تلبى الحالة الضدية بين الجمالي اللغوي، والقبح الثقافي، ومن هذه الشروط جماهيرية النص، ويقصد بها أن النص يحقق مقروئية واسعة، وهذه السعة تعكس قيمته الثقافية المجتمعية، وعليه فهذه النصوص الجماهيرية تتصف بالوضوح الثقافي واللغوي أيضاً، ووضوحها هو من يكشف عن بنيتها الثقافية، بمعنى أن الغذامي لم يقارب النصوص التي تتصف بالغموض والتعقيد، ولذلك جعل الجماهيرية باباً للغموض الفوضوي، أمرٌ يرفضه الغذامي نفسه، لأنه يناقض شرط الجماهيرية أصالة.

كما أن الدكتورة شريفة فهمت أن الإضمار حالة من الخفاء، فهي تجعل النسق المضمّر مماثل للشروط الابتدائية للظواهر الفوضوية، وهي مماثلة واهية، والسبب؛ أن معنى الإضمار هو البداهة، بمعنى أن المعطى الثقافي عند الغذامي لا يسائله الوعي النقدي، إنما يتجاوزه، ومن جهة أخرى فإن الوعي القرائي لا يسائل هذه البدهيات، لأنها من متبنيات الوعي نفسه، فإضمارها ينشأ من عدم مساءلتها، لا من اختنائها عن عين المراقب، فنزار قباني وكل قرائه لا يعترضون على طريقة غزله بالمرأة، لأنها ببساطة من بداهات الثقافة التي ينشؤون وسطها.

والأمر الأكثر خطورة أن الدكتورة تفرض حالة من الفصل بين الترتيب والانتظام وبين الفوضوية في الظواهر، وهو أمر تناقضه هي نفسها فهي تنقل عن هيلز الآتي "علم الفوضى يتعلق بإيجاد أنماط من الترتيب داخل الفوضى"⁽¹⁾،

١ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة : ٥٧.

الفصل الثالث

فالترتيب مختص بعناصر ومكونات الظاهرة نفسها، وهذه العناصر التي تدخل في حالة الفوضى لا تكون عشوائية، إنما لها نمط ترتيبي، والإشكال أننا لا نمتلك بنيتها المولدة لهذه الفوضى، لأنها تتصف بالتغير المستمر، وهذا التغير لا ينفى حالة الانتظام، فالترتيب والانتظام ليس حالة منفصلة عن الظاهرة الفوضوية، وهو ما تقتضيه الدكتوراة شريفة، وترتب عليه نتيجة، وهي أن النسق المضمّر هو حالة الترتيب والانتظام، والفوضى في النسق اللغوي، ترتب بحسب هذا المضمّر، والأمر ليس هكذا تماما، فالغذامي لم يسع للبحث عن الترتيب في نص أدبي يتصف بالفوضى، كما أنه لم يبين أن الترتيب منشأ النسق المضمّر، وما يريده الغذامي هو التدلّيل على أن انسجاما يحدث بين اللغوي الظاهر والمضمّر الثقافي في النصوص الأدبية الجماهيرية، لتمرير أمراض ثقافية تحت وصاية الجميل.

٣- ألف ليلة وليلة قراءة في فوضى النص

إنّ الجزء الأهم في كتاب نظرية الفوضى هو هذا الفصل المخصص للقراءة النقدية المتسلحة بمفاهيم نظرية الفوضى، وأهميته تتبع من أنه يستكشف نصا تراثيا له حمولته الثقافية عربيا وعالميا، فهو ليس نصا مبنيا بحسب تطلعات الكاتب لأبعاد نظرية الفوضى، هذا من جهة، وتتبع أهميته أيضا من الحركة الإجرائية للقراءة النقدية، والتي تقتض أن نمطا من الانتظام يمكن أن يستخلص مع الطابع الفوضوي لألف ليلة وليلة، وعليه فالمؤلفة ملزمة ببيان حالة الفوضى في الظاهرة، ومن ثم الكشف عن نمط ترتيب هذه الفوضى، من جهة ثانية.

تقدم الدكتوراة شريفة سببا لاختيارها نص ألف ليلة وليلة، مع ملاحظة أن هذا النص ولد قبل "أكثر من ألف ومائ عام"^(١)، وتعلل الاختيار كون النص صُدّر

١ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة : ١١٢.

الفصل الثالث

بوصف كتابا مقروءا كما ذكر في المدونات التصنيفية^(١)، بمعنى أنها تدفع عن النص شبهة أنه أدب شعبي تناقلته الألسن شفاهيا، وتؤكد أيضا على أن في " الكتاب القديم المتجدد، من عناصر بناء تغري بالتحليل والدراسة، فألف ليلة وليلة كتاب عالمي تعرفه وتقدره معظم الشعوب، وقد بقي حيًا والنظرية الأدبية تغير وجوهها، فلا الواقعية ولا الحداثة بمختلف وجوهها ولا ما بعد الحداثة بتطبيقاتها استطاعت أن تدفع بهذا الكتاب إلى غياهب النسيان"^(٢)، ثم تذكر الدراسات التي قاربت هذا النص عربيا وغربيا، ومدى تأثيره على القراء والأدباء عربيا وعالميا^(٣)، ويبدو أن إلهام المؤلف على الطابع القرائي لهذا النص مستمد من فكرة جماهيرية النص عند الغذامي.

وتشير المؤلفة أيضا إلى إمكانية زيادة شعبية هذا النص القرائية إذا ما زيد الاهتمام بتطبيقات نظرية الفوضى، فهذه النظرية توجهات لم يسبق أن وظفت في قراءة النصوص، مما يستلزم نتائج جديدة وكشوفات تقدمها هذه النظرية تبين الثراء النصي لألف ليلة وليلة.

ومن التمايز التذيي نلمسه بين تحليل مفتاح بحسب معطيات نظرية الفوضى وبين تحليل الدكتورة شريفة، أن الأول يمثل للمفهوم نصوصيا، أما الدكتورة شريفة فهي توحى للقارئ، بتقديمها نتائج مسبقة، بأن التحليل هو من أفرز هذه النتائج، ومن هذه النتائج مثلا قولها "... لأن ألف ليلة وليلة، كما سيتضح من تحليله، يبدو ظاهريا كمتاهات من القص غير المنضبط والمفتقر إلى الترتيب، ولكن النظر بتمعن إلى بنيته يكشف عن كتاب بالغ التركيب يتمتع ببناء مميز وظاهر يتألف من شبكات

١ - ينظر: نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة: ١١٢-١١٣.

٢ - ينظر: م . ن : ١١٢.

٣ - م . ن : ١١٣-١١٤.

الفصل الثالث

مرتبة ومتداخلة من القصة المشوق^(١)، وتقول أيضا "وليس هناك أدنى شك كما سيتضح من خلال دراسته، على مناسبه لأحدث أساليب القصة التي تعكس خصائص نظرية الفوضى وتطبيقاتها على الأعمال الأدبية"^(٢)، فهي تؤكد على التحليل والدراسة للنص، وهما من تكفلا بإثبات تحقق مفاهيم نظرية الفوضى في نص ألف ليلة وليلة، فكأنما تبدأ من لحظة شك في مدى انطباق المفاهيم والنص المدروس، وهذا التوجه في التفكير النقدي هو من سمات نظرية الفوضى، بمعنى أن الباحث ضمن مفاهيم نظرية الفوضى متأكد من أنه سيصل إلى نتائج ولكنها - أي النتائج - ليست يقينية، بمعنى أن نوعية النتائج غير محددة، فالحتمية المنهجية كما في النظرية النقدية الحداثية تفقد بريقها ضمن هذا التوجه. وهذا الفارق يحسب لصالح الدكتورة شريفة، إذ اشتغال محمد مفتاح يفتقد لهذا الحس النقدي؛ لذلك جاءت نتائجه تمثيلية وليست تحليلية.

والنتيجة التي قدمتها الدكتورة شريفة هي أن النص (ألف ليلة وليلة) يبدو ظاهريا غير منضبط ويفتقد إلى الترتيب، بمعنى أنه يتمتع بحالة فوضوية، ولكنها على مستوى النتيجة لا تبين لنا نوع عدم الانضباط ونوع عدم الترتيب، فهل هو متشعب؟ أم هل هو معقد؟.

تكشف سيرورة التحليل النقدي عن وعي نقدي حقيقي بمفاهيم نظرية الفوضى، ويتبدى ذلك من تأكيد المؤلفة على أنها ستأخذ تطبيقات من النظرية، فتبرر لنفسها ترك بعض المفاهيم والتأكيد على مفاهيم أخرى.

١ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة: ١١٢.

٢ - م . ن : ١١٥.

الفصل الثالث

يمكن لنا تقسيم إجراءات النقيدي إلى ثلاثة مستويات، وتخص كل مستوى بمفهوم من النظرية :

- ١- الشروط الابتدائية للقصة، الإطار الأساس للقصة في ألف ليلة وليلة، وفيه تناقش ثلاث قضايا هي : الأنسنة، والتركيب، والتكرار.
- ٢- خطية ولا خطية النظام القصصي في ألف ليلة وليلة.
- ٣- الجواذب الغريبة في ألف ليلة وليلة.

أولاً- الإطار الأساس: وتقصد به الشروط الابتدائية لبناء النص، والاهتمام بها في مراقبة حركة القصة، وبحسب ما قبل نظرية الفوضى أن معرفة الشروط الابتدائية تمكن المراقب من معرفة النتائج والتنبؤ بها، مع نظرية الفوضى عكس هذا التصور، فمعرفة الشروط الابتدائية لا تؤكد حالة التنبؤ؛ والسبب في ذلك حركة الظاهرة المدروسة ضمن الامتداد الزمني يولد مؤثرات، ربما لا تلاحظ لكنها من التقدم الزمني تؤدي إلى نتائج أكبر من حجم الشروط الابتدائية.

وبحسب ذلك تشرع المؤلفة ببيان الإطار الأساس الذي يقوم عليه القصة من بعده، وهو مكون من أربعة مشاهد قصصية متعاقبة منطقياً، يبدأ الإطار من قصة الأب الذي يترك لولديه (الأكبر شهريار والأصغر شاه زمان) مملكتين يحكمانها، وبعد أن يكتشف شاه زمان خيانة زوجته يذهب إلى مملكة أخيه الأكبر، ليكتشف خيانة الزوجة لأخيه، ويكشف هو بدوره هذه الخيانة أمام شهريار، ومن هنا تبدأ رحلة شهريار بالقتل، فهو يطلب فتاة يتزوجها ليلاً ثم يقتلها صباحاً، بدافع الانتقام من جنس النساء^(١).

١ - ينظر: نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة : ١١٦-١١٧.

الفصل الثالث

وتطلب شهرزاد ابنة الوزير أن تكون هي الفتاة التي يتزوجها شهريار، فيضع لها الوزير قصة تمثل المشهد الرابع بوصفها حالة منع، لكنها لا تلتفت إلى ما تقوله القصة، مصممة على الدخول في مغامرة غير معروفة النتائج (حياة/موت)^(١).

وتؤكد المؤلفة على أن الإطار الأساس بؤرته الخيانة "فداخل الإطار الأساس لألف ليلة وليلة تتكرر عدة قصص مختلفة مضمونها واحد هو الخيانة"^(٢)، ودخول شهرزاد تبدأ معه مرحلة النمو والتوالد والتشعب في سير القصص، إلا أن المؤلفة تترك جانبا مهما من نظرية الفوضى وهو (الانتروبيا)، فهذه القصص التي تمثل الإطار حالة التغير عند شهريار، وقلة الانتروبي يعني دخول شهريار بحالة من التآزم الذي يجعل طاقته مرتكزة على فعل مهيمن هو القتل، فيدخل في حالة (انتظام القتل) بوصفه نظاما مغلقا، وعمل شهرزاد الرئيس هو إعادة شهريار إلى حالة اللاتوازن في الطاقة، بمعنى أن نظام القتل نتج عن حالة الفوضى الأصل وهي حالة تزخر بالاحتمالات.

الحالة الأولية	حدث	النظام
اللاتوازن	الخيانة	القتل
زيادة الانتروبي		قلة الانتروبي

وهذا ما يذكره إيليا بريغوجين بقوله "إن اللاتوازن هو منبع النظام"^(٣)، وهذا المفهوم يمكن له أن يطبق على شهرزاد نفسها، وانتقالها من زيادة الانتروبي إلى قلتها، وكذلك شاه زمان، وهو لم تدخله الدكتورة شريفة في إجراءاتها النقدي.

١ - ينظر: نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة: ١٢٢.

٢ - م . ن : ١٢٣.

٣ - نظام ينتج عن الشواش حوار جديد بين الإنسان والطبيعة: ٣٧٢.

الفصل الثالث

ومن بعد الإطار الأساس تتعدد وتتوالد الأطر إذ "داخل قصص شهرزاد هناك العديد من الأطر فكل ليلة تمثل مع ما تحتويه من وحدات قص إطارا قائما بذاته"^(١) وهذه الأطر المتوالدة ضمن مقولة الألف قائمة بحسب بنية التراكم القصصي، مما يجعل هذه الأطر "تفوق في الأهمية الإطار الأساس لألف ليلة وليلة عند النظر إلى البنية الشاملة لهذا العمل المتشعب"^(٢)، ومن هنا تحدث المفارقة الفوضوية إذ يبرز الفارق النوعي والكمي بين الإطار الأساس والقصص المترابطة، بمعنى أن الشروط الابتدائية أقل من النتائج التي تترتب عليها، وهذا ما يرتبط بالطابع اللاخطي لقصص ألف ليلة وليلة.

الأنسنة

ترتبط نظرية الفوضى بموضوعة الأنسنة والمراد منها "المجال الفكري الذي تتم من خلاله المعالجة، من خلال الكتابة، للإنسان ذاته وللمعاني الإنسانية"^(٣)، وتستند المؤلفة على قول برايان وارد في قضية الأنسنة، فالغاية من دراسة الأدب بحسب مفاهيم نظرية الفوضى هو البحث عن "ما يمكن تسميته بأنظمة الأنسنة المتمركز داخل نظرية الفوضى"^(٤)، أي البحث في الهوية الإنسانية ضمن إطار التعقيد، وهو ما يخالف المنطق الهوياتي، الذي يعتمد على التبسيط، ومن مبدا الأنسنة تستكشف المؤلفة نم العلاقة بين شهرزاد وشهريار، "فشخصية شهرزاد وتعاملها مع شهريار في النص يعكس ذلك التوازن في رسم الشخصيتين، فشهرزاد لا تتعامل مع شهريار كمصدر للطغيان، مع إنه كذلك، ولا تحدثه وكأن لا وزن له ولا

١ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة : ١٢٨.

٢ - م . ن : ١٢٨.

٣ - م . ن : ١١٨.

٤ - م . ن : ١١٨.

الفصل الثالث

قيمة، بل تتعامل معه بشكل يقدر إنسانيته ويسعى لتوازن هويته"^(١)، ولو وظفت المؤلفة مفهوم الانتروبيا لطورت مفهوم الأنسنة بشكل أوسع، لأن الحقيقة أن حالة التوازن عند شهريار هي تركيز طاقته على القتل (انتظام القتل) هذه هي حالة التوازن لدية، إذ لا احتمال يمكن أن يتولد منه، وهو ما يتعارض مع ما تقوله المؤلفة، إذ تفترض العكس تماما.

وتركز المؤلفة على شخصية شهرزاد بقولها "ورسم شخصية شهرزاد يقوم أيضا على احترام إنسانية المرأة وتحقيق هويتها، وذلك بجعلها ذكية و مثقفة وتملك حرية اختيار أن تكون العروس التالية لشهريار"^(٢)، والمؤلفة نتطق من مفهوم البساطة في تحديد إنسانية شهرزاد، ولا تنظر إلى حالة التغير والتعقيد الذي تضع فيه شهرزاد نفسها باختيارها، فهو اختيار معقد محفوف بالمخاطر، فنتأجه غير محسوبة، وبالنتيجة فإن هوية شهرزاد قد رسمت من حالة التعقيد في نمط وجودها، والأمر لا يتعلق بالذكاء والثقافة، بل يتجاوزهما إلى وجودها الهوياتي، بوصفها طرفا مقابلا لشهريار ذي الهوية المعقدة.

٤- التركيب والترتيب

والمقصود من التركيب تعدد القصص، هذا التعدد غير المتماثل نوعا وكما، يخلق حالة من التداخل، أو لنقل حالة من التوالد القصصي، فتنوع العوالم في حالة من الانفتاح بين المعقول واللامعقول، الحي وغير الحي، المحسوس واللامحسوس، من دون حدود فاصلة بينها، فتتراكم النصوص، "فالنظام المركب هو الذي تتفاعل فيه العديد من العناصر المستقلة باستمرار وتعيد ترتيب نفسها باستمرار منتجة أبنية

١ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة: ١١٩.

٢ - م . ن : ١١٩.

الفصل الثالث

معقدة بمرور الزمن^(١)، وهذا ما دفع المؤلفة لاعتبار "التركيب عامل قوة في كتاب ألف ليلة وليلة"^(٢)، لكنها لا تبين ماهية هذه القوة، إنما تقتصر على تأثير هذا التداخل على قراء هذا النص عربيا وغربيا، مع ذلك تضع المؤلفة وصفا لهذا التركيب من لحظة دخول شهرزاد البناء القصصي، وختمها للإطار الأساس، فتشكل قصص شهرزاد التي ترويها لشهريار جل ألف ليلة وليلة، فهي بحر من القص يبدو فوضويا لاختلاف طول القصص، فبعضها ينتهي في أقل من ليلة وبعضها يمتد لليال عديدة وبعضها يبدأ وينتهي بقصة واحدة وبعضها يحتوي على أكثر من عشر قصص في مستويات قص مختلفة مكونة من قصة داخل قصة الخ. مثل صندوق داخل صندوق داخل صندوق الخ، ولكل قصة من تلك القصص راوٍ مختلف يبدأ بانطلاقة بداية تختلف قوتها وحجمها تبعا لموقعها من منظومة القص وأهميتها للبناء القصصي ككل، والمهم أن كل تلك القصص أجزاء من البناء الكلي المركب لألف ليلة وليلة"^(٣)، إذا فالتركيب محكوم هذا التعدد النوعي والكمي للقصص في النص، وعلى الرغم من هذا التنوع إلا أن التركيب غير منفلت عن الإطار الذي رسمته شهرزاد، فتشعب القصص بهذا النموذج التوالدي يخلق حالة التعقيد التي تشير إلى فوضوية النص ككل. إلا أن ما يحسب على المؤلفة أنها لم تبين تفصيلا هذا التراكم في القصص، بمعنى انها لم تكشف عن الثراء الذي يكتنف التركيب، فلا نجد توضيحا لأنماط التركيب، ومستوى التداخل بين القصص، وما الذي يكشف الانتقال من مستوى قصصي إلى آخر؟، فهذا التركيب ليس جمعا للنصوص في فضاء الورقة، إنما يخلق حالة من التفاعل والتي تنتج نمطا من التحول، وهو ما

١ - ينظر: نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة: ١٥.

٢ - م . ن : ١٢٤.

٣ - م . ن : ١٢٣.

الفصل الثالث

تبحث عنه نظرية الفوضى وما ذكرته المؤلفة نفسها في القسم النظري للكتاب، فكأنما المؤلفة اكتفت بالإشارة إلى المفهوم دون التفصيل في فاعليته. إلا أنها كشفت عن نمط الترتيب في هذا التركيب الفوضوي، لا إشارياً فقط وإنما باستشهاد تمثيلي من المتن القصص نفسه، فحيث يبدأ القص المركب "تبدأ شهرزاد القص في المساء ثم تتوقف عنه في الصباح في ترتيب لا تحيد عنه ويتجدد تلقائياً"^(١)، فهذا التنوع العظيم محكوم بنقطة البداية والنهاية، مما يخلق النمط القصصي، ولكنه نمط مجهول نوع النتيجة، فاحتمال (الحياة/موت) احتمال يسير مع القص في كل لحظة، وللترتيب أثر مهم في جعل الـ"بناء مرناً قابلاً لحركات التمدد والانكماش"^(٢)، فينتقل أثر ثنائية (حياة/موت) من شهرزاد إلى القص نفسه، فالمرونة في التمدد والانكماش تمثل فعل المقاومة في الحفاظ على الحياة في القص نفسه، وهو ما تصفه المؤلفة بخاصية الحركة ضمن الزمن " فالقصص في ألف ليلة وليلة لها خاصية الحركة فهي تتحرك وتقبل الانقسام استجابة لعنصر الزمن"^(٣)، فتجعل الحركة هي الفاعل في تشكل السير القصصي، وبذلك تقصي حالة الثبات، وهو ملحظ مهم إذ جعل المؤلفة بجانب البحث عن بنية القصص في ألف ليلة وليلة، فلا تريد لها أن توصف بأنها نظام مغلق مؤطر ضمن تحولات معينة كما في النموذج العاملي.

التكرار

وهو من القضايا المهمة في نظرية الفوضى، فعلى الرغم مما يفرضه التكرار من قانون المشابهة، إلا أن نظرية الفوضى لا تؤمن بحالة التماثل الكلي، فكل نموذج تكراري يفترض الاختلاف، وهو ما لم تكشف عنه المؤلفة، إذ مرت مروراً

١ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة: ١٢٥.

٢ - م . ن : ١٢٤.

٣ - م . ن : ١٢٤.

الفصل الثالث

سريعا بقولها "والقصص الي ترويها شهرزاد تعكس خاصية التكرار، إحدى خصائص نظرية الفوضى، ففي كل ليلة تستأنف شهرزاد القص. وعند بزوغ الفجر تتوقف عن القص، واعدة بالعودة عند حلول المساء. وتكرار عملية القص لا يعني تماثل القصص فهناك دائما قصص جديدة ترويها شهرزاد لجذب انتباه شهريار"^(١)، فهي تقصر التكرار على نموذج البداية والنهاية كل يوم، من دون أن تتطرق إلى تكرار القصص نفسها وظائفا، أو على مستوى المضامين، كما أنها لم تشر إلى الاختلاف في نوع القصة، على الرغم من أنها تذكر في الجانب التنظيري لنظرية الفوضى أهمية التكرار في نظرية الفوضى^(٢).

ثانيا - لا خطية نص ألف ليلة وليلة: إنّ اللاخطية في نظرية الفوضى من المفاهيم الغنية، إذا ما طبقت على القصص وتحديدًا ألف ليلة وليلة، فاللاخطية تعني أن نتائج حركة نظام ما لا تتناسب مع نقطة انطلاقته^(٣)، وهذا ما تلحظه المؤلفة من مفارقة بين الإطار الأساس والقص الذي يليه، فاللاخطية لا تعتمد على منطق (إما/أو) فالاحتمال فيها حاضر، وكذلك عظم النتائج، فالمتغيرات التي ترافق فعل القص تؤدي إلى عدم مناسبة النتائج، والنظام الخطي قائم على تساوي النتائج مع الشروط الابتدائية مما يوفر إمكانية التنبؤ، وهو ما تقوم عليه السردية البنيوية، وعلى الرغم من فاعلية فكرة التحولات في السرد إلا أنها تخضع لثنائية المنطق (إما/أو)، مما يجعل من القص بناء سرديا يتصف بالبساطة، على العكس من اللاخطية التي تولد التشعب والتعقيد.

١ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة: ١٢٤.

٢ - ينظر: م . ن : ٢٧-٢٨.

٣ - م . ن : ٢٦.

الفصل الثالث

وتحدد المؤلفة أن قصص ألف ليلة وليلة تحمل الخطية واللاخطية معا في تشكل قصصها^(١)، والخطية تبدأ من لحظة بداية ووسط القصة ونهايتها، ذلك هو تصور الخطية عند الدكتورة شريفة، وهو بحاجة إلى عمق معرفي حتى يوظف نقديا، فالخطية نتاج السببية، وللسببية حتميتها، وهذا كله مرتبط بنمط المعرفة المتحصل عليها، بوصفها يقينا، فالخطية ليس كما تصورتها المؤلفة بأنها "سلسلة طويلة من مواصلة الحكيم"^(٢)، إنما هي منظومة النظرية النقدية التي تبحث عن البنية والقانون الذي ينتج المعنى، فالمعنى بوصفه نتاج البنية، يجب أن يكون بينهما تناسب، ومقدار التغيير الحاصل في البنية يساويه تغيير ناتج في المعنى، وهذا بالضد مما تقوله اللاخطية، التي تظهر نتائجها فقط، فنحدد نمطا من الترتيب تخضع له النتائج غير المتناسبة، ولكن من دون معرفة قانونها المنتج لها، وهذا الفارق لم تلحظه المؤلفة، مع أنها تحدد "لاخطية النظام القصصي الجديرة بالاهتمام في هذا العمل الضخم والتي تمثل لاخطية نظرية الفوضى فهي تتبدى في أنّ انطلاقة العمل الأدبي لا تتناسب في الحجم ولا في الأهمية مع باقي العمل"^(٣)، من دون ذكر كيفية حدوث عدم التناسب، وربما عليها أن تشير فقط إلى النتائج غير المتناسبة تمثيلا من النص، بمعنى ما هي النتيجة التي جاءت غير متناسبة مع الإطار الأساس؟.

وتظهر اللاخطية بوصفها آلية مراوغة من قبل شهرزاد، إذ يرتبط باللاخطية الشعب بوصفه محاولة توليد قصص جديدة تعمل على تأخير مقتلها^(٤)، طمعا في تغيير قناعة شهريار، وهذا التصور للشعب يجعله فعلا زخرفيا في القص، فالنهاية

١ - ينظر: نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة : ١٢٦.

٢ - م . ن : ١٢٦.

٣ - م . ن : ١٢٧.

٤ - ينظر: م . ن : ١٢٨.

الفصل الثالث

بحسب هذا التصور منطقية فهي (أما القتل/ أو الحياة) لشهرزاد، وبالنتيجة تخضع المؤلفة لسيرورة التابع الخطي لمنطقية القص في ألف ليلة وليلة، ولم ترتق باللاخطية والتشعب إلى رتبة المنطق الغائم.

وتتخذ اللاخطية عند المؤلفة الطابع الدوري، فدورات القص التي تبدأ في الليل وتنتهي عند الصباح ثم تعود لتبدأ من جديد في الليلة التالية، تلك الدورات تبدو كتدفق لا نهائي من القص الخطي المستمر، ولكن وجودها على شكل دورات يرفد بعضها بعضاً يؤكد لا خطيتها ويجعلها شبيهة بوحدات الأرابيسك الزخرفية^(١)، ثم تذكر علاقة توالد القصص الفرعية وانتهائها قبل نهاية القص الرئيس، هي نوع من لا خطية نظام القص في ألف ليلة وليلة^(٢)، وهذا كله من باب التمثيل للمفاهيم ولا يعد تحليلاً بحسب المفاهيم نفسها.

ثالثاً- الجاذب العجيب: يعد هذا المفهوم من المفاهيم الغنية أيضاً في نظرية الفوضى، وهو يتعلق بحركة العناصر وانتظامها، فالجاذب يمثل نقطة مركزية ترتبط بها جذبا حركة العناصر، فتكون مرتبطة بمركز الجذب، كما في حركة البندول، والجاذب ضمن التصور الأولي نظام خطي، فيقع ضمن المتنّبأ به، أما الجاذب الغريب أو العجيب، فإنه مغاير تماماً، إذ يمتاز بخاصية احتوائه على فطين متضادين مما يخلق غرابته، فهو (يجذب/ينفر) العناصر من حوله، مما يجعله لا خطياً، فنتأجه غير متوقعة، ومساراته لا يمكن التنبؤ بها، فالجواذب العجيبة تمثل

١ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة: ١٢٦.

٢ - م. ن : ١٢٧.

الفصل الثالث

نوعا من المسار الذي يقطعه نظام ما من حالة إلى حالة دون أن يستقر"^(١)، فعدم استقراره هو ما يجعله مفهوما فوضويا.

والدكتورة شريفة ترصد الجاذب العجيب على مستويين، الأول: متعلق بوجود الكتاب ورحلته إلى الغرب، فهي تصف اهتمام الغرب به وتأثرهم بنوع القص الذي يقدمه، يجعل من كتاب ألف ليلة وليلة جاذبا عجيبا، إذ "يمكن النظر إلى كتاب ألف ليلة وليلة في مجمله كجاذب غريب بالنسبة إلى تطور القص في الغرب، فأساليب الكتابة ومنها القص تتغير بمرور الزمن، وعند النظر إلى تطور أساليب القص في الغرب (منذ القرن الرابع تقريبا) كنظام قائم يتصف بالفوضوية ولكن له نوع من الترتيب طويل المدى نجد أن هذا النظام له جاذب غريب هو كتاب ألف ليلة وليلة"^(٢)، فالمؤلفة تعتقد بأن الكتاب نفسه جاذب غريب، والمفارقة في قولها أنها لم تبين سبب الغرابة، ربما كان كلامها صحيحا لو كان مجرد جاذب، ولكن إضافة الغريب أو العجيب، لها شرط معرفي حدده أرياب نظرية الفوضى، وهي لم تلحظ ذلك، مما أدى إلى إصدارها حكما لا تناسب والقضية.

ثانيا: الجاذب الغريب في نص ألف ليلة وليلة، وتحدد "دورة الليل والنهار هي الجاذب الغريب في البنيان القصصي لألف ليلة وليلة"^(٣)، فمسار الحكيم ليلا، وانتهاءه صباحا، يجعل الحكيم منجذبا إلى السيرورة الزمنية، والكلام سليم تماما، فدورة الكلام خاضعة لجاذب الزمن الذي تحاول شهرزاد فرض حركيتها القصصية على شهريار من خلاله، ولكنه لا يتجاوز كونه جاذبا لعناصر السرد القصصي، وليس جاذبا عجيبا، وهو ما تغفل عنه المؤلفة أيضا.

١ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة: ٢٠.

٢ - م . ن : ١٣١.

٣ - م . ن : ١٣٢.

الفصل الثالث

وتضيف المؤلفة أن الجاذب العجيب ليس وحدات القص، إنما الإطار الزمني لحركة القص وهو الليل إلى نهايته، و"الليل الحي المتحرك الغامض هو الوعاء المناسب لقصص الغريب والعجيب والمعقول وغير المعقول"^(١). وبتساءل بدورنا كيف يتلاءم تحديد الليل والنهار بوصفهما امتدادا زمنيا خطيا، مما يمكن التنبؤ بهما، مع كونهما جواذب غريبة وعجيبة؟، فجمعهما يفترض التناقض، مما يفقد التحليل التزامه المنهجي، أي استعمال مفاهيم نظرية الفوضى في تحليل النصوص.

ختاما نقول أن المؤلفة الدكتورة شريفة قدمت للمكتبة النقدية العربية دراسة مهمة جدا، فهي عرفتنا بالمبادئ الرئيسة في نظرية الفوضى، وعملت على تطبيقها، لذلك فهي سترافق كل من يبحث في نظرية الفوضى، اتفاقا واختلافا معها. كما يُشكر لها التزامها الواضح بالمفاهيم، فهي لم تنزلق في نمط الدراسات النقدية الحدائية، إنما حافظت على اشتراطاتها في إجرائها النقدي.

وجهدا يمثل عتبة لنا في التوسع واستثمار المفاهيم النظرية برؤية نقدية تضمن للأدب حياته الثرية.

١ - نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة : ١٣٣.

الفصل الثالث

ثالثا: مفاهيم نظرية الفوضى في الرواية

تمثل أطروحة الباحثة (سعاد بن ناصر) عتبة مهمة في البعد الإجرائي النقدي، من حيث توظيف مفاهيم نظرية الفوضى مثل : الجاذب العجيب، والانتروبيا، والبداية الحساسة للشروط الابتدائية، فضلا عن اللاخطية، في أطروحتها المقدمة عام ٢٠٢٠م، والمعنونة بـ(نظرية الفوضى وتمثلاتها في الرواية الجزائرية المعاصرة)، ويشغل الفصل الأخير من الأطروحة تطبيقيا نقديا لما أسمته الباحثة (سياسات الكايوس في الرواية الجزائرية)، فيظهر فيه (التمثيل) لهذه المفاهيم في الرواية المعاصرة، وستقتصر مهمتنا على تتبع هذا التمثيل، من حيث هو توظيف يحمل في ثناياه تكييف هذه المفاهيم نقديا.

ينقسم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث :

الأول: النظم الديناميكية المعقدة في رواية (محمد علاوة حاجي) في (في رواية أخرى).

ثانيا: إنتروبي المشاهد السردية في رواية (سكرات نجمة) للكاتبة (أمال بوشارب).

ثالثا: اكتشاف الفوضى في رواية (فوضى الأشياء) للكاتب (رشيد بوجدره).

وما نسعى إليه هو بيان مدى تمثل الباحثة لمفاهيم نظرية الفوضى، ومدى مطابقتها، وقدرة الباحثة على تأسيس وعي نقدي قادر على استجلاء سياسات الكايوس في الرواية.

أولا: استراتيجيات الكتابة في الرواية

الفصل الثالث

تضع الباحثة تحت هذا العنوان مفاهيم نظرية الفوضى (١- البداية الحساسة، ٢-الديناميكيات اللاخطية، ٣- الجوانب الغريبة، ٤- التشعب).

وتحدد الباحثة إطارا حديًا للفوضى بقولها " نظرية الفوضى بمفهومها الحديث تعني ذلك القانون الخفي المعتمد على عناصر حساسة جدا، تساهم مع مرور الوقت في إحداث كوارث عظيمة، وتملك الفوضى قوانينها الداخلية، وهي قوانين مرتبة بدقة فائقة، إلا أنها متكررة، ومتغيرة، وذلك التغير المتكرر الذي يجذب لنقاط معينة محددة لطريقة سيره وبالتالي شكله النهائي، هو الذي يصنع الفوضى رجوعا أو نسبة إلى درجة الحركية وسرعتها أو هدوئها، وهذا كله يعود إلى مدخلات النظام، فكلما اغتتى النظام بمدخلات (هي بدايات جديدة) كلما كانت مخرجاته (النتائج) أكبر وأضخم وأكثر تأثيرا"^(١).

ويمكن تحديد ركني هذا التعريف بـ(القانون) و(التغير التكرار)، وهذه الرؤية المفهومية تنطلق من فرض أولي هو وجود نظام، بمعنى أن كل تغير يمكن أن يحدث هو متغير حدث تحت مظلة النظام، وهذا الوجه المفهومي يعارض نظرية الفوضى علميا وفلسفيا، فافتراض وجود قانون يعين افتراض وجود نموذج مثالي يحكم الظواهر، حتى وإن كان خفيا، وفلسفيا يبرر الاختلاف الناتج عن التغير المستمر برده إلى مقولة التماثل، وهذا ما ترفضه نظرية الفوضى.

إذ أن الواقع الذي ترتبط به نظرية الفوضى مبني بحسب فكرة التحول، مما يعني تجرد القانون من طابعه اليقيني، فمن غير الممكن أن يوصف ما هو فوضوي بأنه قانوني.

^١ - نظرية الفوضى وتمثلاتها في الرواية الجزائرية المعاصرة: ٢٢٧.

الفصل الثالث

إن هذا التعارض المؤشر في تصور الفوضى مفهوماً أفقد الاشتغال النقدي هدفه الرئيس، وهو بيان إمكانية انفتاح السرد على التغير المستمر، بصوفه سيرورة سردية، مما أدى إلى خلل في المنظومة المعرفية التي يجب أن يؤسس عليه النقد، بلحاظ التغير المعرفي الذي قدمته نظرية الفوضى.

ولذلك نجد الباحثة في تعاملها مع (البداية الحساسة)^(١) تحدد ما تقدمه الرواية من اشتراطات أولية يُفتتح بها السرد، وترصد الباحثة أمراً مهماً وهو أن الرواية التي تقدم التفاصيل الأولية، على أساس أن هذه التفاصيل تساعد في (إيضاح) هذا المفتوح وما سيؤول إليه وضع الشخصيات معه، إلا أن هذه التفاصيل "تجعل الأمر أكثر تعقيداً"^(٢)، وهو ما يولد متاهة الاحتمالات، بحسب رؤية الباحثة، إلا أنها لا تقف بشكل نقدي على ما يسفر عنه التأثر بالشروط الابتدائية، بمعنى أنها لم تقدم لنا كيفية تأثر هذه التفاصيل البسيطة وغير المحسوبة في حركة السرد وشخصه، فهي لم تضع يدها على التفاصيل التي يمكن عدّها غير مؤثرة، والتي تعطي النتائج الكارثية مع تقدم حركة السرد، فالرواية التي تقدم تفاصيل كثيرة ومتعددة بشكل مدروس ومحسوب لا يكسبها طابعاً فوضوياً، مما يجعل إجراءاتها النقدي ينفصل عن أصله المعرفي الذي بني عليه، فالأصل هو تحديد تأثير ما لم يكن أو يُقصد أن يكون مؤثراً، وهذا ما تقدمه نظرية جناح الفراشة، من أن الخطأ غير المحسوب له نتائج غير متوقعة، مما يجعل سؤال الباحثة عن "العوامل التي أدت إلى الوصول إلى هذا الشكل الجديد من النظام"^(٣) غير مُنتج بحسب نظرية الفوضى.

١ - نظرية الفوضى وتمثلاتها في الرواية الجزائرية المعاصرة: ٢١٦.

٢ - م. ن. : ٢١٣.

٣ - م. ن. : ٢١٥.

الفصل الثالث

إلا أن رؤية الباحثة عن (اللاخطية) جاءت أكثر صوابا من رؤيتها عن الشروط الابتدائية، والباحثة تؤكد على أن الطابع اللاخطي يعني أن المتغير الذي يضاف في البداية بوصفه مدخلا جديدا في المعادلة، لا ينتج ما يساويه في النتائج، وهذا ما رصدته الباحثة في المقدمات التي تنسج بحسبها شخصية (س) في الرواية وهو بطلها، والذي يوصف بأنه مصاب بمرض نفسي (الفصام)، مما يجعل العشوائية تظهر في الرواية بلحاظ "ذلك التفاوت والبون الشديد بين السبب والنتيجة"^(١)، ولعبة السبب والنتيجة هي آلية لصنع المفارقة في تسبيب الأحداث، ويخلق حالة من التوالدي التشعبي "فكل حدث يتضمن بداية حدث آخر من جهة ما في المسار السردى وهذا ما يخلق حركية تبدو عشوائية"^(٢)، مع التأكيد على أن العشوائية تفقد قيمتها إن كانت مقاسة من قبل المؤلف، وهذا ما تحدده الباحثة بقولها: "المتغير العشوائي هو المتغير الذي يتم الحصول على قيمته نتيجة لتجربة عشوائية، تلك النتيجة هي التي يسعى الراوي للوصول إليها؛ لأنه لا يملك خلفية ثابتة عن شخصية (س)"^(٣)، وعليه تكون حركة السرد غير متوقعة إذ لا تعتمد الخطية في سير الأحداث، مما يجعل رواية (في رواية أخرى) "تكتسب حركية وديناميكية على شكل (دوامة) دائرية تنمو وتتطور مع كل حدث، ما يعني أنها ليست ثابتة بل متغيرة، وتدخل فيها عناصر جديدة في كل مرة تمنحها بعدا جديدا وغير متوقع باستمرار"^(٤).

تستعمل الباحثة (الجواذب الغريبة) أو العجيبة، وكما بينا في الفصل الأول أن مصدر العجب في الجاذب هو امتلاكه في أصل تكونه حركة تضاد قوامها حركتين

^١ - نظرية الفوضى وتمثلاتها في الرواية الجزائرية المعاصرة: ٢١٩.

^٢ - م. ن: ٢١٨.

^٣ - م. ن: ٢١٨-٢١٩.

^٤ - م. ن: ٢١٩.

الفصل الثالث

(التجاذب/التنافر)، فالجذب يولد حركة تجاه مركز معين، والتنافر يولد حركة مضادة، مما يجعل الجاذب يخلق حركات غير متوقعة، فتوصف بأنها لاتنبؤية، وهذا ما يجعل الجاذب الغريب مختلفا عن الجاذب البسيط، والذي يقتصر على فعل الجذب فقط، مما يجعل حركيته تقع ضمن المتنبأ به، والباحثة تخفق في توظيف الجاذب العجيب، على الرغم من تلميحها عن خاصيته الضدية "هل هناك هدوء ومناطق حركة؟ أم أن السرد هنا يسير بحركية متناسقة حتى نهايته"^(١)، ولقد اقتصر عمل الباحثة على الجاذب البسيط وليس الغريب، ولم تسع لاستكشاف التجاذب والتنافر في الأفعال، وتذكر الباحثة "وقد لفت انتباهنا كون الجواذب واردة على شكل أسئلة تهكمية ساخرة، كما وردت أقوالا واعية حكيمية، شكّلت معنى خفيا وعميقا يؤسس للرواية كيان سردي ذو توجه خاص، حركيته تكون عبثية مطلقة، واستقراره يخفي دسائس للمعنى تجذب السرد إلى مناطق واقعية، هي واقعية سوداء"^(٢)، وحديثها عن الجواذب ومراكزها ضمن طابعها البسيط، أي نقاط معينة (أسئلة ساخرة) لها أثر في توجيه القارئ وتركيزه على اتجاه معين، معتمدة على أن لها (حركية عبثية) تخفي (استقرارا) له حمولة معنوية، فتعتقد الباحثة أن حركيتها العبثية يقابلها بالضد الاستقرار المعنوي المخفي، وهذا غير صحيح، فالشخصية (س) مصابة بالفصام، وكل حدث أو كل مركز جذب يولد حالة من الحركية نحو مركزه، ومركزه لا بد له حمولة معنوية معينة، وعليه فالباحثة لم تستطع أن تستكشف فاعلية الجاذب العجيب أو الغريب، لأنها اقتصرت على الجاذب البسيط.

^١ - نظرية الفوضى وتمثلاتها في الرواية الجزائرية المعاصرة: ٢٢١.

^٢ - م . ن : ٢٢٢.

الفصل الثالث

ثانيا: إنتروبي المشاهد السردية

توظف الباحثة سعاد بن ناصر فكرة التحول (الانتروبي) في رواية (سكرات نجمة)، جاعلة الإنتروبي خصيصة متأصلة في المشهد السردى، قاصرة المشهد السردى على شخصيات الرواية.

والإنتروبي هو مقياس لحالة الفوضى والاضطراب في الكون، مقياس للنسبة، فهو يتعلق بحالة الازدياد والقلّة أو النقصان، فكلما كانت الفوضى واضطرابها مرتفعا، كلما كان الإنتروبي في أعلى مستوياته، وهذا يعني أن نمطا من الاتزان قد حدث بين عناصر الظاهرة، والاتزان مرتبط بتعدد الاحتمالات التي يمكن تتحول إليها الظاهرة، وبفعل مؤثر خارجي يحدث التحول، فيكون الاتزان علامة على انعدام النظام، والتحول إلى حالة النظام يعني اصطفااف العناصر وتجمعها فتشكل نظاما مغلقا في حالة توتر، هذا النظام مؤشر على نقصان الانتروبي، مما يجعل الفوضى تتراجع إلى أدنى مستوياتها، وبالنتيجة تقلص تعددية الاحتمالات، فتكون الظاهرة محتكمة إلى السبب والنتيجة وطابعها الحتمي.

إن فاعلية الازدياد والنقصان ترتبط بالزمن، كما يظهر عند إيليا بريغوجين، والتصور الزمني للإنتروبي يشير إلى توجه الزمن نحو المستقبل في حالة ازدياد الانتروبي، ونقصانه يعني أن الزمن ضمن حدود الماضي، مع ملاحظة مهمة وهو أن سهم الزمن يتجه نحو المستقبل دائما، مما يجعله لا عكوسيا، فلا يمكن الحركة مع الازدياد رجوعا بالزمن إلى الماضي، وهو ما يجعل الانتروبي تتجه دائما نحو المستقبل، وبالتالي مؤشر ازياها يبحث عن التوازن، أي عن الفوضى، وعلى ذلك يمكن تحديد الزمن الماضي من غيره بلحاظ الازدياد والنقصان في الإنتروبي.

الفصل الثالث

الإنتروبي	تحول	الإنتروبي
مرتفع		قليل
فوضى		نظام
مستقبل		ماضي

ويربط بريغوجين ذلك بلحظة تشكل الكون وهي لحظة الانفجار الكبير، والذي يمثل حالة من ازدياد الإنتروبي، ثم حدث التحول الذي أنتج النظام الحالي، والذي يسير بدوره مع حركة الزمن وبحثه عن حالة الاتزان ذات الاحتمالات المتعددة، إي زيادة الإنتروبي مرة أخرى.

ويعد الإنتروبي مؤشرا لحالة التطور، وهو تصور يتجاوز فكرة الموت الحراري، فإننا في لحظة ما يتحرر الكون من نظامه المغلق، مما يؤدي إلى تطور حياة أخرى، تمر بسلسلة التحول نفسها^(١).

تسعى الباحثة إلى اكتشاف الإنتروبي في مشاهد رواية (سكرات نجمة)، منطلقة من فرض مؤداه أن "ما يشد الانتباه في هذه الرواية هو ازدياد درجة عدم التوازن كلما تكثفت تفاصيل الأحداث عند كل شخصية على حدة، وهو ما يعد من العناصر المهمة لإبداع رواية بوليسية، أو رواية تحقيقات، وازدياد التعقيد شيئا فشيئا يؤكد أن الحالة الأولى للأحداث لم تكن سوى الماضي، بينما يتشكل المستقبل في غموض معقد"^(٢)، إذا فالرواية قائمة على حدث أول يقع في الزمن الماضي،

^١ - ينظر: نظام ينتج عن الشواش: ٣٧٢.

^٢ - نظرية الفوضى وتمثلاتها في الرواية الجزائرية المعاصرة: ٢٣١.

الفصل الثالث

وبحسب مؤشر الزمن والإنتروبي فإنه يمثل حالة نقصان في الإنتروبي، هذا الحدث هو مقتل بطل الرواية (إلياس ماضي)^(١).

تقتصر الباحثة الإنتروبي على العلاقة بين شخصيات الرواية والمعلومات التي تتلقاها منطلقاً من توظيف كلود إيود شانون للإنتروبي في نظرية المعلومات^(٢)، ونظرية شانون قائمة على أن "كمية المعلومات لا تتعلق بالعبارة بحد ذاتها، وإنما تتعلق بمتلقي المعلومة. وترتبط بكمية (المفاجأة) التي يشعر بها عندما يسمع هذه المعلومة. فمثلاً لو أخبرتك بأن الطقس غدا سيكون ماطراً وبارداً جداً، قد تستغرب جداً من ذلك إذا كنت في منتصف الصيف، وتعاني من يوم حار، بينما لو أخبرتك نفس المعلومة في منتصف الشتاء فإن ذلك لن يعني لك الكثير، فأنت (تتوقع) ذلك، إذاً كمية المعلومات تتعلق بالاحتمال وبالتالي لن نعتمد الطريقة التقليدية في إيجاد مقياس لكمية المعلومات ... إنما سنحاول إيجاد تابع رياضي، هذا التابع يعبر عن المفاجأة التي نشعر بها عند وقوع حدث ما. ويجب على هذا التابع أن يحقق مجموعة من الصفات التي (نتوقعها) في تابع قياس كمية المعلومات"^(٣)، فهو يقيم علاقة بيم الشخصية والمعلومات، وما ينتج عنها، وما يؤشر على وجود الإنتروبي هو حالة اللاتوقع، وإلى هذا تستند الباحثة فـ"من خلال هذا المقياس ارتأينا أن نقيس نسبة المفاجأة والحيرة واللاتوقع في الرواية، ولكن بالنسبة للشخصيات بين بعضها داخل الرواية"^(٤) وعلى هذا فإن الباحثة تحاول الكشف عن حالة التحول في الشخصيات، جاعلة من الإنتروبي مقياساً لتحديد فوضى الرواية.

^١ - ينظر: نظرية الفوضى وتمثلاتها في الرواية الجزائرية المعاصرة: ٢٣١.

^٢ - ينظر: م . ن : ٢٣٣.

^٣ - م . ن : ٢٣٣-٢٣٤.

^٤ - م . ن : ٢٣٤.

الفصل الثالث

تقسم الباحثة شخصيات الرواية بحسب معيار المفاجأة واللاتوقع :

الشخصيات	المفاجأة ومستوى الإنتروبي
المحقق إبراهيم	في أوج الإنتروبي
سي عبد الله	حالة الانتقال من النظام إلى المفاجأة واللاتوقع
يما مريم	تمثل النظام إذ لا شيء يفاجئها
الخالة كاترينا	مناظرة ليما مريم
سهيلة، مسيوى امزيان، د. شنييت، مدام صفري	الانتروبي قليل فلا مفاجأة لديها
داميا بن هارون	الإنتروبي في حالة ازدياد

يعتمد هذا التصنيف على نسبة الإنتروبي والذي يرتبط بتحقق المفاجأة وازدياها، فنجد صنفين، الأول تمثل المفاجأة حضورا بارزا، مما يجعل الانتروبي في نمط متزايد، والثاني تكون فيه المفاجأة معدومة، مما يعني قلة الانتروبي، هذا بلحاظ المعلومات المقدمة إلى هذه الشخصيات.

والباحثة تؤكد على أن هذا التداخل بين الشخصيات وتفاعلها ضمن شرطية انتروبي المعلومات هو من يخلق حالة التشويق في الرواية، أو يمكن أن تُصنف بحسبه الرواية بأنها رواية بوليسية⁽¹⁾.

¹ - ينظر: نظرية الفوضى وتمثلاتها في الرواية الجزائرية المعاصرة: ٢٣١.

الفصل الثالث

والباحثة اقتصرت الانتروبي على المعلومات من دون مراقبة لحالة التحول على مجرى السرد، فتعاملت مع المشهد السردى بوصفه قطعة ساكنة، فكان إجراؤها النقدي لا يخرج عن كونه وصفا، فحالة المفاجأة واللاتوقع التي تظهرها الشخصيات لا تخرج عن حالة الوصف، وذلك من دون بيان أثر هذه المفاجأة والانتروبي في خلق تنظيم جديد، إذ تمثل التعددية والاحتمالية مدخلا لخلق نظام مغلق، وهو ما لم تؤسس له الباحثة.

والباحثة لم تقف على ما تقضي إليه فكرة الانتروبي، من بيان حالة التفاعل التي تنشأ من علاقة المتلقي بالرواية، فالعلاقة بين خطاب الرواية واتصاله المباشر بالمتلقي ينتج عنه تحولا في (فهم) الرواية وتأيلها، وأظن أن ذلك هو عدم تظيف الباحثة لرؤية بريغوجين بشكل مباشر عن الانتروبي، ومدى قدرة الانتروبي على خلق النظام من الفوضى.

كما أن الباحثة فرضت أن ازدياد الانتروبي يؤدي إلى عدم التوازن^(١)، وهو فهم خاطئ لفكرة بريغوجين عن الانتروبي ونظرية الفوضى، إذ يؤكد بريغوجين على أن ازدياد الانتروبي يؤدي إلى التوازن العلاقات بين عناصر الظاهرة، وهو ما يعطها صفة الانفتاح، أي قابليتها على التحول إلى ما هو غير متوقع، وعلى العكس منه تمثل حالة قلة الانتروبي انتاج ما هو متوقع، لأنه يقع ضمن اللاتوازن، إذ تجتمع عناصر الظاهرة مشكلة نظاما مغلقا.

ترتكز مقاربتنا لأطروحة الباحثة سعاد بن ناصر على الجانب الإجرائي، أي تمثل مفاهيم نظرية الفوضى على مستوى النقد الأدبي، فاعتنينا بقدرة الباحثة على التكييف النقدي، وبما أن نظرية الفوضى -بوصفها نظرية- تقدم تفسيراً لظواهر

^١ - ينظر: نظرية الفوضى وتمثلاتها في الرواية الجزائرية المعاصرة: ٢٣١.

الفصل الثالث

الكون، فإن تفسيرها ينبني بحسب أسس معرفية، وهذا هو ما أسمىناه بالأثر الذي أحدثته نظرية الفوضى في النظرية النقدية، أنها تجاوزت المنظومة المعرفية التي بنيت عليها النظرية النقدية الحدائية، فلم يكن النظام هدفها، ولم تحفل بعملية الفصل للثنائية المتضادة، وهذا ما يجب على الباحثة أن تدركه، لأن الفوضى مرّت بمراحل حتى تكون نظرية، فهي في صورتها الأولى كانت مقولة مضادة للنظام، ضمن التصور السلبي، ومن ثم أدركت الفوضى بوصفها المادة الأولية التي تشكل منها النظام، إلا أنها بقيت ضمن حدود السلبية، والتحول الحقيقي الذي ظهرت معه الفوضى بوصفها نظرية تفسيرية كانت مع جهود إدوارد لورنز، واكتملت مع طروحات إيليا بريغوجين، في تأصيله للإنتروبيا، وعلى المستوى الفلسفي مثلت طروحات جيل دولوز الأثر الأعظم في بيان وظيفة الفوضى في تشكيل المفاهيم وإعطائها صفتها الرئيسة بأنها ترتبط الواقع، وما النظام إلا صورة من صور تحيين السديم الفوضوي الثر.

وبحسب ما تقدم فإن الوصف الذي يطلق على الرواية بأنها (فوضى) يجب أن يضع تصورا كليا يكشف عن أي فوضى نتحدث، وفي أي مرحلة من مراحل تمظهرها.

وهذا ما لم تفعله الباحثة في المبحث الثالث والذي عنوانته بـ(اكتشاف الفوضى في رواية فوضى الأشياء للكاتب رشيد بوجدره)⁽¹⁾، وعند وقوفها على (اكتشاف) الفوضى في رواية (فوضى الأشياء) تصف الباحثة الكاتب وكأنه قد نسج روايته معتمدا على طروحات نظرية الفوضى، بوصفها توجهها علميا مبنيا على أصول معرفية مغايرة للخطاب العلمي، فتوظيف الجواذب الغريبة من قبل الباحثة لا يجعل الرواية مؤسسة على نظرية الفوضى.

¹ - ينظر: نظرية الفوضى وتمثلاتها في الرواية الجزائرية المعاصرة: ٢٥٣.

الفصل الثالث

والباحثة تعمل في هذا المبحث على رصد مواطن ذكر الفوضى في الرواية، فترصد سبعة مواطن تمثل قضايا معينة في الرواية تصنفها الباحثة بأنها فوضوية من حيث هي نظرية^(١)، ولكن عند الوقوف على ما قدمته الباحثة في هذه المواطن، نجد أن الكاتب يبني روايته (فوضى الأشياء) على أساس التصور الأول للفوضى بوصفها اللانظام، أي بوصفها مقابلا للنظام، وبذلك فالرواية تمثيل لحالة الفوضى ضمن قيمتها السلبية.

القضية	وصف القضية
المدينة	مضطربة مكلومة مجروحة
علي رأس الكابوس	شبه إنسان، انحلال مادي ومعنوي
شباب أكتوبر	هستيريا وجنون
سيلين	فوضى السياسة وفكرة التحزب
فوضى القبيلة	العلاقة السلبية بين الأم والأب والتوأم
شجرة التوتة	تتعري من لونها
فوضى ثورة التحرير	فقدان الأخ بداية الكارثة

وهذه القضايا وما تحمله من وصف على مستوى الرواية يكشف عن تصور المؤلف لكلمة الفوضى التي وضعها عنوانا لروايته، إنه يتحدث عن نموذج سلبي مثل في الرواية بأنه جروح، جنون، علاقات سلبية، فقدان، تعري، وكلها ترتبط بفكرة النظام وعملية خلخلة النظام.

^١ -ينظر: نظرية الفوضى وتمثلاتها في الرواية الجزائرية المعاصرة: ٢٦٤-٢٦٦.

الفصل الثالث

وهذا البيان الذي تنقله الباحثة عن الرواية يجعل من الفوضى المقصودة هي التحول من النظام إلى اللانظام، وهو تحول أثر على السارد مما جعله يستعمل تكرارياً مجموعة من الكلمات "خوف، هوس، قلق، فوضى"^(١)، فالفوضى التي يرمي إليها الكاتب ليست من تصورات نظرية الفوضى، إنما مرتبطة بالفوضى بوصفها خرقاً يؤثر لسبباً على سيرورة النظام، لا بوصف الفوضى تحولاً إيجابياً.

فالرواية تؤكد على حالة فوضى الأشياء بالنسبة لحالة النظام الذي كانت عليه، مما يجعل من هذه الفوضى غير منتجة، على العكس تماماً من تصورات نظرية الفوضى، والتي أكد على فاعلية التطور الإيجابي لحضور النمط الفوضوي في الظواهر.

وهذا ما أثر على التكييف النقدي للباحثة، إذ جعلها تقارب الرواية بحثاً عن مفاهيم نظرية الفوضى ولكن انطلاقاً من تصور بنيوي، فهي تبحث عن بنية الرواية التي تظهر الفوضى في الأشياء.

والكاتب يذكر ذلك الخروج عن النظام، وهو ما تنقله الباحثة، لكنها لا تصنفه، فهو يذكر أن التحول من النظام إلى اللانظام يؤدي إلى الموت والقتل^(٢)، فالرواية تظهر الفوضى بوصفها قيمة سلبية، وهو مغاير لما قدمته نظرية الفوضى، والسبب في ذلك هو التأسيس القبلي، أو التصور المسبق الذي فرضه عنوان الرواية (فوضى الأشياء)، وهو ما دفع الباحثة للبحث عن (اكتشاف) هذه الفوضى، لكنه اكتشاف غير منتج، لتعارض النظرية مع تصور الفوضى عند المؤلف، ففوضاه تقع بالضد من تصورات نظرية الفوضى وهو ما لم تلتفت إليه الباحثة.

^١ - نظرية الفوضى وتمثلاتها في الرواية الجزائرية المعاصرة: ٢٦٧.

^٢ - ينظر: م . ن : ٢٦٣.

الفصل الثالث

إنّ هيمنة هذا التصور القبلي، وهو أن الرواية مبنية سرديا بحسب تصورات نظرية لفوضى عسر فعل الاكتشاف على الباحثة، وهذا ما انعكس على خلل في فهم أصول نظرية الفوضى المعرفية، لأن الباحثة تحاول أن تطبق فكرة الجاذب العجيب مرة أخرى في هذه الرواية، وهي تعشل مرة أخرى في فهم هذا المفهوم، مما جعلها تخلط بين الجاذب البسيط والجاذب الغريب أو العجيب.

تعرف الباحثة الجاذب العجيب بأنه "مجموعة نقاط ثابتة أو متغيرة حسب النظام المتواجدة فيه، وتحدّد درجة ديناميكيتها طبيعته، سواء أكان مركبا معقدا أم بسيطا، وتتأثر ديناميكية الجواذب بصفة دائمة، فتزيد وتقل حسب المؤثرات الداخلية والخارجية"^(١)، فلكل جاذب مركز يجذب فيه عناصر الظاهرة نحوه، مما يخلق حركة معينة، توصف بأنها بسيطة، أو دورية متكررة، أما العجيب، فإنه يتخذ بالإضافة إلى فعل الجذب فعلا آخر هو التنافر، مما يجعل الحركة غير مقيدة، بل ويجعلها غير متوقعة، وعلى أساس هذه الرؤية لا يعد الجاذب البسيط ولا الدوري المتكرر جاذبا عجيبا^(٢)، لأن العجب والغرابة مرتبطة بنوع الحركة التي يظهرها الجاذب، لقيامه في أصل وجوده على فعلين متضادين^(٣) وهو ما يعد مصدرا للعجب في حركة الجاذب.

والباحثة تتعامل مع مراكز الجذب في الرواية بحسب تصورها للجاذب البسيط والمتكرر، وكلاهما خارج معطيات نظرية الفوضى، لأنها مما يقع تحت حتمية التنبؤ^(٤).

^١ - نظرية الفوضى وتمثالاتها في الرواية الجزائرية المعاصرة: ٢٥٣.

^٢ - ينظر: نظرية الفوضى وعلم اللامتوقع: ١٦٢.

^٣ - ينظر: الهولوى في الكون: ٩٢.

^٤ - ينظر: نظرية الفوضى وعلم اللامتوقع: ١٦٢.

الفصل الثالث

تحدد الباحثة بحسب تصورها مراكز الجذب في الرواية وهي "العاطفة والإدراك والذاكرة والخبرة"^(١)، ومن ثم تعمل على بيان كل مركز منها بشرح تفصيلي، فتحاول أن تظهر أي المراكز أكثر حضورا وهيمنة في الرواية، وما توصلت إليه أن الذاكرة هي المركز المهيمن "فالذاكرة ظاهرة ومهيمنة على السرد"^(٢).

وعليه فإن الذاكرة تتمظهر بوصفها جاذبا عجيبا في الرواية بحسب رؤية الباحثة، معتمدة على خاصية التكرار التي يجنح إليها المؤلف مع إضافته أو إحداثه لتغيرات في المادة الذاكرية المتكررة^(٣)، وتضرب لذلك التكرار "المتداخل والفوضوي"^(٤) مثلا من الرواية عندما يصف المؤلف علاقة الأم بالأب على لسان السارد "فكان أبي يمارس مع أمي نوعا من العلاقة الغامضة التي يصعب تسميتها، أي علاقة غير بيّنة، بل فوضوية، عشوائية، غير متجسدة، شبه مجردة، تكاد تكون مرضية، فاحشة، لا أخلاقية، فاسقة، ماجنة ... لأنهما كانا مختلفين اختلافا بيولوجيا وميتافيزيقيا وشاملا، إذ أنها أمي تمثل السذاجة والعفة والعفوية وكأنها شبه غريبة عن نطاق الحياة، خارجة عنه، وأما أبي فيمثل الدهاء والحذق والمهارة وروح المراوغة"^(٥)، والنص يتحدث عن علاقة الأب بالأم، هذه العلاقة تقع ضمن حيز الأب، أي هو من يسيرها، ولكنها بحسب السارد خارجة عن النظام، لأنها -أي العلاقة- فاسقة وفاجرة ولا أخلاقية، ولأنها خارج النظام الأخلاقي، عدّها السارد فوضوية، لأنها ببساطة محكومة بالتصور الخاص للفوضى عند المؤلف، فالفوضى لديه تمثل (اللانظام)، ولذلك لا يمكن عد هذه العلاقة جاذبا عجيبا، إذ لا تولد هذه العلاقة

١ - نظرية الفوضى وتمثلاتها في الرواية الجزائرية المعاصرة: ٢٥٣.

٢ - م . ن : ٢٥٥.

٣ - ينظر: م . ن : ٢٥٥.

٤ - م . ن : ٢٥٦.

٥ - فوضى الأشياء: رشيد بوجدر، نقلا عن : نظرية الفوضى وتمثلاتها في الرواية الجزائرية المعاصرة: ٢٥٦-٢٥٧.

الفصل الثالث

حركة غير متوقعة ولا تنبؤية، إذ نمط العلاقة بين الأب والأم حتمي التصور لا يخرج عما وصفه المؤلف على لسان السارد.

والباحثة تغفل عن جاذب غريب في بحثها، تذكره من دون أن تعمق طابعه الضدي في الرواية، وما يمكن أن يتأسس بحسبه من العلاقات بين الشخصيات، إذ يستحضر السارد نمطا من العلاقات اللاشعورية المرتبطة بعقدة أوديب، فيتولد منها نوع من السلوك الضدي، فالذكريات تفرض حضورها على الشخصية، لأنها جزء من بنيته النفسية، وفي الوقت نفسه يسعى للتخلص منها لما فيها من أثر مرضي يؤثر عليه، فبين الاحتفاظ بالذكرى ومحاولة التخلص تنشأ سلوكيات غير متوقعة، يمكن لنا أن نصفها بأنها مركز جذب عجيب، وما تكتفي به الباحثة هو " فهو خوف فوضوي يتكون من تشوشات الذاكرة العائلية"⁽¹⁾ فقط من دون بيان لأثر هذا التضاد على سيرورة السرد في الرواية.

¹ - نظرية الفوضى وتمثلاتها في الرواية الجزائرية المعاصرة: ٢٥٨.

الخاتمة

١. أسس الخطاب العلمي لغويا واصطلاحيا للفوضى بوصفها مقابلا للنظام، تقابلا تراتبيا، مما يجعل الفوضى مصدرا للتشويش والخلخلة والتغير المستمر.
٢. اتفقت الرؤية العلمية مع الرؤية الأسطورية للفوضى، وذلك بإقصائها، ومن ثم التأسيس لمقولة النظام بوصفها مصدرا للمعنى والحقيقة.
٣. ترتب على مقولة النظام وإقصاء الفوضى تشكيل الحقل الأخلاقي القيمي، فالنظام مولد الخير والنور، والفوضى مولد الشر والظلام.
٤. أسس الخطاب العلمي لمقولته المعرفية الرئيسة البحث عن الثابت، بوصفه معيارا للكشف عن انتماء الظواهر لمقولة النظام.
٥. أكد الخطاب العلمي على مقولة المنهج الاستقرائي، بوصفه معيارا للمعرفة، فما كان خاضعا للمنهج يعدّ علميا، وما يشذّ عن ذلك يصنف بأنه فوضى.
٦. استثمرت النظرية النقدية هذه المفاهيم العلمية، مما جعل النقد آلية للكشف عن المبادئ والقوانين التي تحكم التجربة الأدبية.
٧. قدمت نظرية الفوضى رؤيتها عن علاقة الإنسان بالطبيعة، بتأكيدا على الاتصال بين الذات والموضوع، انطلاقا من حالة التعقيد التي تكتنف الظواهر الطبيعية، فالانتظام سمة هذه الظواهر إلا أنها لا تُظهر قوانين التعقيد، مما يجعل التنبؤ بما سيكون أمرا غير ممكن.
٨. وبما أن اللانظام هو الأصل في الظواهر الطبيعية، أكدت نظرية الفوضى على السيرورة اللاخطية للظواهر، والتي تعني أن المبادئ الأولية تولد، بسبب الظروف المحيطة، نتائج مغايرة للشروط الأولية.

الخاتمة

٩. إن اللاخطية جعلت الفوضى تكسب الأخطاء البسيطة، والتي يتجاوزها الخطاب العلمي، أهمية كبرى، لما لها من أثر في النتائج المغايرة للشروط الابتدائية.

١٠. قدمت نظرية الفوضى مفهوم الجاذب العجيب، والذي يتأسس على حالة من الاشتراك بين المتضادين، وهو ما يولد حالة التعجب، فينطوي على فعلين في أصل وجوده، وهما التنافر والجذب، وهما في حالة تواصل.

١١. قدمت الانتروبيا صورة مغايرة لصورة الخطاب العلمي للظواهر الطبيعية، فقد جعلت الانتروبيا في زيادتها الفوضى هي الأصل، و في حالة نقصان الانتروبيا يتشكل انتظام معين، هذا الانتظام ضمن السيرورة الزمنية قابل للتحويل وزيادة الانتروبيا، وهو ما يسمى بالانتظام الذاتي.

١٢. قدّم التحليل النفسي عند سيغموند فرويد وجاك لاكان تصورا مغايرا لما قدمه الخطاب العلمي، ولما أسست عليه النظرية النقدية، فلم يعد الوعي والعقل هو مصدر المعرفة، فأشاروا إلى فاعلية اللاوعي في تشكيل الذات، وهو تصور جعل الفوضى مصدرا وأصلا للنظام، لما نجده من تساوٍ في الصفات التي تشترك بين الفوضى واللاوعي. وهذا ما دفع جاك لاكان إلى قلب الكوجيتو الديكارتي، فالحقيقة ليس ما يقدمه النظام، إنما ما نجده في الفوضى، وهذه الرؤية هي مفتاح التغيّر المعرفي للنموذج العلمي، إذا بيّنت أثر اللانظام في تشكيل المعرفة.

١٣. تعدّ طروحات جاك دريدا منفذا مهما لبيان المغايرة المعرفية بين نظرية الفوضى والنظرية النقدية، إذ أخذت التكيكية بوصفها استراتيجية على عائقها، بيان المفارقة المعرفية التي تأسست بحسبها النظرية النقدية، فمقولة النظام وما يجاورها من مفهوم الاختلاف والعلامة، بُنيت على مقولات ميتافيزيقية، تؤكد على إقصاء الفوضوي، وهو ما أنتج نظاما يتسم بالانغلاق كما تصور نيوتن الكون،

الخاتمة

وعمل دريدا انصّب على كشف عدم إمكانية الانغلاق، فبيّن فاعلية الفوضى في تعمية حدود النظام، مما ولد مقولة اللانظام ممهدا للانهائية.

١٤. وجهت التأويلية عند هانس جورج غادامير سهامها تجاه الأسس المعرفية للنظرية النقدية، فلم تعد ثانية الذات/ الموضوع ذات علاقة انفصالية، وهذه الأخيرة تؤسس للموضوعية، فكشفت لنا التأويلية عن إمكانية التأثير المتبادل بين الذات والموضوع مما يجعل الاتصال هو القيمة العليا لها، مستندة بذلك على فلسفة هايدغر. وأكدت على قيمة الحوار بديلا عن حالة الكشف النقدي، مما يجعل النقد اثرا إبداعيا، يراعي السياق الثقافي للذات والسياق الثقافي للموضوع الذي أنتج فيه النص، وحضور النص في سياق مغاير للحظة إنتاجه، مما يجعل من تعدد المعاني وتنوعها، وبالنتيجة اختلافها، هو الأصل، وهو ما ترفضه النظرية النقدية التي تعطي أهمية للكشف المنهجي، وهذا الكشف بفعل مقولة النظام والبنية يتسم بالثبات مما يجعله خراج التأثير الزمني والثقافي. ولذلك عارض غادامير سيرورة المنهج في النظرية النقدية واصفا إياه بالسكونية، ما يجعله مصدرا للحقيقة والمعنى، وهو بذلك يلغي حالة التفاعل التي تنتج عن حالة الحوار بين الذات والموضوع.

١٥. تبنت النسوية فلسفة ونقدا طروحات نظرية الفوضى، فلحظت حالة الإقصاء لما هو أنثوي وطبيعي ولا شعوري، مما جعلها تماثل بين نظرية الفوضى والفلسفة النسوية، مؤكدة على عقم المنهج التجريبي بوصفه معطى ذكوريا، فتوجهت إلى الحدسية وما يتصل بها من رؤية شمولية تتجاوز حالة الاختزال والتجزئة العلمية، متبينةً التصور الدائري بديلا عن الخطية.

١٦. قدم المنجز النقدي للناقد محمد مفتاح رؤية منهاجية شمولية سعى فيها إلى محاولة توفيقية بين ما قُدّم طروحات في النظرية النقدية، وكذلك ما قُدّمته نظرية الفوضى، مستهدفا البحث عن قراءة نقدية شمولية للمنجز الأدبي، فلا

الخاتمة

تكتفي القراءة النقدية بالكشف عن النظام، إنما تسعى للكشف عن حالة الفوضى في النصوص، مبرزاً فكرة النصنصة الدالة على مستوى التعقيد الذي يظهره النص المقروء، إلا أنه وقع في دائرة التمثيل على المستوى الإجرائي.

١٧. أما المنجز النقدي للناقدة شريفة محمد العبودي، فأخذ على عاتقه الانهماج بالتطبيق الإجرائي لمقولات نظرية الفوضى، منتخبة لذلك نص ألف ليلة وليلة، إلا أن منجزها تعوزه عملية التأسيس لانتقال المفاهيم النظرية إلى أدوات إجرائية، مما جعلها تغفل عن بعض المفاهيم مثل الانتروبيا وآلية التحول.

أولا - الكتب العربية والمترجمة

* القرآن الكريم

- الاتجاهات الأساسية في علم اللغة: رومان ياكوبسون، ترجمة علي حاكم صالح د. حسن ناظم، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، الدار البيضاء - المغرب، ط ١، ٢٠٠٢.
- الاختلاف والتكرار: جيل دولوز، ترجمة د. وفاء شعبان، مراجعة د. جورج زينات، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٩.
- أساسيات الفيزياء: ف. بوش: ترجمة الدكتور سعيد الجزيري، الدكتور محمد أمين سليمان، مراجعة الدكتور محمد عبدالمقصود النادي، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة - الكويت - لندن، ط ٥، ١٩٩٠.
- الأساطير السومرية: د. الحسيني الحسيني معدي، مراجعة لغوية حسام الكاشف، كنوز للنشر والتوزيع، قصر النيل - القاهرة، ط ١، ٢٠١٢.
- أسس الفكر الفلسفي المعاصر مجاوزة الميتافيزيقيا: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط ١، ١٩٩١.
- إشكاليات القراءة وآليات التأويل: نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط ١، ٢٠١٤.
- أقوى براهين د. جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري الدين: جمع وترتيب م. أحمد حسن، مركز دلائل، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٣٨ هـ.
- الأنا والهذا: سيغموند فرويد، ترجمة جورج طرابيشي، المؤلفات شبه الكاملة، دار مدارك للنشر، الإمارات العربية المتحدة، ط ١، ٢٠١٥.

قائمة المصادر

- الأنثروبيا أو عندما ينتج النظام من الفوضى: داود خليفة، مجلة متون مجلد ١٤، عدد ٢، ٢٠٢١.
- أنثوية العلم: د. ليندا جين شيفرد، ترجمة د. يمنى طريف الخولي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت، سلسلة عالم المعرفة عدد ٣٠٦، ٢٠٠٤.
- أنساب الآلهة: هيزيودوس، ترجمة صالح الأشمر، منشورات الجمل، بيروت بغداد، ط١ ٢٠١٥.
- الأورجانون الجديد إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة: فرنسيس بيكون، ترجمة د. عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١٣.
- البحث عن التاريخ والمعنى في الدين: ميرتشيا إلياده، ترجمة وتقديم د. سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ونشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧.
- بنية الثورات العلمية: توماس كون، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون -الكويت، عدد ١٦٨ - ١٩٩٢.
- بؤس البنيوية الأدب والنظرية البنيوية دراسة فكرية: ليونارد جاكسون، ترجمة ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق-سوريا، سلسلة دراسات فكرية عدد ٦٨، ٢٠٠١.
- تاريخ الفلسفة اليونانية: يوسف كرم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، السلسلة الفلسفية، ١٣٥٥-١٩٣٥.
- تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى: رنيه ديكارت، ترجمة الدكتور كمال الحاج، منشورات عويدات، بيروت -باريس، ط٤، ١٩٨٨.

قائمة المصادر

- تأويل الثقافات مقالات مختارة: كليفورد غريتز، ترجمة د. محمد بدوي، مراجعة الأب بولس وهبة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٩.
- التحليل النفسي من فرويد إلى لاكان: عدنان حب الله، مركز الإنماء القومي، لبنان-بيروت: ٧٧.
- التشابه والاختلاف نحو منهجية شمولية: د. محمد مفتاح، نشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ط ١، ١٩٩٦.
- تشريح النقد محاولات أربع: نورثرب فراي، ترجمة د. محمد عصفور، منشورات الجامعة الأردنية عمادة البحث العلمي ٩١/٣، عمان-الأردن، ١٤١٢هـ-١٩٩١م .
- تفسير الأحلام: سيجموند فرويد، ترجمة د. مصطفى صفوان، مراجعة د. مصطفى زيور، نشر دار المعارف، القاهرة.
- التلمذة الفلسفية: هانز جورج غادامير، ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم صالح، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت-لبنان، ط ١، ٢٠١٣.
- توماس هوبز فيلسوف العقلانية: د. إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة للنشر والتوزيع، مصر، ١٩٨٥.
- ثلاثة مباحث في نظرية الجنس: سيجموند فرويد، ترجمة جورج طرابيشي، المؤلفات شبه الكاملة، دار مدارك للنشر، الإمارات العربية المتحدة، ط ١، ٢٠١٥ .
- جاك لاكان اللغة الخيالي والرمزي: إشراف مصطفى المنساوي، سلسلة بيت الحكمة، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة-الجزائر، ط ١، ٢٠٠٦م-١٤٢٧هـ.

قائمة المصادر

- جذور المادية الديالكتيكية هيراقليطس: ثيوكاريس كيسيديس، ترجمة حاتم سلمان، دار الفارابي، بيروت-لبنان، ط ١، ١٩٨٧.
- جمهورية افلاطون : دراسة وترجمة د.فؤاد زكريا، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٤م.
- حديث الطريقة: رينيه ديكارت، ترجمة وشرح وتعليق د.عمر الشارني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨.
- الحقيقة والمنهج: هانز جورج غادامير، ترجمة د. حسن ناظم وعلي حاكم صالح، راجعه عن الألمانية د. جورج كتورة، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية، ط ٢٠٠٧، ١: ٢٧١.
- دينامية النص تنظير وإنجاز: د. محمد مفتاح، نشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، بيروت - لبنان، ط ٣، ٢٠٠٦.
- ربيع الفكر اليوناني: د عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٩م.:
- ست محاضرات في الصوت والمعنى: ترجمة علي حاكم صالح وحسن ناظم، دار الرافدين، بيروت لبنان، بغداد العراق، ط ٢، ٢٠١٩.
- الشكلانية الروسية: فيكتور ايرليخ، ترجمة الولي محمد، الناشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠.
- الصوت والظاهرة مدخل إلى مسألة العلامة في فينومينولوجيا هوسرل: جاك دريدا، ترجمة، فتحي إنقرّو، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء -المغرب، ط ١ ٢٠٠٥ .

قائمة المصادر

- الطاغية دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي: أ.د. إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة ١٨٣، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٤.
- علم الفوضى: فرانسوا لورسا، ترجمة زينا مغريل، مراجعة د. شمس الدين خياري، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، السعودية، ط١، ١٤٣٤ هـ .
- علم الكتابة: جاك دريدا، ترجمة وتقديم أنور مغيث ومنى طلبة، المركز القومي للترجمة، القاهرة - مصر عدد ٣/٩٥، ط٣ ٢٠١٨ .
- علم اللغة: فردينان دي سوسور، ترجمة الدكتور يوثيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي د. مالك يوسف المطايع، سلسلة كتب شهرية تصدر عن آفاق عربية عدد ٣، الأعظمية - بغداد، ١٩٨٥.
- العلم المرح: نيتشه، ترجمة وتقديم حسان بورقية ومحمد الناجي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٣.
- العلم في منظوره الجديد: روبرت م. أغروس، جورج ن. ستانسيو، ترجمة د. كمال خلالي، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب - الكويت، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٣٤، ١٩٨٩.
- علم نفس الجماهير وتحليل الأنا: سيغ蒙德 فرويد، ترجمة جورج طرابيشي، المؤلفات شبه الكاملة، دار مدارك للنشر، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠١٥.
- العلم والشعر: أ.أ. رتشاردز، ترجمة وتقديم وتعليق محمد مصطفى بدوي، مراجعة لويس عوض وسهير القلماوي، نشر المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، المشروع القومي للترجمة عدد ٤١٦، ط١، ٢٠٠٥.

قائمة المصادر

- غسق الأوثان أو كيف نتعاطى الفلسفة قرعا بالمطرقة: فريدريش نيتشه، علي مصباح، منشورات الجمل، بيروت- بغداد، ط١، ٢٠١٠.
- فلسفة التأويل الأصول المبادئ الأهداف: هانس غيروغ غادامير، ترجمة محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط٢، ٢٠٠٦م-١٤٢٧هـ.
- فلسفة العلم المعاصرة ومفهومها للواقع: سالم يفوت، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٦.
- فلسفة العلم في القرن العشرين: د. يمنى طريف الخولي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة عدد ٢٦٤، ٢٠٠٠.
- فلسفة الفوضوية: علي عبد المجيد الحريري، نينوى للنشر والتوزيع، سورية- دمشق، ط١، ٢٠٠١-٢٠٠٢.
- الفلسفة النسوية: مكافي نويل ، ترجمة مشرف بك أشرف، مراجعة محمد الرشودي، موسوعة ستانفورد للفلسفة، منشورات مجلة الحكمة:٣.
- فلسفة جيل دولوز عن الوجود والاختلاف: عادل حدجامي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء-المغرب، ط١، ٢٠١٢.
- الفلسفة والفيزياء: د. محمد عبداللطيف مطلب، الموسوعة الصغيرة ١٦٣، دائرة الشؤون الثقافية والنشر-بغداد، الجمهورية العراقية، ١٩٨٥.
- الفوضى الخلاقة (استراتيجية السياسة الأمريكية لمائة سنة قادمة): بهاء الدين الخاقاني، مكتبة الخاقاني بغداد-العراق، ط١، ٢٠١٣.
- في الخطاب السردي نظرية قريماس: محمد ناصر العجمي، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٩١ .
- في ماهية اللغة وفلسفة التأويل: د. سعيد توفيق، مجد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م : ٣٦.

قائمة المصادر

- فيمينزم الحركة النسوية مفهومها أصولها النظرية وتياراتها الاجتماعية: نرجس رودكر، تعريب هبة ضافر، العتبة العباسية المقدسة، كربلاء، سلسلة مصطلحات معاصرة ٣٢، بيروت لبنان، ط١، ٢٠١٩.
- قضايا الشعرية: رومان ياكبسون، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء-المغرب، ط١، ١٩٨٨.
- كتاب الحب تقاطعات في ضيافة طوق الحمامة لابن جزم الأندلسي - شعر: محمد بنيس، رسم ضياء العزاوي، تقديم أدونيس، دار توبقال للنشر، المغرب، ط٢، ٢٠٠٩.
- ما الفلسفة؟: مارتن هيدجر، ترجمة فؤاد كامل ومحمود رجب، مراجعة وتقديم عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة، سلسلة نصوص فلسفية ٢، ط٢، ١٩٧٤.
- ما الكون؟: إشراف إيف ميشو، تُرجم في قسم الترجمة في السفارة الفرنسية في مصر، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦.
- ما وراء الخير والشر تباشير فلسفة للمستقبل: فريدريش نيتشه، ترجمة جيزيلا فالور حجّار، مراجعة موسى وهبة، دار الفارابي، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠٣.
- ما وراء مبدأ اللذة: سيغموند فرويد، ترجمة جورج طرابيشي، المؤلفات شبه الكاملة، دار مدارك للنشر، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠١٥.
- ماهي الفلسفة: جيل دولوز و فليكس غيتاري، ترجمة ومراجعة وتقديم مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي لبنان-بيروت، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٧.

قائمة المصادر

- مبادئ النقد الأدبي: أ.أ. رتشاردز، ترجمة وتقديم وتعليق محمد مصطفى بدوي، مراجعة لويس عوض وسهير القلماوي، نشر المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، المشروع القومي للترجمة عدد ٤١٦، ط١، ٢٠٠٥.
- مبادئ في علم الأدلة: رولان بارت، ترجمة وتقديم محمد البكري، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية-اللاذقية، ط٢، ١٩٨٧.
- مبدأ اللايقين عند هايزنبرغ بين ذاتية كوبنهاجن وموضوعية أينشتاين: الدكتور محمود محمد علي محمد، دار الوفاق للطباعة والنشر بأسيوط، ط١، ٢٠١٠.
- محاورات افلاطون: أفلاطون، نقلها إلى العربية شوقي داود تمارز، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٤.
- محاوره فايدروس لأفلاطون أو عن الجمال: أفلاطون، ترجمة وتقديم الدكتورة أميرة حلمي مطر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، بلاط، ٢٠٠٠.
- مدخل إلى التفكيك: ميشل رايان، جوناثان كلر، ريتشارد رورتي، كريستوفر نوريس، تحرير وترجمة حسام نايل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، سلسلة آفاق عالمية ٦٩، ط١، ٢٠٠٨.
- مدخل إلى علم المنطق أساسيات وتطبيقات: جمال ضاهر، دار الفارابي بيروت - لبنان، ط٣، ٢٠١٨.
- مدخل إلى فلسفة العلوم العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي: الدكتور محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ط٥، ٢٠٠٢.
- المركزية الغربية إشكالية التكوين والتمركز حول الذات: د. عبد الله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط١، ١٩٩٧.

قائمة المصادر

- المصادفة والشواش: ديفيد رويل، ترجمة طاهر شاهين، ديمة شاهين، سلسلة قضايا فلسفية عدد ١، منشورات وزارة الثقافة سوريا - دمشق، ط ١، ٢٠٠٦.
- مصطلحات الفكر الحديث: سامي خشبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ط ١، ٢٠٠٦.
- معجم العلوم الإنسانية: إشراف جان فرانسوا دورتيه، ترجمة د. جورج كتورة، الناشر كلمة ومجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، أبو ظبي - بيروت، ط ١، ٢٠٠٩.
- المعجم الفلسفي: الدكتور جميل صليبا، النشر ذوي القربى، قم، ط ١، ١٣٨٥ هـ.
- معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية: جلال الدين سعيد، دار الجنوب للنشر، تونس، ٢٠٠٤.
- معجم مصطلحات التحليل النفسي: جان لابلانوش و ج.ب. بونتاليس، ترجمة الدكتور مصطفى حجازي، مجد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط ٣، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
- مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة - سوريا وبلاد الرافدين: فراس السواح، دار الكلمة ط ١١، ١٩٩٦.
- المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي: محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، بيروت - لبنان، ط ٢، ٢٠١٠.
- المقدس والمدنس: مرسيا ألياد، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط ١، ١٩٨٨.

قائمة المصادر

- مقدمة قصيرة جدا نظرية الفوضى: ليونارد سميث، ترجمة محمد سعد طنطاوي، مراجعة علا عبد الفتاح يس، مراجعة علمية أ.د انتصارات محمد حسن الشبكي، الناشر مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ط ١، ٢٠٢٠.
- من القراءة إلى التنظير: محمد مفتاح، إعداد وتقديم د. أبو بكر العزاوي، شركة والتوزيع المدارس، الدار البيضاء- المغرب، ط ١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م .
- من ألواح سومر : صاموئيل كريم: ترجمة طه باقر، مراجعة الدكتور أحمد فخري، مكتبة المثني ببغداد و مؤسسة الخانجي بالقاهرة.
- المنطق الغائم علم جديد لتقنية المستقبل: إعداد الدكتورة سهام النويهي، المكتبة الأكاديمية، القاهرة - مصر، كراسات علمية ط ١، ٢٠٠١.
- المنهج في عصر ما بعد الحداثة: ويليام دول، نقله إلى العربية خالد بن عبد الرحمن العوض، نشر وطبع وتوزيع العبيكان، المملكة العربية السعودية- الرياض، ط ١، ٢٠١٦.
- مواقع حوارات مع جاك دريدا: هنري رونس، جوليا كرستيتيفا، جبي سكاربيتا، جان لوي هودبين، ترجمة وتقديم فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء-المغرب، ط ١، ١٩٩٢ .
- المورد الحديث: منير البعلبكي و د. رمزي منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان.
- مورفولوجيا القصة: فلاديمير بروب، ترجمة د. عبد الكريم حسن ود. سميرة بن عمو، شرع للدراسات للنشر والتوزيع، دمشق، ط ١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م .
- موسوعة لالاند الفلسفية معجم مصطلحات الفلسفة النقدية والتقنية: أندريه لالاند، تعريب خليل أحمد خليل، إشراف أحمد عويدات، دار عويدات للنشر والطباعة بيروت -لبنان، ط ٢٠٠٨.

قائمة المصادر

- موسوعة مصطلحات علم المنطق عند العرب: د.فريد جبر، د.رفيق العجم، د.سميح دغيم، د.جيرار جهامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت -لبنان، ط ١ .١٩٩٦.
- نحو فلسفة العلوم الطبيعية: الدكتور عبد الفتاح مصطفى غنيمة، سلسلة تبسيط العلوم.
- نحو فلسفة علوم الطبيعة النظريات الذرية والكوانتم والنسبية: دكتور عبد الفتاح مصطفى غنيمة، سلسلة تبسيط العلوم.
- نداء الحقيقة مع ثلاثة نصوص عن الحقيقة لهايدغر: د. عبد الغفار مكاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠ .
- النسوية وما بعد النسوية: سارة جامبل، ترجمة أحمد الشامي، مراجعة هدى الصدة، المشروع القومي للترجمة القاهرة، عدد ٤٨٣، ط ١، ٢٠٠٢.
- نظام ينتج عن الشواش حوار جديد بين الإنسان والطبيعة: إيليا بريغوجين، إيزابيلا استنجر، ترجمة طاهر بديع شاهين، ديمة طاهر شاهين، وزارة الثقافة -دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٨.
- نظرية الأدب مدخل: تيري إيغلتن، ترجمة تائر ديب، دار المدى.
- نظرية الفوضى علم اللامتوقع: جايمس غليك، ترجمة أحمد مغربي، دار الساقى بالاشتراك مع مركز البابطين للترجمة، الحمراء-الكويت، ط ١ ٢٠٠٨.
- نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة: د. شريفة محمد العبودي، مؤسسة اليمامة الصحفية، سلسلة كتاب الرياض عدد ١٧٣، الرياض - السعودية، ط ١، ٢٠١١م.

قائمة المصادر

- نظرية الفوضى والأدب ما بعد ما بعد الحداثة: د. شريفة محمد العبودي، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض - السعودية، ط ١، ٢٠١١م، سلسلة كتاب الرياض عدد ١٧٣.
- نظرية المنهج الشكلي نصوص الشكلايين الروس: ترجمة إبراهيم الخطيب، الناشران مؤسسة الأبحاث العربية بيروت - لبنان، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ط ١، ١٩٨٢.
- النظرية النسوية مقتطفات مختارة: ويندي كيه كولمار، فرنسيس بارتكوفيسكي، ترجمة عماد إبراهيم، مراجعة وتدقيق عماد عمر، الاهلية للنشر والتوزيع، الأردن، ط ١، ٢٠١٠.
- النقد الأدبي ومدارسه الحديثة: ستانلي هايمان، ترجمة الدكتور إحسان عباس والدكتور محمد يوسف نجم.
- النقد الثقافي قراءة في الأنساق العربية: الدكتور عبد الله الغدامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء في المملكة المغربية، ط ٣، ٢٠٠٥م.
- نيتشه: عبد الرحمن بدوي، خلاصة الفكر الأوربي، سلسلة الفلسفة، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت، ط ٥، ١٩٧٥.
- نيشته: د. فؤاد زكريا، نوابغ الفكر الغربي عدد ١، دار المعارف مصر.
- هكذا تكلم زرادشت كتاب للجميع ولغير واحد: فريدريش نيتشه، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، كولونيا - ألمانيا - بغداد، ط ١، ٢٠٠٧.
- هومش الفلسفة: جاك دريدا، ترجمة منى طلبة، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠١٩.
- الهولوية تصنع علما جديدا: جيمس جلايك، ترجمة علي يوسف علي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٠.

قائمة المصادر

- الهيولية في الكون التعقيد المذهل للكون: باري باركر، ترجمة علي يوسف علي، المشروع القومي للترجمة، نشر المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢.

ثانياً - الرسائل الجامعية

- التوجيه الاستراتيجي للمنظمات في إطار التفاعل بين القدرات القيادية وممارسات نظرية الفوضى: فراس إسماعيل العامري، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد كلية الإدارة والاقتصاد، ٢٠١٥.
- فلسفة الفوضى رؤية مستقبلية لتوظيف نظرية الفوضى في فلسفة العلوم: أحمد محمد محمد سالم مطر، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، كلية البنات قسم الفلسفة، ٢٠٠٩.
- نظرية الفوضى وتمثلاتها في الرواية الجزائرية المعاصرة: سعاد بن ناصر، جامعة الأخوة منتوري، كلية الآداب قسم الآداب واللغة العربية، أطروحة دكتوراه، ٢٠٢٠: ١٠٣.

ثالثاً - البحوث المنشورة في المجالات العربية

- التقارب الجدلي التنظيمي لنظريتي الفوضى والتعقيد في منظمات الأعمال العراقية (بحث اختياري في عينة من الكليات الأهلية): أ.د. مؤيد الساعدي، مدرس حسن جبر علوان.
- مدخل إلى نظرية التعقيد والشواش: معين رومية، مجلة المعرفة، سوريا، العدد ٤٧٨، ٢٠٠٣.

قائمة المصادر

- الفن باعتباره تكنولوجياً: فيكتور شكولوفسكي، ترجمة عباس التونسي وحسن البناء، مجلة ألف، ١٩٨٢.
 - مدخل إلى قراءة دريدا: كاظم جهاد، مجلة فصول، زمن الرواية، الجزء الأول، مج ١١، عدد ٤، شتاء ١٩٩٣
 - نظرية الكارثة : د. شاهر النهاري ، جريدة الجزيرة، العدد ٣٥١ في ٢٠/١٠/٢٠١١ الرياض - السعودية.
- رابعاً- مقالات من شبكة المعلومات
- هل يمكن لنظام أن ينشأ من الفوضى؟: شادي عبد الحافظ، <https://www.ida.at.com/can-a-system-that-originates-from-chaos>
 - تـانـجو الفـوضـى والانتـظـام: <https://www.ssrcaw.org/ar/print.art.asp?aid=391852>
 - نظرية الفوضى : <http://elsada.net/> ١٠٥٨٤٠.
 - نظرية الشواش : <https://www.marefa.or/simplified>.
 - نظرية الفوضى : <https://www.meemapps.com/term/chaos-theory>